

فلسفة الشرق

حكمة الحضارات الشرقية

تأليف

الشيخ محمد جبر الحريشاوي

دار المرتضى

مركز أمير المؤمنين
للدراسات الدينية والأبحاث الانسانية

فلسفة الشرق

حكمة الحضارات الشرقية

فلسفة الشرق

حكمة الحضارات الشرقية

تأليف

الشيخ محمد جبر

الحريشاوي

الاهداء

إلى

نونُ كوني ...

وقلم كلماتي ...

إلى

رُفاتُ اشلائي في خبايا روحها ...

أحبتني لكن فقدتها .

حكمة الحضارات الشرقية

- المقدمة
- الأفكار الشرقية القديمة
- الفصل الأول : فلسفة بلاد الرافدين
- الفصل الثاني : فلسفة بلاد النيل
- الفصل الثالث : الفلسفة الفارسية القديمة
- الفصل الرابع : الفلسفة الهندية القديمة
- الفصل الخامس : الفلسفة الصينية القديمة

المُقَدِّمَةُ

الفلسفة لا تنفصل عن واقع الحياة الإنسانية ، وذلك لارتباطها الأساسي بالتفكير والتأمل الإنساني ، ذلك التفكير الذي اتخذ أشكالاً مختلفة وانماط متنوعة على مدى العصور الإنسانية ، متأثراً بنواحي الحياة المختلفة ، وهذا ما يُفسر لنا كثرة مذاهب الفلاسفة ، وتنوع مدارسها ، وهو ما يُفسر لنا أيضاً أهمية فلسفة الماضيين ، وضرورة تقصي منابعها الأولية والوقوف على نتائجها الختامية .

فالتفكير النظري - كما يقول انجلس -: «خاصية غريزية ، ولكن على شكل ملكة فقط ، ملكة يجب تطويرها وصقلها ، وليس هناك ، حتى الآن ، وسيلة لذلك سوى دراسة فلسفة الماضي كلها»[١] .

وبتعبير أخر: الفكر البشري كلٌّ لا يتجزأ ، ترتبط حلقاته ، ويتطور من الماضي إلى الحاضر بحيث لا يتيسر فهم المذاهب الحديثة إلا حين ترد

١ـ ماركس انجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص٣٦٦ ، نقلا عن موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الأساتذة السوفيات ص٢٠

إلى أصولها التي نشأت عنها ، وكلما رجعت إلى أصل رأيت أنك تحتاج في فهمه إلى الرجوع إلى الأصل الذي سبقه ، ويتسلسل بك الأمر حتى تبلغ الأصل الأول الذي نبعت منه الفلسفة[(١)] .

ومن أكبر الموضوعات المتأصلة في الفكر الفلسفي ، موضوع الأصل ذاته ؛ أي البحث عن أصل الأفكار والنظريات ومختلف المسائل التي تثير اهتمام الفكر . حيث نجد معظم الفلاسفة ، إن لم نقل كلهم ، منذ القديم إلى اليوم قد بحثوا مرة واحدة على الأقل في مسألة الأصل هذه ، كأصل اللغة ، أو أصل الدين . إلى غير ذلك من المواضيع التي لا يمكن حصرها وتحديدها كاملة في هذا المقام .

ومن بين المواضيع الأكثر دراسة وبحثاً في مجال الأصول هو موضوع أصل الفلسفة ، وهل ان الفلسفة علم يوناني وبتعبيرهم (معجزة يونانية) ؟ وما مدى صحة هذه المقولة ؟ وهل عرفت الحضارات الشرقية القديمة الحكمة والفلسفة أم أفكارها كانت تجريبية بسيطة لا تعدو المحاولات الأولية للتفكير ؟

تبقى هذه المسألة (مسألة الأصول والجذور الأولى للتفكير الفلسفي) - في نظر بعض الباحثين - بلا حل محدد . وبتعبيرهم لن يحسم التاريخ أبداً هوية مُنشئ الفلسفة ، فقد يكون أحد عباقرة الفقراء هو من اخترعها ثم غرق في لجة التاريخ غير المكتوب قبل أن يتمكن من الإعلان عن نفسه

١ـ فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط د. أحمد فؤاد الأهواني المقدمة

للأجيال القادمة . وليس هناك ما يدعونا لأن نعتقد بوجود ذلك الشخص ، ولكن عندئذ ما كانت الفلسفة لتظهر إلى الوجود . ولحسن الحظ توجد على الأقل سجلات لإحدى بدايات الفلسفة ، حتى إن لم نتيقن من أنها لم تُسبق ببدايات أخرى زائفة[١] .

لذا فإن البحث عن أصل الفلسفة أو أصل الفلسفة اليونانية على رغم من أن التسميتين الأولى والثانية مختلفتان ، ومثيرتان لأسئلة مختلفة ، إلا أنهما تؤديان إلى نفس الساحة الإشكالية . فعندما نقول ما أصل الفلسفة ، فإننا نبحث عنها في الحضارات الشرقية أو اليونانية ، وعندما نبحث عن أصل الفلسفة اليونانية ، فإننا كذلك نبحث عنها في اليونان أو خارج اليونان . بمعنى أن مشكلة أصل الفلسفة عامة تؤدي بالضرورة إلى مشكلة أصل الفلسفة اليونانية بمعنى من المعاني[٢] .

في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح رد أرسطو نشأة الفلسفة إلى اليونان، وأنحدر بها إلى (طاليس) في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد ، وتابعه في مقولته الكثير من الباحثين والمفكرين ، وأن الفلسفة الطبيعية المقطوعة الصلة بالميثولوجيا ، والتي تفسر الظواهر الطبيعية تفسيراً طبيعياً تقوم على ملاحظة الأشياء نفسها ، إنما بدأت مع طاليس ، وأن

١ـ حلم العقل تاريخ الفلسفة من عصر اليونان الى عصر النهضة أنتوني جوتليب ترجمة محمد طلبة النصار ص٢٣

٢ـ نيتشه والإغريق إشكالية أصل الفلسفة عبد الكريم عنيات ص٢٥-٢٦ ، أنظر مفصلاً كتابنا: أشكالية أصل الفلسفة

الفلسفة لم تكن لها قائمة قبل ذلك ، وبهذا يكون أرسطو واتباعه قد أرجعوا بداية الفلسفة ونشأتها من حيث المكان إلى بلاد اليونان . أما بداية الفلسفة ونشأتها من حيث الزمان ، فقد أرجعوها إلى الفترة التي عاش خلالها طاليس ؛ أي النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد[١] .

وقد مال أشياع هذا الرأي تدريجياً باتجاه فكرة (المعجزة اليونانية) وأصالة الفكر اليوناني والشعاع الخاطف في بحر من الظلمات ، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعني القول بان اليونانيين غير مدينين في علومهم وفنونهم وفلسفتهم بل وأديانهم لشيء شرقي ، وإن كان هناك أثر ما في الفنون والفلك فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغي هذا الأثر وتلاشيه ، وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأي ، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص ، ولهذا الرأي أنصار كثر في الغرب نذكر منهم زيلر ، الكسندر ، ويرنيت ، وله أنصار كثر في الشرق أيضاً .

وأن تنزل بعضهم قليلاً عن تلك الصورة إلى القول بأن الشعوب الشرقية ورغم معرفتها المسائل الفلسفية الكُبرى إلا أنه لا يمكن عدهم المؤسسين الأوائل للتفكير الفلسفي ، وذلك لأنهم لم يعالجوا هذه المسائل بالحد والبرهان كما فعل اليونان ، بل أرسلوا القول فيها على نحو ما يُرسل الشعراء ، واستخدموا الشيء الكثير من الخيال ، فصاغت آراءها في قصص

١ـ ما بعد الطبيعة أرسطوطاليس ص٣٦

وأساطير ، وجاءت هذه الآراء أقلَّ نضوجاً وإحكاماً من آراء فلاسفة اليونان[1] .

ولا يمكن الالتزام بهذه المقولة الأرسطية ؛ ذلك لأن التفكير الفلسفي ونقطة بدايته الأولى إنما هي نفس نشأة الإنسان ووجوده على هذه الأرض ، فبوجوده نشأ الفكر والعلم ، ولا نكادُ نتصور حداً فاصلاً بين الإنسان ونشأة الفلسفة ، نعم أن الأفكار الفلسفية الأولى التي أختلقها الأوائل كانت تمثل انماط التفكير الأولي ، وقد تكون من السذاجة والبساطة أن لا تُعد فلسفة بالمعنى المتعارف به اليوم ، ولكن ذلك لا يخرجها من حيز التفكير ودائرة الاستنتاج ، فالفلسفة - كما أشرنا - لا تنفصل عن واقع الحياة الذي نشأت فيه ، متأثرةً بطباع مفكريها الأوائل . لذلك صرح مؤرخون أخرون إلى القول بفلسفة لدى شعوب الحضارات الشرقية ، ورجعوا بأصول الفلسفة إلى ما قبل الحضارة الاغريقية .

فمثلاً ول ديورانت في كتابه الشهير (قصة الحضارة) ذهب إلى التأكيد على أن المؤرخين الغربيين من أنصار الرأي الأول ، الذين يزعمون خطأً أن ثقافة اليونان كانت المصدر الوحيد الذي أخذ منه العقل الأوروبي ، ستتولّاهم الدهشة إذا ما عرفوا إلى أي حد تدين علوم الغرب وآدابه وفلسفاته لتراث مصر وبلاد الشرق الأخرى ، وأشار إلى أن هناك في تراث المصريين كتابات قديمة تتصل بالفلسفة الأخلاقية من بعيد ، بل إن حكمة مصر القديمة كانت مضرب الأمثال من جانب اليونان الذين

١ـ أنظر : دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص١٩

اعتقدوا أنهم أطفال إلى جانب حكماء هذا الشعب القديم[١].

وكذلك (ايفانز لسنر) فيقول في كتابه (الماضي الحي) : «لولا الشرق القديم لما أصبحنا على ما نحن عليه، وبدون فهمه لن ينبني لنا قط معرفة أنفسنا، لقد نقلت إلينا من السومريين مظاهر حضارية كثيرة عن طريق الأشوريين والبابليين والمصريين وكشف لنا الحفريات في بلاد ما بين النهرين عن جذور تطورنا الفكري والروحي. ان الأبجدية التي نعرفها وعقيدتنا الدينية ونظامنا القانوني وفنوننا، إنما رسمتها جميعاً من قبل عملية تطور طويلة، فمن بلاد ما بين النهرين، ومن السومريين جاء ما يمكن أن نعتبر نقطة انطلاق حاسمة في تاريخ الحضارات ألا وهو فن الكتابة»[٢].

لقد اوتي أقوام كثيرة قبل اليونان حكمة وفكراً وحضارة وفناً، و توصلت الحضارات الشرقية إلى كثير من الحقائق والمعارف البشرية، ان الشرقيين عرفوا معظم الأفكار الفلسفية، وأن الهنود زاولوا النظر العقلي المجرد، وبلغوا فيه شأواً عالياً، وقدموا فيه مذاهب، واستنتجوا نظريات لا تقل منهجاً واستدلالاً عن المذاهب والنظريات اليونانية.

مضافاً إلى ما تقدم، أن التفكير في هذا العالم وظواهره وفي أصل الإنسان والغرض من وجوده قديم العهد قدم الفكر الإنساني نفسه، وإن الإنسان أخذ يفكر في معاني الأشياء قبل اليونان بزمن طويل وإن جملة من مسائل العلم التفصيلية لا يستهان بها قد جمعت في عهد المصريين والبابليين

١ـ انظر : قصة الحضارة ج٦ ص ١٣٠-١٣١

٢ـ الماضي الحي أيفانز لسنر ص١٩

قبل اليونان .

لقد وجد العقل مع الإنسان وبقي هو هو في جوهره ، واستخدمته الأمم الشرقية في الماضي السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ، وكذلك نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصًا دينية وأفكارًا في العالم والحياة إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تُسَمَّى قضايا فلسفية ؛ فقد نظروا في أسمى المسائل مثل الوجود والتغير والخير والشر والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها أو أصلًا قد تكون نبتت منه .

لقد كانت هناك حضارات عظمى في بلاد ما بين النهرين و مصر وفارس والهند و الصين . ولقد انتجت هذه الحضارات العلوم والفنون المختلفة ، فان الذي نعرفه عن بابل القديمة ، ان علماءها كانوا يهتمون برصد النجوم وتتبع الافلاك وأن الفضل يرجع اليهم في وضع أول تقويم فلكي ، وكان في مصر طائفة كبيرة من العقائد تدور حول النفس وما يطرأ على الحياة بعد الموت ، وهكذا برز البابليون والمصريون في العلم الرياضي ، وآية ذلك بناء الاهرامات التي تدل على معرفة واسعة بالهندسة ، وعرفت الصين شيئًا كثيرًا عن مبادئ الأخلاق العلمية التي يستعين بها الناس على معرفة طرق العيش وفن الحياة .

لذلك من الضروري لإعطاء موقف بهذا الشأن ، - مسألة حكمة

الحضارات الشرقية - أن نتعرف على الحضارات الشرقية القديمة ، وطبيعة تفكير شعوبها ، ومذاهبها الدينية واتجاهاتها العقائدية ، وابرز اسهاماتها الفكرية والفلسفية .

الشيخ
محمد جبر الحريشاوي

٣ / ربيع الأول / ١٤٤٢هـ

١٠ / تشرين الأول / ٢٠٢١

الافكار الشرقية القديمة

أن الفلسفة ، لم تنشأ بمعزل عن منجزات الإنسان العقدية والعلمية الحضارية . ولا يمكننا أن نفهم تلك المنجزات إذا لم نتابع الذخيرة الفلسفية للمجتمعات المختلفة . ألم يكن تاريخ الفلسفة (على رأي هيغل) هو تعبير عن تاريخ العقل والوجود . ومنطقها هو القانون المثلث الذي يحكم تجليات العقل في عالم الطبيعة ، فكانت النظم الاجتماعية والفنون والأديان ، والعلوم ؟

فالفلسفة ، إذن ، ملتصقة بالحضارة ؛ وإن الحضارة نفسها وليدة الفلسفة . مثلما كانت سببها في تولد الفلسفة ، وأنه من غير الممكن ، تصور قيام حضارة أصيلة دون فلسفة بمستواها إلى الحد الذي دفع (جون ديوي) إلى اعتبارها قوة تاريخية حاسمة تقترن بكل تغير يطرأ على الحضارة ، واختلاف الحضارات على هذا الاعتبار ، متأتٍ من الاختلافات الفلسفية التي تنشأ بموجبها[1] .

١ـ مشكلة الفلسفة د. زكريا إبراهيم ص٢٣٦-٢٣٧ ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص١٢-١٣

بداية نقول أن دراسة الأفكار الشرقية القديمة بالشكل الأمثل يتطلب الألمام باللغات الأصلية التي كتبت بها الوثائق والبرديات التي نقلت إلينا النتاج الفكري لمفكري الشرق القديم. ولما كان يستحيل على الباحث أن يتعلم هذه اللغات في المدى القريب فضلا عن اتقانها، فإنه اكتفى بالاعتماد على كبار المتخصصين في حضارات الشرق القديم واعتمد على ترجماتهم الموثوق بها لهذه النصوص التي سيستخدمها في هذا البحث[١].

وثاني هذه الصعوبات يتمثل في التوصل الى القنوات التي عبرت من خلالها هذه النصوص لمفكري الشرق القديم الى مفكري اليونان سواء فيما قبل ظهور الفلسفة أو بعد ظهورها. وقد وجد بعض الباحثين من خلال الجهود الهائلة التي قام بها المؤرخون وعلماء الأثار من القدامى والمحدثين أن هذه القنوات قد توفرت بالنسبة لبعض الحضارات الشرقية القديمة دون غيرها.

فالأدلة الأثرية والتاريخية وكتابات المؤرخين والفلاسفة تؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك أن مصر كانت مصدراً للمعرفة بشتى انواعها بالنسبة لليونانيين وأن المؤرخين والفلاسفة قد زاروها وتعلموا فيها ونقلوا عنها الكثير في مختلف الميادين مما لا يمكن حصره، فقد أكد هيرودوت هذه الحقيقة[٢]، كما أيدتها المكتشفات الأثرية الحديثة، كما اعترف بها فلاسفة اليونان الكبار أنفسهم أمثال أفلاطون وأرسطو[٣].

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د.مصطفى النشار ص٢٠

٢ـ أنظر : على هامش التاريخ المصري القديم د. عبد القادر حمزة ج٢ ص١٩

٣ـ أنظر : محاورة طيماوس، محاورة الجمهورية لأفلاطون الترجمة للعربية فؤاد زكريا ص

ونفس الشيء نجده بالنسبة للحضارة البابلية التي اعترف اليونانيون أنفسهم بالنقل عنها والتأثر بها ، يقول جورج سارتون : «نحن مدينون للحضارة البابلية بأصول الجبر ورسم الخرائط والكيمياء كما ان تربية الخيل واستخدامها قد جاءانا من الهند وكبادوكيا عبر بلاد ما بين النهرين ...»[(١)] .

أما بالنسبة للحضارة الفارسية وتأثر اليونان بها فأمر لا يقبل الشك أيضاً لأن فارس قد غزت بلاد اليونان والحروب التي دارت بين الفرس واليونان قد ساعدت بلا شك على التلاقي الفكري بين الفرس واليونانيين كما تشير إلى ذلك كتابات المؤرخين ، وتدل على ذلك اعترافات الفلاسفة اليونانية أنفسهم[(٢)] .

أما بالنسبة للحضارة الهندية فإن بيرنت أشد المؤرخين للفلسفة تعصباً للمعجزة اليونانية في نشأة الفلسفة عند اليونان - كما عرفت سابقاً - يعترف بأنهم من بين الأمم الشرقية من يمتلكون المعرفة الفلسفية ، وقد تحدث المؤرخون عن معرفة بعض فلاسفة اليونان للهند ونقلهم عن الفكر

---

٣١٧ ، محاورة فايدروس الترجمة للعربية د. أميرة حلمي مطر ص١٢٣-١٢٤ .

١ـ تاريخ العلم جورج سارتون ص٢١٤ ، أنظر : في العلاقة بين بلاد النهرين (بابل واشور) واليونانيين وفي كيفية نقلهم عنهم : من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري (بلاد الإغريق تحديدا) أ . د عبد الباسط سيدا سوريا - دمشق دار الحصار للنشر والتوزيع ١٩٩٥ ص٩٢ وما بعدها ، بواكير الفلسفة قبل طاليس د. حسام محى الدين الالوسي ص٤١ - ٤٤ .

٢ـ أنظر : تاريخ هيرودوت ص١٣-١٤ ، تاريخ العلم جورج سارتون ج٢ ص٥ وما بعدها ، وأيضا ج٣ ص٢١

الهندي[(١)] .

أما الحضارة الصينية فإنها تتمثل فيها الصعوبة الحقيقية لعدم وجود تلك القناة الواضحة لانتقال الفكر الصيني الى مفكري اليونان ، ويذكر لنا بعض الباحثين أنه لم يعثر بعد على كتابات لمؤرخين أو لفلاسفة توضح أنه قد تم نوعاً من اللقاء بين الفكر الصيني والفكر اليوناني فيما قبل القرن السادس ق . م . وإن كانت هناك اشارات عديدة لتوافر تلك الصلة في وقت متأخر نسبياً وربما يرجع ذلك إلى صعوبة طرق المواصلات بين البلدان القديمة ، والبعد الجغرافي للصين عن اليونان[(٢)] .

هذا ويقسم علماء الحضارات القديمة ، الحضارات إلى قسمين أصلية ومكتسبة ، والحضارات الأصلية التي اكتشفت هي حضارة وادي النيل ووادي الرافدين ، وحضارة الهند والصين ، أما الحضارة الكريتية واليونانية والرومانية وغيرها من الحضارات المعاصرة ، فهي حضارات مكتسبة لأنها بنيت على أساس الحضارات الأصلية كلا أو بعضاً[(٣)] .

وقد تميزت كل حضارة من تلك الحضارات الأربع الأصلية بمميزات خاصة مثل اللغة ونظام الكتابة والفن وأسلوب الحياة ... الخ ، وذلك على الرغم من انتشار عناصر من مركز حضاري إلى آخر ، فلقد اختلف فن

١ـ أنظر : محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة خليل أحمد خليل ص٢٤٥ ، الفلسفات الهندية علي زيغور ص٦٣-٦٤ ، كونفشيوس د. حسن شحاته سعفان ص٦٥

٢ـ انظر : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. محمود محمد علي ص٢٠ -٢١

٣ـ تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسيطة د. مصطفى محمود سليمان ص ١١٠ ، الاصول الشرقية للعلم اليوناني د .محمود محمد علي ص١٤

العمارة في مصر عنه في وادي الرافدين - على الرغم من وجود روابط قوية بين الحضارتين - فلقد اتصلتا قبيل الأسرة الأولى (قبل ٣٢٠٠ ق . م) في أوائلها وأعجبت مصر بفن السومريين في ذلك الوقت وبعض مظاهر حضارتها واقتبست منها شيئاً من طريقة رسم الحيوانات وأخذت عنها الختم الأسطواني وبعض المظاهر الفنية ، ولكن العناصر الأساسية لحضارة مصر ظلت مصرية صميمة ، نشأت في وادي النيل ، ولهذا لم تلبث حتى تركت من تلك المظاهر مالا يتفق مع حضارتها وذوقها وعدلت فيما قبلته منها[1] .

كذلك لم تكن هذه الحضارات في مستوى علمي وحضاري واحد ؛ بل كان بعضها متقدماً على الآخر في بعض النواحي ، فمثلا كان الطب المصري متقدماً على الطب في وادي الرافدين أما أهل وادي الرافدين ، فكانوا أكثر تقدماً في الحساب ، لأنهم كانوا أكثر اعتماداً على التجارة في حياتهم[2] .

وعلى ذلك فإن الدراسة الموضوعية للفلسفة اليونانية ينبغي أن تبدأ من دراسة مصادرها الشرقية القديمة وخاصة في الحضارات الشرقية الخمس الكبرى التي سبقت ظهور الحضارة اليونانية وهي الحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهندية والحضارة الفارسية والحضارة البابلية (حضارة ما بين النهرين) ، بنفس القدر الذي تدرس به من

١- W , T ,Sedcwick and H, W.W.Taylar : Ashort history of Science , the Macmillan Company , New York , ١٩٣٩ pp,١٥-١٦ الاصول الشرقية للعلم اليوناني د .محمود محمد علي ص١٤

٢ـ الاصول الشرقية للعلم اليوناني د .محمود محمد علي ص١٥

خلال مصادرها اليونانية ، فالمصدر الشرقي قد تفاعل وأثر في المصادر اليونانية كما أشرنا من قبل[١] .

وبذلك إذا كان من الواضح المسام به عند الجميع فضل اليونان على الحضارات التالية عليهم فمما لا شك فيه أيضاً أن اليونان أنفسهم مدينون أيضاً للحضارات الشرقية القديمة السابقة عليهم بعناصر كثيرة دخلت في تكوين علومهم وفلسفتهم . وترتيباً على ذلك يصبح من الخطأ الكبير أن نقول بوجود حد فاصل بين عقلية قدماء المصريين أو الشرقيين عموماً وعقلية اليونان ، فنقول أن عقلية الشرقيين أسطورية دينية وعقلية اليونان منطقية علمية ، بل أولى ان نقول أن أصول الفكر الفلسفي والعلمي عند اليونان أنما ترجع إلى فكر من سبقوهم وهم بعد ذلك طوروها وساروا بها في طريق النمو الطبيعي إلى أن أثمرت وبلغت عندهم مستوى النضج الكامل ثم سلموها بدورهم لغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى فأستفادوا منها وأضافوا إليها الكثير[٢] .

ويُحدثنا ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة عن فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية بما نصه : «لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التي وصل إلينا علمها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم لهذا الكتاب فإنا نقصد به جميع بلاد آسية الجنوبية

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٢

٢ـ الفلسفة اليونانية تأريخها ومشكلاتها د. أميرة حلمي مطر ص٢٦

الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضا - وإن خرجنا في هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذي قبل - على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزا انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة ، والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلي المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت دهان التجميل والحلي ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات وشربت الخمور - عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان ...»[١] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص٩

الفصل الاول

فلسفة بلاد الرافدين

- الأفكار العراقية القديمة
- الفلسفة السومرية والبابلية
- بواكير التفكير الفلسفي في بلاد الرافدين
- الفلسفة الكونية وحيوية المادة
- نظرية أصل الكون وفلسفة نشأة الوجود
- فلسفة الحياة والموت
- فلسفة الزمن
- بابل وتطور الأفكار الفلسفية
- فلسفة التشريع (قوانين حمورابي)
- احيقار حكيم الشرق
- الطاعة جوهر الحياة الفاضلة
- الدراسات الإنسانية
- فلسفة التوحيد إبراهيم إنموذجا

الأفكار العراقية القديمة

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهري دجلة والفرات من مصبه في الخليج الفارسي إلى أن ينفصل المجريان «عند بلدة القرنة الحديثة» ، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب ، وجدنا في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة هي : إريدو «أبوشهرين الحديثة» وأور «المُقَيَّر الحديثة» وأورك «وهي المسماة إرك في التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء» ولارْسا «المسماة في التوراة باسم إلاسار والمعروفة الآن باسم سنكرة» ولكش «سيبرلا الحديثة» ونبور «نفر» تتبع بعدئذ نهر الفرات في سيره نحو الشمال الغربي إلى بابل التي كانت في يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة «أرض ما بين النهرين» تجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا الإقليم ، ثم سر بعدئذ مع النهر صعدا قرابة ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة أكد في الأيام الخالية . ولم يكن تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه إلا صراعا قامت به الشعوب غير السامية التي تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها أمام الهجرات السامية والزحف السامي من كش وأجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالية . وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول في

خلال هذا الصراع تتعاون دون أن تشعر بتعاونها - ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها - لتقيم صرح حضارة هي أول ما عرف من حضارة واسعة شاملة فذة، وهي من أعظمها إبداعا وإنشاء .

لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسميهم القدماء جهلا منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئا عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شيء عن هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ بابلي كتب حوالي ٢٥٠ق. م . عن سومر إلا مزيجا من الخرافات والأساطير . فقد وصف في تاريخه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسي ، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : «وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ولم يُخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن .

ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألفي سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هنكز في عام ١٨٥٠ أن كتابة مسمارية - تكتب بضغط قلم معدني ذي طرف دقيق على طين لين ، وتستخدم في لغات الشرق الأدنى السامية - إن كتابة من هذا النوع قد أخذت عن أقوام أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذي ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب «السومري» . وكشف رولنسن ومساعدوه في نفس الوقت تقريباً بين

الخرائب البابلية ألواحاً نقشت عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات في هذه الأيام . وفي عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مدن أور ، وإريدو ، وأرك . وكشف العلماء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر عن أنقاض لكش وعثروا بينها على لوح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفي أيام هذه كشف وُلى الأستاذ بجامعة بنسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح حضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق. م .[١]

ومن المعروف أن العلم البابلي نما قبل الألف الأول قبل الميلاد ، فهو سابق على العصور اليونانية (التاريخية) ، أي أنه سابق لعصر هوميروس وهسيودوس ، ولعصر الفلاسفة الأيونيين كذلك ، أما العلم الأشوري فينتمي خاصة إلى القرن السابع قبل الميلاد ، وهو معاصر لفجر العلم اليوناني مع سبقه عليه قليلاً ، ومع ملاحظة أن العلم اليوناني نشأ وظل مستقلا علن العلم الآشوري ، وأما العلم الكلداني فمن المعروف أنه متأخر عن العلم اليوناني ، ولكنه أثر في العلم الهلينستي المتأخر ، أي العلم (الروماني) وكذلك في علوم العصور الوسطى[٢] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٣ -١٤ ، انظر : السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية جان كلود مارغون ترجمة سالم سليمان العيسى ص٩ فما بعد

٢ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص٣٣٤

فقد كان لحضارة وادي الرافدين ، وخاصة البابلية والأشورية ، منذ زمن باكر ، دورهما المؤثر في تاريخ البشرية ، الديني والعلمي والاقتصادي ، وكان للفلسفة الخاصة بما بين النهرين نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي .

إن بابل أمة أكثر منها مدينة[١] ، فكان للمدينة البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية ، والطرق العامة التي كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر أسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر إيجا ، كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان ، وعلى الأخص ، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى أنتشاراً أوسعاً النطاق في أسيا وعالم البحر المتوسط[٢] ، ولنتعرف هنا على أبرز معالم التفكير الشرقي لهذه الشعوب ومعطياتها الفلسفية والعلمية .

الفلسفة السومرية والبابلية

تعود بواكير فجر الحضارة العراقية القديمة إلى الألف الرابع قبل الميلاد إذ كانت أولى الحضارات العظيمة التي عرفتها البشرية . وكان السومريون في جنوب العراق أول من وضع فلسفة منظمة بالمعنى المعروف، إذ إنهم شغلوا بتأمل الكون وتساءلوا عن طبيعته وأصله ، ويرى صموئيل كريمر ، (وهو واحد من اكبر المتخصصين في الدراسات

١ـ كتاب السياسة أرسطو ١١٢٧٦/٣

٢ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٨٥ – ١٨٦

السومرية) أنه من الطبيعي أن يفترض ظهور مجموعة من المفكرين السومريين في غضون الألف الثالث قبل الميلاد الذين حاولوا أن يصلوا إلى إجابات مرضية عن المسائل التي أثارتها تأملاتهم في الكون وأصل الأشياء . وقد نجحوا في تقديم بعض الآراء والعقائد في أصل العالم والإلهيات اتسمت على حد تعبيره بقدر عظيم من الإقناع العقلي[١] .

وعرف السومريون أنهم أهل حضارة قديمة عريقة في القدم ، وعمدوا إلى تنظيم معتقداتهم وتعليلها مثل الشعوب الأخرى (الصينيون واليابانيون مثلاً) ، بتأليف تاريخ أسطوري (ميثولوجي) طويل . وتم ذلك على أيديهم حول سنة ٢٠٠٠ ق . م أو قبل ذلك إذ تخبر إحدى أساطيرهم بخبر الطوفان لعله كان طوفاناً حقيقياً أو موجاً مدياً من الخليج الفارسي ، وقد يكون هذا هو طوفان نوح الوارد في التوراة . ثم أنهم افترضوا وجود عدد من الملوك قبل الطوفان ، وأن كلا من أولئك الملوك حكم ألوفاً كثيرة من السنين ، وغير ذلك من الأساطير[٢] .

١ـ الفكر الفلسفي العراقي القديم أساس للفلسفة الاغريقية أ . م . د . شعلان كامل اسماعيل ١١٤ ، من ألواح سومر صموئيل كريمر ترجمة طه باقر القاهرة ١٩٥٧ ص١٦٢

٢ـ وحاول الكهنة المؤرخون في هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية . فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسر المالكة التي حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢,٠٠٠ عام ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكماء وهما تموز وجلجمش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابلي . أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين ، وأصبح فيما بعد أدونيس اليونان . ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشيء في قدم حضارتهم ... أنظر : قصة

فإن الكتبة في حضارة وادي الرافدين جمعوا جداول أو أثباتاً بأسماء الملوك والسلالات الحاكمة في البلاد، وخلفوا لنا من ذلك نماذج متنوعة ومهمة، بعضها يقتصر على أسماء ملوك سلالة معينة واحدة، وتضمن بعضها جملة سلالات. فمن النوع الثاني ما يعرف في تأريخ العراق القديم بأثبات الملوك السومرية (Sumerian King – List) وهي أثبات مطولة ومفصلة شملت الملوك الذين حكموا البلاد في عهد ما قبل الطوفان ثم السلالات التي حكمت من بعد ذلك الحدث إلى الزمن الذي جمعت فيه تلك الأثبات. وقد وجدت منها جملة نسخ آخرها النسخة التي دونت في عهد السلالة البابلية المسماة سلالة (أيسن) ٢٠١٧ – ١٧٩٤ ق. م حيث تنتهي تلك الأثبات في نهاية حكم هذه السلالة. أما زمن أول جمع لها فيرجع أنه قد تم في عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق. م)[1].

الحضارة ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٦، تاريخ العلم جورج سارتون (الاصول الشرقية واليونانية) ج١ ص١٤٧.

١ـ ومما تجد الإشارة إليه، أستناد بعض الباحثين إلى مثل هذه الأثباتات السومرية لأثبات فكرة أن عشرة ملوك سومريون حكموا مدناً رافدينية معروفة، لكن التوراة – ومن بعدها من الكتب السماوية – حولتهم إلى أنبياء، ومن الواضح أن الفكرة الأساسية التي استندوا إليها في مدعاهم ترتكز على التشابه العددي بين عدد الأنبياء من أدم إلى نوح وعدد الملوك السومريين. أنظر أنبياء سومريون د. خزعل الماجدي ص٥٩، ص٧٤.

ولكن هذه الاثباتات السومرية لم تقتصر في ذكر عدد ملوكها وحكامها على العشرة فحسب، بل خلفوا لنا من ذلك نماذج متنوعة ومهمة، بعضها يقتصر على أسماء ملوك سلالة معينة واحدة، وتضمن بعضها جملة سلالات، وهذه الأثباتات الأخرى تختلف من حيث أسماء وعدد الملوك فمثلاً ياكوبسن ذكرت أسماء ثمان ملوك، وترجم

ومما ذكروا بشأن تلك الأثبات أنها ذكرت السلالات الحاكمة مع عواصمها أو المدن التي حكمت فيها على أنها متعاقبة في حين أن الكثير منها كان متعاصراً بصورة كلية أو جزئية ، كما بالغت في الأرقام المخصصة لسني حكم الملوك بوجه خاص ملوك السلالات القديمة مما قبل الطوفان وبعده بقليل ، كما أن جامعي تلك الأثبات أغفلوا ذكر سلالات حكمت في العصور القديمة مثل سلالة مدينة (لجش) في عصر فجر السلالات الثالث ، ولعل سبب ذلك ناشئ من اعتبارات سياسية ، إلى غير ذلك من العيوب والشوائب التي تجعل الإفادة منها كمصدر تأريخي لا تتم إلا بعد النقد والتمحيص والاستعانة بالمصادر الأخرى[1] .

مضافاً إلى ذلك أن تلك الأثبات رتبت بقسمين رئيسين :

القسم الأول : سلالات حكمت قبل الطوفان في خمس مدن ملوكها ثمانية [وليس عشرة] ومجموع سني حكمهم ٢٤١٠٠٠ عام .

القسم الثاني : ثم يأتي الطوفان ، وبعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلت في مدينة (كيش) ، فتعدد أسماء ملوكها وسنى حكم كل منهم ثم يعقب ذلك عشرون سلالة ، عدد ملوكها نحو (١٤٠) ملكاً إلى آخر ملوك سلالة (أيسن) التي دونت في عهدها آخر النسخ من هذه

بلونديل قائمتين ؛ الأساسية تحتوي على أسماء تسعة ملوك وخمس مدن ، وقائمة ، المزيدة تحتوي على اثني عشر ملكاً وسبع مدن ، مضافاً إلى ذلك هناك نسخ لقائمة الملوك السومريين نشرها (هلبرشت) عام ١٩٠٦ ، و(شاريل) عام ١٩١١ و (اشماليون) و (ارنو بوبيل) وغيرهم .

١ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة د. طه باقر ص١٦٥- ١٦٦

الأثبات كما ذكرنا[١] .

وعلى كل حال ، فإننا إذا بلغنا عصر الدول ألفينا أنفسنا في ميدان من اليقين لأن الاكتشافات الآثارية أكدت حقيقة الدول الواحدة بعد الأخرى . ذلك أن تنقيبات (سير تشارلس ليونارد و ولي) في (أور) - وهي بلدة الكلدانيين الواردة في التوراة ، ومسقط رأس سيدنا إبراهيم ، أثارت اهتمام العالم ، وأصبحت دولة أور الأولى حقيقة ملموسة ، حيث نمت مدن سومرية نمواً استغرق زمناً طويلاً ليس في موضع (أور) فحسب ، بل كذلك في (كيش) و (الوركاء) و (نفر) و (لارسة) و (أريدوا) و (لجاش) و (أوما) و (تلو) وفي مواضع أخرى . وإن معلوماتنا عن مواضع تلك المدن ليست معلومات أسطورية أو خيالية ، بل تستند إلى تنقيات علمية ، وأصبح كل من تلك المواضع معروفاً الآن في شيء من التفصيل ، إذ تنسجم الاكتشافات الأثرية مع الأخبار المستقاة من النصوص السومرية أو النصوص المتأخرة عنها[٢] .

وتناقلت الشعوب العراقية القديمة ، الأكديون والبابليون والآشوريون، الميراث الثقافي الحضاري السومري ، إذ نقلوا عنهم الكتابة بالخط المسماري ، كما نقلوا عنهم كنوزاً ثمينة من أدبهم وديانتهم وأساطيرهم وتشريعاتهم[٣] ، وطوروا كل ذلك . ومن هذا الميراث

١ـ انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة د. طه باقر ص١٦٦-١٦٧

٢ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص١٤٧

٣ـ الشرق الأدنى القديم عبد العزيز صالح ج١ ص٤٦٠ - ٤٦٥

الحضاري الكبير ازدهرت الحضارة البابلية (في العصر البابلي القديم) التي يؤرخ لعصرها الأول فيما بين عامي (١٩٥٠ - ١٥٩٥ ق . م) ذلك العصر الذي شهد نهضة بابل الكبرى في المجالات السياسية والاقتصاد والفكر والتشريع [١] ، والى هذا العصر بالتحديد نعود لنرى أهم معالم الفكر البابلي وخاصة تلك التي أثرت إلى حد كبير في بلورة بعض معالم الفكر الإغريقي قبل ظهور الفلسفة عند الإغريق وبعده [٢] .

وكان لتطور نظام الرق وتفاقم الصراعات الاجتماعية في بابل أثر بالغ في نشوء التفكير الفلسفي وظهور عدد من المؤلفات التي تتضمن توجيهات ناقدة للتصورات الدينية السائدة أنذاك وكذلك للخروج من سيطرة الافكار الاسطورية اغنية حامل القيثارة [٣] .

لقد نشأت مدينتا لاجاش (تيلو) و (أُما) بين هذين الطريقين المائيين بقرب الخليج الفارسي الذي كان داخلاً نحو ٢٠٠ ك م في منطقة الرواسب ، وقد ازدهرتا وكانتا متنافستين منذ عام ٣٣٠ ق . م . وعند قرب مصب الفرات أنشئت بعد ذلك بمدة وجيزة مدن أوروك وأور وإيريدو . وقد اضطر ملوك لاجاش أبناء الإله المحلى - وكانوا ملوكاً وكهنة في آن واحد - لأن يخضعوا لملوك (أُما) ، فاصبحت بلاد السوميريين أكبر أمبراطورية في آسيا الغربية في عهد الملك لوجال لاجيس (٢٨٩٧ ق . م) . لكن هذه

١ـ أنظر : عظمة بابل هاري ساكز ترجمة عامر سليمان ص٨٥-٨٩

٢ـ من ألواح سومر صموئيل كريمر ترجمة طه باقر ص١٦٢

٣ـ انظر : موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ص٣٨

السيادة السياسية لم تستمر طويلاً ؛ إذ ما مضى قرن حتى جاءت أسرة كيش السامية في شخص سارجون ، فهدمت تلك الإمبراطورية لصالح أسرة أجادية التي جاءت لتأسيس السلطان البابلي . وحوالي ٢٥٠٠ ق . م عاد السوميريين فانتهزوا فرصة انهيار سامي أجاديه التالي لغزو القوط : فأسس أوتوهيجال من أوروك ، وجوديا من لاجاش ، وأسرة أور أنجور في مدينة أور ، مملكة قوية امتدت من السوس إلى الأورنت ومركزها مدينة أور[١] .

وهناك ملحمتان سوميريتان بابليتان تشيران إلى بيانات وشروح في مجال التفكير الديني والفلسفي ، الاولى ملحمة جلجامش التي تقدم لنا بطلا يبحث عن أسرار الحياة والموت ، والثانية الملحمة الخاصة بنزول إشتار إلى الجحيم .

بواكير التفكير الفلسفي في بلاد الرافدين

كان الإنسان وهو يبني حضارته العراقية بأمس الحاجة إلى التنظيم ، بنسق يؤشر لنا التطور المتصاعد ، في نمو مداركه وأدواته ووسائله الحضارية ، بما يؤكد الأهمية المتبادلة بين الحضارة والحكمة ، فشرع ينظر في الكون العجيب ، ويفكر في الحياة الاجتماعية ومعانيها وقيمها ، وأخذ يعبر عن تصوراته وأفكاره تعبيراً متفاوتاً ، ليحقق الموازنة بين الدهشة مما يدور حوله ، والسعي الحثيث لأيجاد القاعدة المادية لمواجهة تلك الظواهر ، فوجدناه مرة ينظر إلى الأشياء نظرة موضوعية ليفيد من إمكاناتها ،

١ـ الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٦٦

ويسخرها لخدمته ، فنشأت أسس العلوم والمعارف والحرف والأساليب التقنية ، وأخرى كان ينظر إليها نظرة ما ورائية يعبر عنها تعبيراً فنياً وهذا ما طبع الأدب السومري والبابلي في الألفين الثالث والثاني ق . م خصوصاً وأن السومريين كانوا يعدون أنفسهم ورثة ماضٍ بعيد ومجيد حيث كان السلام والوئام يسودان العالم .

إذ عن المشكلات المتنوعة والمستجدة تحفز الإنسان على الاختراع والإبداع دماً حيث أخذ بالانتقال من ميدان الطبيعة ، إلى المشكلات الناشئة عن البيئة الاجتماعية ، فلم تنته متاعب بناة الحضارة العراقية القديمة بمجرد استقرار حياتهم ، بل استمروا في مقارعة وتطويع الطبيعة في الوقت الذي سعوا فيه إلى حل المشكلات الاجتماعية الناشئة مع ولادة الحضارة ، بطريقة هادئة لتنظيم العلاقات الاجتماعية والمحافظة على المؤسسات المختلفة . مما يتوجب معه استمرارية العمل والاختراع والإبداع والابتكار على كل المستويات ، فكان حصيلة تلك الجهود آلاف الألواح الطينية المكتشفة ، التي عرفت الباحثين بأصناف المعارف والعلوم والعقائد[١] .

ولم يغفل المفكر الرافدي ، وهو يسجل أفكاره شعراً ، بفواصل واوزان شعرية راقية ضمنها ملاحمه الكثيرة ، التي سبق بها الألياذة والأوديسة بآلاف السنين[٢] ، أن يتناول مسألة الفلسفة أو ما يسمى (أدب

١ـ مقدمة في تاريخ الحضارات د. طه باقر ج١ ص١٩٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣، ٣٣٤ ، ٢٣٨

٢ـ أساطير سومر كريمر ص٥٥-٦٧ ، راجع العقائد والأديان د. محمد جابر الحيني ص٧٦-٧٨

الحكمة) وبوجه خاص ذلك الجانب المتصل بالموضوع الديني الفلسفي الهادف إلى التوفيق بين عدل الآلهة ووجود الشر - في الحياة[١].

وبذلك يتجسد أمامنا، الترابط الحضاري الفلسفي ففي مسيرة البناء المضنية كانت الحضارة ترتكز على أسس فكرية (دينية وفلسفية وعلمية) تتعمق وتتضح معالمها بالبحث والتقصي - حيث حث الإنسان على فكره في حل معضلات الحياة، عبر طرح الحلول الفلسفية لها، وبذلك تتبادل كل من الفلسفة والحضارة، مهام حل مشكلات الناس، دون أن تقف عند حد مادام الإنسان ينزع نحو المجتمع الأفضل يحثه ماضٍ مزدهر، وفي تلك الحقب كانت الفلسفة مستغرقة كل الفعاليات الآنفة، ووسطاً بين الدين والعلم[٢].

وهكذا نشأت العلوم والرياضيات وعلم الفلك، وعلوم الطب والفيزياء والكيمياء، والفنون الجميلة والآداب الملحمية والشعرية في حضارة وادي الرافدين، وأما بالنسبة إلى الفكر الفلسفي فقد أخذ الإنسان الرافدي السعي وراء الظواهر لكشف مجاهيلها وأسرارها عبر عمليتين - فكريتين ضروريتين في قيام الفكر الفلسفي هما:

أولاً: التفكير في الشيء.

ثانياً: متابعة التفكير في ذلك الشيء دون عزل ذلك التفكير عن

١ـ ملحمة جلجامش د.طه باقر ص١٦-١٧

٢ـ الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٣٤-٣٥

الشيء المفكر فيه . بمعنى الربط بين الرمز الذهني وموضوعه في العالم الخارجي . للركون إلى قناعة في تطابق الفكرة مع موضوعها في العالم الخارجي .

وتلك هي المعرفة الحقة ومنها تتشكل الصورة الفلسفية التي كونها المفكر الرافدي عبر دراسة معمقة للمشكلات ، التي استلزم حلها حشد قواه العقلية ، وبذلك يمكننا اعتبار كل الجهود العملية والأفكار العقيدية والنشاطات الفكرية الأخرى ، موجهة لحل المشكلة الفلسفية ، على أساس من النهج التاريخي في متابعة المسار التطوري لها بتسلسل منطقي ، احتوى كل ما تمخضت عنه هذه العمليات من ملاحظات وخبرات متراكمة وأفكار متجددة .

وتجاوزاً لكل المصطلحات التي يرددها بعض الباحثين غير المنصفين من المستهينين بقيمة الفكر الرافدي مرة بحجة (التجريبية) وأخرى بحجة أفتقاره إلى (التأملية) وثالثة بدعوى (الأسطورية) نقول أن المفكر الرافدي جمع بين الدراسة التجريبية والتأملية ، محدداً موقع الفلسفة بين الدين والعلم[١] موفقاً بينهما توفيقه بين الحاجة والخوف من المجهول ، وهو العارف جيداً بأنه في كون تتعرض ظواهره إلى تغير مستمر ، نفذ من خلال ذلك الموقف إلى تبني المواقف الفكرية التالية :

أولاً : الارتقاء من الحسي الملموس إلى العقلي المجرد ، في بحثه

١ـ أنظر : ما قبل الفلسفة فرانكفورت ص ٢٩٠ ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص ٤٠

عن مبادئ وأسباب العالم الحسي ، ومظاهره ، فقال بتعدد الأسباب .

ثانياً : قسم هذه الأسباب (المبادئ) إلى فئتين ، الأولى سلبية ، والثانية إيجابية ، تحددت ميزاتها من خلال عملية الصراع فيما بينهما ، وما تعكسه على الإنسان والطبيعة .

ثالثاً : منح الظواهر الطبيعة رموزاً ما ورائية .

رابعاً : قرن هذه المبادئ برموز أخلاقية ، فمنح السلبية منها رموز الشر - والفوضى والعماء ، أما الإيجابية ، فمنحها رمز الخير والنظام والنور والتجديد .

خامساً : انتهى من فكرة تعدد (المبادئ) أو (الرموز) إلى توحيدها في (عنصر واحد) هو جوهر الأشياء وهوما سمي (بالتوحيد) الإبراهيمي .

سادساً : نظر إلى هذه المبادئ نظرة اجتماعية واقعية فنظر إلى (الآلهة) باعتبارهم يستهدفون خيراً لجماعة ، عبر ألوان من النشاط الفكري جسدتها الأحداث المتلاحقة للتطور التاريخي والمرتبط بعامل الزمن ولا صلة لها بقصص الخرافة[1] .

كان ذلك لدى السومريين ، أما البابليون فقد احتلت لديهم مسألة (الجوهر) أو (السر) أو (الطلسم) موقعاً في تفكيرهم ، حيث فهموا الطبيعة

١- Also Hooks H. Baleyonis,and assyrian Relligion , oxford , p١٦ ،
انظر البحث مفصلا : عن الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٤٠-٤١

على أساس الظواهر العديدة المتباينة ، والأسرار الكامنة في هذه الظواهر ، كما فهموا طبائعها واتجاه إرادتها . ومدى قواها ونفوذها ، وبذلك جارى البابلي ، سلفه السومري في إضفاء النظرة الكونية (الطبيعية) على المجتمع الإنساني بإدراك واع لقانون العلية وبذلك نجح المفكر المتأمل في العراق القديم في توحيد النظرة الكونية الاجتماعية للحوادث الطبيعية والإنسانية مما دفعه إلى تنظيم حياته الاجتماعية تنظيماً لم يعرف في مكان آخر ساعياً من ورائه إلى تحقيق الانسجام ، حتى بدا له أن تنظيم الدنيا مطابق لتنظيم المجتمع البابلي ودولته[1] . ولنسلط الضوء هاهنا على أبرز ملاحم الفكر الفلسفي الرافدي .

أن المحاولات التأملية في تجريد الظواهر ، عمليات عقلية معقدة ، سجلها الإنسان الرافدي ، منذ الألف الثالث ق . م ، فقد عثر في (نفر) على كتابة سحيقة في القدم تذكر اسم إمبراطورية مدينة (أرتيش) السومرية ، امتد سلطانها من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، وكأول إمبراطورية يذكرها التاريخ القديم[2] ولعل أول وأهم وأخطر إنجاز حققوه بهذا الصدد هو اختراعهم (الكتابة) التي لا تخرج في مجملها عن عملية تجريد راقية لأنها جعلت بالإمكان قيام وعي تاريخي عام ، كان سبباً مباشراً في التنقلات الحضارية اللاحقة ، حتى وجد (ويلز) أن جميع ما ظهر في العالم من أبجديات حقة مشتقة من خليط من الكتابة السومرية والهيروغليفية ،

١ـ أنظر : فكرة التاريخ كولنجوود ص٥٢-٥٣

٢ـ موجز تاريخ العالم ويلز ص٦١

ويحق لنا - والحديث لويلز - أن نقول أن هذه المنجزات ، لم تكن لولا الجهود العظيمة التي بذلها المفكر الرافدي حتى سادت الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقارب العشرين قرناً ، ولو استعرضنا بابل سنة ٢٠٠٠ ق . م لوجدناها تعج بأناس مثقفين ، لم يقف عطاؤهم الفكري عند جيل ، حتى يومنا هذا ، يشهد عليها أكثر من مليون لوح طيني موزعة الآن بين متاحف الدنيا[١] .

وفي القديم كان لبيت الألواح (المكتبة) موقع هام في حياة الفرد والمجتمع ، في حفظ النتاج الفكري ، وأقدم ما عرفناه جاءنا من مدينة (نفر) حيث احتوى هذا البيت على عشرات ، بل مئات الألوف من الألواح ، كما كان لمكتبات المعابد شأن يذكر في توسيع آفاق المعرفة وبخاصة تلك التي اقترنت بعبادة إله المعرفة والحكمة والتأمل (بنون) ومع تقدم الزمن والمجتمع ، وتوسع آفاق المعرفة ، وجدنا في (نينوى) أوسع مكتبة التي حملت اسم (آشوربانيبال) ، حيث تفرد هذا الحاكم المفكر بحب عجيب للحكمة والمعرفة .

وتكمن مصادر التراث في ميداني الفلسفة الكونية (الطبيعية) ، والفلسفة الخلقية ، في المأثورات والملاحم التي تعكس صورة واضحة عن الإتجاهات الفكرية لدى حكماء العراق القديم[٢] .

١ـ موجز تاريخ العالم ويلز ص٦٢، ٧٠

٢ـ تاريخ العلم جورج سارتون ج١ ص٣٥٥، ٣٨٨، ٣٤٢، أنظر البحث مفصلا : الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٤١-٤٣

وتضمنت هذه المأثورات والملاحم أبرز المشكلات الفكرية الأساسية ، والتي تدور حول الكون والحياة ، وأصل الوجود والأشياء ، والخلق والإنسان ، وقصة الحضارة ، والمجتمع الإنساني ومشكلاته ، وسلوك الفرد ، وقيم المجتمع وقضية العدل الإلهي ، ومسألة الخير والشر ، وماهية الصراع في الوجود وحدوده .

إذن ، أن إجابات العراقي القديم على المشكلات الطبيعية والاجتماعية جاءت متمتعة بكل مقومات التأمل الفلسفي ، ومن الخطأ الحكم عليها بمنظور العصر أو على ضوء نتائج البحث الفلسفي اليوناني المكتمل على يد الأوروبيين ، لذلك لم نتفق مع الأستاذ باقر في اعتباره الفكر العراقي (غير فلسفي) لأنه يفتقر إلى الاستدلال والاستنتاج والتأمل والنظر إلى الأشياء نظراً موضوعياً[١] ، لتفاوت حدود هذه المفاهيم أولاً ولانهيار الحجج التي استند أنصار هذا الرأي ثانياً[٢] ، ولا نود الاستطراد في إيراد كل ما بين أيدينا من أدلة ، أقل ما يقال عنها أنها تتضمن عشرات المصطلحات ذات المغزى الفلسفي ، المؤيدة بإجماع المعربين لبواكير سومرية[٣] ، تعمقت لدى البابليين ، كما عرف العديد من المفكرين الذين

، وقد عد المحاولات التأملية في تجريد الظواهر وبيوت الألواح من مصادر الفكر الفلسفي العراقي القديم ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ١٩٠ فما بعد .

١ـ خواطر ، آفاق عربية د. طه باقر العدد٦/ لسنة ١٩٧٨ ص٢٦-٢٧

٢ـ أنظر : مقدمة في تاريخ الحضارات د. طه باقر ج١ ص٤٤٤

٣ـ بواكير الفلسفة قبل طاليس حسام محي الدين الآلوسي ص٦٧

دخلوا دائرة الحكماء أبرزهم :

١- اتراحاسس (الحكيم) أحد الحكماء العراقيين المعروفين ، لقب بمنقذ البشرية ، والمتناهي في الحكمة .

٢- آتانيا ، الذي أقترن اسمه بالتساؤل عن سر الحياة ومعالجة مشكلة العقم ، والبحث عن سر المولد .

٣- آدابا الحكيم ، العارف المتصف برجاحة عقله ، ولقب بالابن الأحكم لمدينة أريدو السومرية وصف بأنه (معصوم من الخطأ) يعتبر نموذجاً للإنسان الكامل ، وهو أحد الحكماء السبعة أبكلو Apkallu .

٤- كوديا الحكيم ، الذي يمثل نزوع الإنسان إلى الإصلاح والتأمل اسمه بالسومرية يعني ذا فكر واسع (الفيلسوف ألتجا إلى المعبد بعد أن شحت مياه دجلة ليحقق اتصاله بالإله لحل هذه المشكلة . إنه استخدم الأحلام بأسلوب مقارب من حكاية سقراط معبد دلفي)[1] .

١- أنظر : فنون الشرق الأوسط نعمت علام ص١٢٨ ، ٢٢٦ ، قصة الحضارة ديوارنت ج٢ ص ٢٨٥ ، ما قبل الفلسفة فرانكفورت ص٢٧

الفلسفة الكونية وحيوية المادة

إن المأثورات والوثائق الأثرية التي وصلتنا عن العراق القديم ، لم تقل أن العالم جاء من لا شيء ، كما لم تقل إن الأشياء كانت في حالة فوضى ، فجاء المهندس الأعظم لينظمها ، بل جاءت طبيعة الأشياء (العالم) المحددة متأخرة ، سبقها في فجر الزمن عالم الوعد (الوجود بالقوة) الذي كان سديماً (هيولى) لم يتخذ له شكلاً ولا اسماً (إنه في طور الإمكان) ثم بدأت عملية تسمية الأشياء والخلق من مبادئ مركبة من عناصر متناقضة.

إن فكرة العراقيين القدماء - عن الكون - تعود إلى أكثر من أربعين قرناً خلت حيث رفضوا الاعتقاد بجمود الدنيا أو فراغها ، بل نظروا إليها باعتبارها (حية) توحدت فيها الظواهر الطبيعية بالعلاقات الاجتماعية ، بما يقربنا من وحدة الوجود المقترنة بالتشبيه والتجسيم[١] ، وتلك مسألة ترتقي إلى السومريين والأكديين ،حيث جاءت آرأؤهم حول الخلق وتنظيم الكون ومولد العناصر (آلالهة) بما ينم عن تناول عقلي ناضج يمكن التعرف من ورائه «على قدر من التأمل اللاهوتي والكوني»[٢] .

وحينما تعمق الوعي بتقدم الزمن ، لم نجد في الكون البابلي شطرين أساسين للمادة (الحي) و (الجامد) كما لم يكن يحوي مستويات متباينة

١ـ أساطير سومر كريمر ص٧٧

٢ـ أنظر : أساطير سومر كريمر ص١٢١ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٢

للواقع ، فكل ما يعرف بالحس أو التجربة أو الفكرة له وجود موضوعي ، كما له بقاء ثابت ، باعتباره جزءاً من الكون المتكامل (إنما هو مجتمع أو دولة) ومع كون هياجه يعتبر تجلياً للجوهر نفسه ، فالإرادة الواحدة مندمجة مع إرادات قوى أخرى في نسق كلي شامل يجعل من الكون تركيباً واحداً منظماً وحركياً[١] .

وقد عمق الإنسان الرافدي استنتاجاته الطبيعية ، مستفيداً من الحرية التي تمتع بها في تعديل مجرى الأفكار الفلسفية عن الكون بفضل تطور معتقداته الدينية والجارية وفق مقتضيات الزمن ، وكأن نظرية ديناميكية فيضية[٢] تلك التي ورثها فيما بعد هرمس البابلي ثم أفلوطين .

لقد نشأت على مر العصور فلسفة طبيعية كونية وصفت بأنها (فلسفة الوجود لشعب بكامله) ، وأساس لحضارته وكانت في معظمها أشبه بالبديهة بل هي حقائق أولية فلم يبد المفكر الرافدي اهتماماً كبيراً ومنذ الألف الثالثة ق . م بالقاعدة الفلسفية التي تتناول التساؤلات التالية : هل الكون دولة ؟ ولماذا وكيف تم ذلك ؟ لكونهم أخذوا (دولة الكون) كقضية مسلم بها (حقيقة أولية) فنحن هنا بصدد أقوال عصر - يحل المشكلات الكبرى - كما يقول جاكبسون - إنه عصر العناية بالتفصيل ، وهو ما أجابت عنه

١ـ ما قبل الفلسفة جاكبسون ص١٧٥-١٧٦ ، العراق ما توالى عليه من حضارات د. حسن عون ص٣٩

٢ـ أساطير سومر كريمر ص١٠١ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٢

مأثوراتهم[١] .

كما وجد الإنسان الرافدي أن السلطة (القوة) تمكن في (الكلمة) في (الأمر والنهي) لهندسة الكون وتنظيمه لذلك انتصرت قوى وعناصر الحركة والعمل والخير ، على قوى السكون والخمول والظلام وكان ذلك الانتصار بواسطة السلطة لا (البطش) والسلطة هنا تمثل (العقل والنظام) فآيا الحكيم الخارق الذكاء ، والمبتكر والعالم والمدرك . أفشل القوة الغاشمة (المفتقرة للوعي) بعد قلق وتأمل وعمل ، بعدها بوشر بتنظيم العالم الأرضي ، وذلك بضبط الزمن بواسطة البروج والكواكب والأفلاك والنجوم[٢] .

أما عن الأساليب التي اتبعتها تلك الآلهة الخالقة فقد وضع السومريين مبدأ صار عقيدة سائدة في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم وهو مبدأ القوة الخالقة للكلمة الإلهية فبموجب هذا المبدأ كان كل ما ينبغي للإله الخالق إن يفعله هو إن يصمم الخطط ويقول (الكلمة) وينطق باسم الشيء المراد خلقه فيتم الخلق[٣] . والحقيقة إن هذا المبدأ في أصل الخلق ربما يكون قد انتقل إلى مصر القديمة والعديد من شعوب العالم القديم في ضمن فكرهم الديني في أصل الخلق ونشأة الوجود[٤] .

١ـ ما قبل الفلسفة جاكبسون ص١٧٧ ، أساطير سومرية كريمر ص٥٥-٥٨ ، ما قبل الفلسفة ص١٥٦، ١٧٨، ١٩٨

٢ـ أنظر : ما قبل الفلسفة جاكبسون ص٢٠٥ - ٢٠٧ ، ٢١٥

٣ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة جفري بارندر لندن (١٩٧٠) ت إمام عبد الفتاح إمام الكويت (١٩٩٥) ص١١٥

٤ـ الشرق الأدنى القديم عبد العزيز صالح ج١ ص٨٨ - ٨٩

بمعنى آخر أن العراقي القديم اعتقد أن كل شيء في هذا الكون يحمل سر قوته بالأسم الذي يحمله، وليس هناك شيء دون اسم، أي أن الشيء بلا اسم لا وجود له، لأن وجود الشيء وسره أمران متلازمان، والأسم هو القوة الكامنة في الأشياء والأشخاص تدفعهم باتجاه معين[١]، فاسم الشيء مرادف لوجوده، ولذلك فهو (جوهر الشيء)[٢].

نظرية أصل الكون و نشأة الوجود

ما هي وجهة النظر العراقية القديمة بصدد مسيرة التأريخ العام للكون؟ ومن هو المحرك الفاعل فيه ؟ للإجابة عن هذه الأسئلة لن نذهب أبعد من الفترة السومرية نستقرء ما ورد عنها من أفكار فلسفية بصدد نشوء الكون، والخلق وسنقف عند إجاباتهم على التساؤلات التالية : هل كان السومريون يعتقدون بخلق السماء والأرض (الحدود القصوى للكون) ؟ ومن يا ترى خلقها ؟ أي ما هي علتها ؟ وكيف كانت هيأتها ؟ وما هي العلاقة فيما بينهما؟

إن النصوص السومرية القديمة تشير إلى أن السومريين القدامى قد بلوروا موقفهم من مسألة أصل الوجود وخلق الأشياء على الوجه الآتي :

١- في البدء كان (البحر الأول) الذي وجد منذ الأزل.

١ـ ما قبل الفلسفة فرانكفورت ص٢٥، ما قبل الفلسفة جاكبسون ص١٨٦

٢ـ الحوار الفلسفي بين الحضارات الشرقية القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص ٤٧-٤٨، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٣

٢- إن هـذا البحـر قـد ولـد (الجـبل الكونـي) المؤلـف مـن الـسماء والأرض متحدتين .

٣- بموجب تصورهم للآلهة على هيئة بشر ، وكان هذا أمراً شائعاً في الحضارات الشرقية القديمة ، كان الإله (أنو) (أله السماء) ذكراً والإلهة (كي) (إله الأرض) الأنثى ، ومن اتحداهما ولد الإله (انليل) اله الهواء .

٤ - فصل الإله (انليل) السماء عن الأرض . وإذا كان أبوه الإله (انو) قد اختص بالسماء فإن انليل قد أخذ أمه الأرض ، وهيأ اتحاده بأمه الأرض، المسرح لتنظيم الكون أي خلق الإنسان والحيوان وتأسيس المدنية[1] .

وإذا ما حللنا هـذه التـصورات ، وجـدناها تعتـرف بالخلـق المـادي ، وذلك لأنه ، في البدء ومنذ (الأزل) كان (البحر الأول) - الماء - ولم يكن غيره ، وهذا قول صريح بقدم الهيولى الأولى لنشوء الكون ، وأن المياه الأولى كانت سبباً لظهور (الجيل الكوني) ممثلاً بالأرض والسماء متحدتين ، وتولد من جراء ذلك الاتحاد الأرضي السماوي ، عنصر (الهواء) الذي أصبح فيما بعد سبباً في انفصالهما ؛ وبعد انفصال السماء عن الأرض كان (آنو) في الأعالي و (أيا) في القاعدة ، وأنه من اتحاد الهواء بالأرض تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة ، ومعنى ذلك أن الماء والهواء ، كانا سبباً للحياة والكثرة .

١ـ من الواح سومر صموئيل كريمر شيكاغو ١٩٥٦ ترجمة طه باقر ص١٦٢ ، أساطير بابل وكنعان شارل فيروللو تعريب ماجد خير بك ص٢٠ ، أساطير سومر كريمر ص١٢٧ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٣

وبعد إزالة المسحة الأسطورية عن هذه الآراء وتحليلها تحليلاً موضوعياً ، يتأكد لنا وجود تصورات عن نشأة الكون حرية بأن تسمى (فلسفة) ، فقد تميزت ، هذه التصورات السومرية ، بالقول بالسرمدية والأزلية للمادة الأولى في الكون (الجوهر) ، وبأن الماء هو (الجوهر) الكون الذي كان سبباً في ظهور الأرض والسماء متحدتين ، أي تولد الحالة الصلبة، من أصل (سائل) ؛ وتولد (الهواء) من اتحاد الشمس والأرض ، ثم أصبح سبباً في انفصالهما ، كما أن الهواء أصل لوجود الشمس والقمر وبقية الكواكب المعروفة[١] .

وبعد انفصال اليابس ، وانبعاث الحرارة من الشمس ولوجود الرطوبة من الماء ، أمكن وجود النبات والحيوان والإنسان على وجه الأرض ، بصورة حاول محاكاتها الفيلسوف اليوناني انبادوقليس[٢] .

إن هذه الأفكار الفلسفية - عن الكون - كادت تشير إلى نظرية (الفيض) التي سنجدها عند أفلوطين فيما بعد فالكون - الذي يضم كل ما في الوجود من الظواهر والأفكار المجردة - يأخذ شكلاً هرمياً ، أعلاه (السماء) بما فيها من كواكب وأفلاك ونجوم ، ثم (الهواء) (فالأرض) (فالماء) ، ومعنى ذلك أن حقيقة عملية الخلق ، في الفكر الرافدي ، تظهر على شكل ولادات تمخضت عن تجاذب (السالب والموجب) من أصل

١ـ انظر : الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٤٨-٤٩ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص ١٩٣

٢ـ أساطير سومر كريمر ص٦٤-٦٦ ، ٦٩ -٧٨ ، ١١٤ -١١٩

أزلي ، ظهرت بعدها سلسلة الموجودات ، وكل واحدة منها سر قوتها بذاتها (جوهرها) ، وبذلك تكون عملية الصنع ، هي عملية خلق وتنظيم (إنبثاقي) من مادة كانت تحكمها عناصر الفوضى والظلام ، حيث كان الخلق وفق رغبة عناصر التجريد[1] .

ويلخص لنا (جاكوبسون) الخلق الإنبثاقي هذا بقوله : «إننا نجد لدى سكان ما بين النهرين ، إشارة إلى الخلق ، وفصل السماء عن الأرض ، ودور الهواء في ذلك ، إنها دراسة لأصل معالم الكون الرئيسية ، كما أنها تحوي كيفية تأسيس نظام العالم الحالي ، فنجد مبادئ (الزمن الأول) والفلسفة الاسمية و (والمادة الأولى) - الهيولى - و (الكون بالقوة) - عالم الوعيد - بشكل واضح ، مع استمرار القول (بالماء كمصدر أول للموجودات) ، لكنه مركب من عنصرين ، وهما الماء العذب ، والماء المالح ، حيث كان سبباً لظهور (السحب والسديم) والتي امتزجت في كتلة كبيرة ، فكونت لنا (المادة الأولى) إنها (الكون بالقوة) ، ثم بدأت عملية الخلق (الصنع) الثلاثية على شكل أزواج ثنائية متقابلة ، تنتهي بمركب جديد»[2] .

وهكذا انتقلت هذه التصورات الخلقية (النشكونية) إلى حضارات وادي الرافدين الأخرى ، فقد انتفع البابليون بالنصوص السومرية في نشأة الوجود وقصة الخلق وقدموا نظرية شبيهة بالنظرية السومرية إذ ردت النظرية البابلية أصل الأشياء إلى ماء أزلي اختلط عذبه بمالحة ومثل العذوبة

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٤

٢ـ ما قبل الفلسفة جوكبسون ص١٥٦ - ١٧٢

فيه الإله (آبسو) وهو مذكر ومثلت الملوحة فيه الإله (تيامة) وهي أنثى . وقالوا معبرين عن ذلك .

.... حينما في العلا لم يكن للسماء ذكر

وفي الدنا لم يكن للأرض اسم . ولم

يكن من شيء غير آبسو والدهم وتيامة

أمهم ...

وافترضت النظرية نشأة أجيال الآلهة في جوف ماء البحر (تيامة) جيلا بعد جيل وكان كل جيل منهم يفوق من سبقه حتى أنعقدت ألوية الحكمة بينهم للإله (ايا EA)، الذي كان محبوباً من البشر ومن رفاقه الآلهة في آن واحد ، وكان ابنه الإله (مردوخ) مردوك الذي فاقت قدرته كل الحدود هو الذي عهد إليه رئاسة مجمع الآلهة عند البابليين ، عندما كانت بابل مركز الدولة القوية في عموم أرجاء العراق القديم[(١)] .

وهكذا توحد موقف البابلي مع السومري إزاء الماء فهو عند السومريين (إله الحكمة) و (منظم الكون) نسبت إليه القوانين الإلهية (الميات) التي تقدر حوادث الكون وتؤشر مسيرته . بفعل قوة كلمته يمد الأرض بالرفاهية والوفرة ، لذلك اعتبر كريمر (المي) الموجهة من (آنكي) هي القانون الإلهي ، الذي يحكم الكون ، وفي ذلك أصل (اللوغوس) الذي قال به هيراقليطس فيما بعد[(٢)] . يصفه جاكبسون (بالهدوء) و (التمعن) و

١ـ ما قبل الفلسفة ثور كلد جاكوبسون نبوجيرس (١٩٥٤) ت جبرا ابراهيم جبرا ص١٥٨

٢ـ أساطير سومر كريمر ص٧٩-٨١ و ص٩٤-٩٥

(الوعي) الذي لا حدود له والنظج والفطنة ، وسيد اللفظ الحكيم ، و ... ذو القرارات الخيرة[١] .

إن كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المفكر العراقي القديم ، سواء كان سومرياً أو بابلياً ، هو أول من أعلن عن تأملاته عن أصل العالم وهو الماء ، وأنه من الماء بمساعدة الإله الخالق (أياً كان أسمه) كان كل شيء حي ، وكذلك كل الكائنات[٢] .

١ـ فكرة التاريخ كولنجوود ص٥٥ ، جاكبسون ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٥٢ تنقل هذا التقدير للماء في البيئة العراقية من جيل لآخر وأمتد تأثيره في الحضارات الآخرى ، فنجدُ أن طاليس الفيلسوف اليوناني الأول قال بإن أصل الاشياء هو الماء .

٢ـ الفكر الفلسفي العراقي القديم أساس للفلسفة الاغريقية أ . م . د . شعلان كامل اسماعيل ص١١٤- ١١٥

فلسفة الحياة والموت

حاول الكهنة المؤرخون في هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية . فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسر المالكة التي حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢,٠٠٠ عام ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكماء وهما تموز وجلجمش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابلي. أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين ، وأصبح فيما بعد أدونيس اليونان[1] .

وعلى كل حال ، تعد ملحمة جلجامش من عيون الأدب الشرقي القديم ، وهي خير نص يصور لنا الفكر العراقي سواء في عصر الحضارة السومرية أو البابلية أو الآشورية ، فعلى الرغم من أن أقدم نسخة وصلتنا من هذه الملحمة تعود إلى العصر البابلي القديم (١٩٥٠ - ١٥٩٥ ق . م) إلا أن بعض الآراء تقول باحتمال تدوينها في العصر الأكدي (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق . م) أو بعد ذلك بقليل .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٦ ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشيء في قدم حضارتهم ولكن في وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نبور تمتد إلى عمق ست وستين قدما، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية)أي إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادي .

وجلجامش شاب شديد العزيمة ، وهو حاكم مدينة (أوروك) في بلاد سومر ، إنه يسوق شعبه سوقاً عاتياً ، فيلتمس الشعب إلى الآلهة بأن تخلق منافساً له يشغله ، فيجد الشعب شيئاً من الراحة ، فتستجيب الآلهة وتخلق (أنكيدو) ويصبح رفيق جلجامش ، ويخرج الإثنان في طلب المغامرات والأخطار ، ويشقان الطريق إلى (غابة الأرز) ، حيث يصرعان (حوُاوا) - وهو وحش رهيب يحرس الغابة (لانليل) ... وهكذا بدءت ملحمة جلجامش في البحث عن سر الخلود والحياة ....

لقد عبرت هذه الملحمة عن رأي العراقي القديم في العالم والحياة ، إذ يؤمن بأن الإنسان إنما خلق من أجل غرض واحد فقط هو عبادة الألهة وخدمتها . وحينما يتوفر له وقت التأمل يجد أن الحياة عبث وأن الموت قادم لا محالة . وهو لا يعرف المصير الذي ينتظره ومن ثم ينتابه الشك والالتباس حول حقيقة الحياة وحقيقة الموت . وعليه يمكن القول أن الإنسان العراقي القديم قد انتابه الخوف والقلق إزاء العالم الآخر ، أما الحياة بالنسبة له عبارة عن قلق وهم وسيعقبها الموت حظاً للإنسان وحده دون الإلهة[1] .

وقد عبرت ملحمة جلجامش عن كل ذلك إذ صورت الصراع بين الإنسان والموت وضرورة قبول الإنسان لهذه الحقيقة المرة الظالمة (حقيقة

١ـ بواكير الفلسفة قبل طاليس حسام محي الدين الالوسي ص٧٩ ، أساطير بابل وكنعان شارل فيروللو تعريب ماجد خير بك ص٤٠ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٨-١٩٩

الموت) إنه الرحيل إلى عالم الظلام القاتم . لقد نظر الإنسان العراقي القديم حوله في بيئته وحياته اليومية فأصبحت علاقته بالآلهة محصورة بفعل الخير أو الشر ، فصيفه طويل شديد الحرارة وربيعه كثير العواصف والزوابع الرميلية المؤذية والمؤلمة ، أما الشتاء فكثير المطر لدرجة تخرب الأرض والديار، فكان استنتاجه بأن الإلهة التي لم تسعده دائماً في حياته لا يمكنها أن تلتفت إليه بعين العطف والرعاية بعد موته إذا كان شريراً على الرغم من كل عذابات الحياة ومن هنا يجب أن يرضي الآلهة في حياته ويعمل كل خير ممكن استعداداً لما بعد الموت[1] .

وهكذا نجد أن الموت في عُرف العراقي القديم ، ضرب من الحقيقة المجسدة ، حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به ، والخلود محال ، إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها أبداً ، والنتيجة (نعيش) نحن اللذة ، «أملأ أيامك باللذائذ» ، هذا وحده ما يبتغيه البشر ، مع انصياعنا للأمر الواقع المفروض حسب القوانين الإلهية على الإنسان ، إنها معادلة جدلية بين الحياة والموت ، والأخير حتمٌ (يلغي) الخلود .

وعلى الرغم من كل ذلك كان صراعه مع الموت وخوفه منه يجعله يلتمس في الحياة كل لذة ممكنة ، وهذا يبدو في استماع جلجامش في الملحمة لنصيحة صاحبة الحانة التي قالت له :

.... جلجامش إلى أين تندفع مسرعاً ؟

١ـ ما قبل الفلسفة هنري فرانكفورت ت جبرا ابراهيم جبرا ص٦٣ .

إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

لأن الآلهة التي خلقت البشر

حكمت على الناس بالموت

واحتفظت لنفسها بالحياة

أما أنت يا جلجامش . فأملأ بطنك .

وكن سعيداً بالنهار والليل

وتمتع باللذة كل يوم

أرقص وابتهج ليلاً ونهاراً

ارتد الملابس النظيفة

اغسل راسك واستحم في الماء

تأمل الصغير الذي يمسك يدك

واسعد زوجتك على صدرك[١] .

ويتضح من النص أنه يعبر عن فلسفة الرضا بالواقع وبالحياة التي ينبغي الإنسان أن يلتمس فيها كل المباهج الممكنة دون أن يفكر فيما عدا ذلك . إنها فلسفة تردد صداها لدى الكثير من الفلاسفة الغربيين منذ بيرون (٣٦٠ - ٢٧٠ ق . م) وحتى مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢ م) . إن الباحث المدقق في

١ـ جذور الاستبداد قراءة في الادب القديم عبد الغفار مكاوي ص٢ ، قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص٢٥٨ -٢٥٩

ملحمة جلجامش يجد فيها الأصل العراقي القديم للفكر الفلسفي الإغريقي[(١)]

فقد سبقت الإلياذة بألف وخمسمائة عام تقريباً ، كما إن هناك تشابهاً وتماثلا بينها وبين الأوديسة . والمعروف أن الإلياذة والأوديسة قد أثرا أبلغ تأثير في الحياة الإغريقية كمجتمع وفي الإنسان الإغريقي كفرد في عموم سلوكياته الحيايتة المختلفة .

ولما كان لابد من الموت - في فلسفة جلجامش - طمأن الإنسان نفسه بالنظر إليه نظرة مادية ، مع بقاء دنيانا هي الأجمل مهما كانت صورة الحياة الثانية (أرض اللاعودة) ، لذلك حاول (جلجامش) أن يتمرد على (القانون الإلهي) ببحثه عن الخلود الحقيقي ، وحينما فشل ، استعاض عنه بالخلود المعنوي ، «لم آت لنفسي ببركة واحدة» ، «وإذا سقطت مُضرجاً ، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي» .

لقد أجابت الملحمة عن مسألة أخلاقية كُبرى شغلت فكر الإنسان طويلاً طرحتها كما يلي : «إذا كان الموت حتماً على الإنسان فماذا ينبغي على الفرد أن يسلك في هذه الحياة ؟ أينبذها ويفر منها متقشفاً ؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعم بالحياة تنعماً كلياً ، أم يقبل قانون الحياة والطبيعة ، ويذعن لما ليس منه بُد ، فيضبط زمام النفس ، ويقوم بتلك الأعمال الإنسانية التي تخلده ؟

١- حوار الحضارات روجيه جارودي باريس (١٩٥٩) ترجمة عادل العوا ص١٨-١٩

وهكذا تكون الملحمة قد عرضت لنا أبرز الاتجاهات الخلقية تتمثل في :

(أ)- فلسفة اللذة ، خلاصتها اقتناص الفرص للتنعم بالحياة .

(ب) - الفلسفة (الهروبية) ، التي تسعى جاهدة للتنصل من مسؤولياتها في الحياة .

(ج) - الفلسفة التبريرية ، التي يسعى الإنسان من ورائها إلى تبرير أفعاله حتى وإن كانت خاطئة .

(د) - الفلسفة الواقعية ، التي تسعى إلى تحقيق الإنسجام مع الطبيعة ، والإتيان بالمفيد من الأفعال التي تخلد ذكرى صاحبها .

وبذلك نجحت ملحمة جلجامش في مناقشة مشكلات خلقية ما زالت تشغل بال الإنسان ، وانتهت إلى موقف أخلاقي ملتزم ، تمثل في تأكيد التفاؤل بالمأساة الإنسانية ، منطلقاً من حكمة مفادها ، حارب خوفك من الموت بالعمل الصالح ، فأنك تعيش أبداً ، فذلك يجعل الحياة أسهل عليك وعلى الجميع[١] .

ويجدر بنا هنا أن نذكر البيان التقريبي الذي وضعه بعض الباحثين[٢]

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٠٢ -٢٠٣ ، راجع ملحمة جلجامش ص١٩ -٢٠ ، ص٥١

٢ـ الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٨٢ -٨٣

عن نصيب الفلسفة الخاصة بما بين النهرين في تكوين الفكر العالمي ، وهو:

أولا : نظرية خاصة بالوقت مؤسسة على التأكد من وجود نظام كوني والمظهر الفلكي لهذه العقيدة يجد تعبيراً عنه في تقويم قسم السنة إلى اثنى عشر شهراً ، والشهر إلى أسابيع ، والأسبوع إلى أيام ، والأيام إلى ساعات ، وكذلك في عدد كبير من الملاحظات المتعلقة بالأجرام السماوية . وأما فيما يتعلق بمظهرها الطبيعي ، فيظهر من بيانات متتابعات ثابتة ، هي أساس علم الزراعة وعلم الطب .

واهم ما يمثل هذا النظام هو سير الشمس سيراً منتظماً ؛ ولذلك فإن الإجلال الذي كان هذا الكوكب (الشمس) محاطاً به باعتباره الإله شماس ، يعد مبدأ يرجع إليه أصل جميع الأديان الفلسفة ذات المبدأ الشمسى ، وهي كثيرة متعددة من سوريا إلى بلاد بامير ، ثم يؤثر في التفكير اليوناني وتتخذه إيران من بعد تلك الشعوب (ما بين النهرين) ثم ينتقل هذا المبدأ إلى الهند المحافظة (سوريا ساتاكا) والهند المبتدعة (ماهايانا) .

ثانياً : الاعتقاد في القضاء والقدر ، باعتباره قدراً كونياً ، وباعتباره مصير الأفراد فالشريعة الفطرية التي فرضها الآلهة أو الزمن على كل مخلوق ترى متفقة ومتناسقة مع تطوره ، وهي العقيدة المعروفة باسم (لوجوس سبيرماتيكوس) (الأصل البذري) عند اليونان ، والسبج أي الأمر الإلهي عند الصينيين .

ثالثاً : فكرة غامضة عن السماء باعتبارها السقف الأعلى للعالم وأبا العالم . وهذا الثقف مثقوب ، وقد جاءت الكواكب بسدادات لها ينفذ منها

الضوء، ويمر من خلالها النور الطاهر الخالد الوارد من عالم ما وراء السماء والمنتشر فوق هذا الغطاء.

ويعتبر الضوء والحرارة المطر المتساقط من السماء بذور الحياة تتلقاها الأرض في أعماقها. وعند ما أبدى شيشيرون هذه النصيحة: «انظروا دائماً إلى لأمور السماوية»، وعندما أطلق الملوك الصينيين على أنفسهم اسم ابن السماء أي بعبارة (أبن الله)، نتبين أن عقيدتهم تتصل حينئذ بالعقيدة السوميرية العريقة القدم.

فلسفة الزمن

ظن البعض في فكرة الزمان عند الإنسان الرافدي ظناً آثماً حينما أهمل قيمتها العملية بحجة (الإسطورة) صحيح أن البدايات البعيدة، للأفكار اللاحقة قد تبدو للوهلة الأولى مشوشة، غير واضحة المعالم بسبب أفتقارها إلى العمق والتحليل لكنها على أية حال بداية لابد منها لكني نقتنع بفكرة التطور الذي واكب الفكر الفلسفي في هذه الربوع.

لقد وظف العراقي القديم، خبراته الحضارية؛ توظيفاً فلسفياً، بفضل توفر الشروط النفسية المساعدة على الإبداع والابتكار مستفيداً من الظروف الجغرافية المؤاتية، في لفت أنظار العراقي لسير الزمن من دوام تكرار الليل والنهار وتغير أوجه القمر والفصول والسنين فوضع لذلك تقاويم تنبأ فيها بتلك الظواهر (الجوية، الفيزيائية) في دائرتي (الشمس) و (القمر) ثم أدخل

التحسين على هذه التقاويم ، بصورة تدريجية بفضل تكرار المشاهدات[١] .

ولنتساءل هنا : ما هو الزمان ؟

يُعرف لنا الجرجاني في التعريفات : «الزمان هو مقدار حركة الفلك الأطلس عند الحكماء ، وعند المتكلمين ؛ هو عبارة عن متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم» كما يقال : آتيك عند طلوع الشمس ، فإن طلوع الشمس معلوم ، ومجيئه موهوم ، فإن اقترن ذلك الموهوم (المجهول) بذلك (المعلوم) زال الإبهام ؛ أما الدهر فهو الآن الدائم ... الذي هو امتداد الحضرة الإلهية ، وهو باطن الزمان ، وبه يتحد الأزل والأبد»

ثم يتناول هذه المصطلحات بالتفسير ، فيقول ، الأبد هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة ، غير متناهية ، في جانب المستقبل ، كما أن الأزل : استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية ، في جانب الماضي . وقال عن الأبد : «مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل البتة ، وهو الشيء الذي لا نهاية له» إما القدم الزماني ، فهو «كون الشيء غير مسبوق بالعدم» وهو غير

١ـ تاريخ العلم جورج سارتون ج١ ص٦١ -٦٢ ، ٦٦-٧٦ ، يذكر الدكتور علي حسين جابر في كتابه الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان أن من بين المصادر الكثيرة التي تناولت هذا الموضوع : كتب ؛ ما قبل الفلسفة وتاريخ العلم ؛ وقصة الحضارة ؛ بلاد ما بين النهرين ، وأساطير سومر وغيرها ؛ لكن من بين أهم المصادر التي أعانتني في متابعة تفاصيل هذا الموضوع المعقد كتاب الدكتور حسام الآلوسي (الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم) (أنظر ذلك صفحة ٣٩-٤٨ ، وبحث مدام كاسان ، عن مفهوم الزمان في العراق القديم (أنظر ذلك صفحة : ٣٢٧) وأنظر البحث مفصلا في كتاب الحوار الفلسفي ص٥٢-٥٣

الماضي لأن الماضي ، هو الدال على اقتران حدث بزمان ، قبل زمانك» إلى أخر ما يُبينه في التعريفات[١] .

وخشية الاسترسال مع الفيض المتوافر من الآراء التي زخرت بها المصادر العربية نكتفي بما سجله لنا الدكتور الآلوسي ، عن الأزرقي الذي قال : «الزمان ظرف الأفعال ... وإنما قيل ذلك ، لأن شيئاً من أفعالنا ، لا يقع إلا في مكان ، وفي زمان ... وهما الميقات» ذلك هو المعنى الحيوي المتصل بالفعل الإنساني الذي أشار إليه الطبري بوضوح في قوله : «الزمان هو ساعات الليل والنهار»[٢] .

والآن ، ماذا تخبرنا الوثائق التراثية عن حقيقة الفهم الرافدي للزمن :

لفت نظر العراقي القديم شكل (الأفق - الكون - الدائري) وظاهرة الليل والنهار وتعاقب الأيام والسنين وتبدل المناخ ، وتتابع الفصول ، فربطها بمسألة (الولادة والفناء) حيث سجل مأثوراته التأملية ، وتصوراته الذهنية عنها ؛ بعد أن تداولها مشافهة ، جيلاً بعد آخر ، إشارات وتلميحات حيث اجتهد كل جيل لاحق أن يطور ما بدأه السابق ، ويضيف إليه خبراته المستجدة والمتراكمة لذلك كان دائم التفتيش عن أسباب هذه التغيرات ،

١ـ التعريفات الشريف علي بن محمد الجرجاني ص٢ ، ٣ ، ١١ ، ١٢ ، ٣١ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٨٩

٢ـ انظر : الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم د.حسام الألوسي ص٤١٥ - ٤١٧ ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٥٤- ٥٥

في ظروفه المحيطة باحثاً عن عوامل ذلك الاختلاف وتأثيراتها على حياتهم ، وكان المعني بذلك ليس الإنسان البسيط فقط ، بل وكذلك الإنسان الحكيم المفكر ، راجح العقل الذي استهدف تعليل ومتابعة هذه الظواهر وغيرها بحسب قدراته وإمكاناته العقلية ... حيث اثمرت هذه التراكمات التعليلية والتجريبية عقائد وفلسفات وعلوماً وبخاصة بعد أن تحررت تعليلاته لها ، من قيودها اللاهوتية ، أجتمعت حاجة الإنسان مع ما يجري حوله ورغبته في اكتشاف المجهول ... كل ذلك من أجل أن يكتشف موقعه ، في هذا الوجود ، وليتصرف فيما بعد على ضوء تلك المعرفة هو ما كان (دائرة علم الفلك) سبباً في ظهور التنجيم .

ومع الأيام ، دخل بحث الزمان في (الميكانيكا) دخولاً مباشراً ، بفضل أبحاث الفيزياء والحركة والمكان ، كما دخلت هذه الأبحاث في القرون اللاحقة ، زوايا محددة فدار الحديث عن الأبعاد النفسية والعقلية والرياضية والوجودية والنسبية للزمان متجاوزاً الأطار العام الذي كان معروفاً عند القدماء .

وإننا لنجد في ملحمة جلجامش إشارات صريحة وواضحة عن الزمان ، فتحدثت عن اليوم الأول (Umo اومو) بمعنى اليوم الذي بدأت فيه عملية التكوين ، كما تضمنت إشارات لكلمات مثل : الآن والدهر والسرمد والأزل[١] ، كما جرى الحديث عن الزمان باعتباره سر التغيير والتجديد الذي يرافق الطبيعة والحياة ، والمتحقق بتأثير التجديد الحاصل في (العناصر

١ـ ملحمة جلجامش تعريب سامس سعيد الأحمد ص١٠٩ - ١٣٣

الأساسية) لهذه الكائنات ، بسبب تتالي الأجيال وتعاقبها .

لقد وظف الإنسان العراقي القديم ، مفاهيمه الفلسفية عن الزمان في الجانبين (الفني - الشعري) و (العلمي - الفلسفي) ، كما إن مفهوم الزمان الفلسفي أو العملي موزع ، مبثوث بين ثنايا مأثورات وأخبار العراقيين القدماء عبر عنها في سياق حديثه عن الساعة ، أو الساعة المضاعفة ؛ ثم اليوم ، والأسبوع ، والسنة ومضاعفاتها .

وعلى كل حال . فقد تضمن الفكر الرافدي المفاهيم التالية عن الزمن:

أ - الزمن المطلق (الماضي والمستقبل) الذي يقع خارج العالم المادي والمرتبط بالكون وحركته السرمدية وعلى امتداد الدورات الفلكية (أنه الأزل والأبد) .

ب - الزمن النسبي الذي بدأ مع الموجودات مع الخلق الأول ويمكن تقسيمه إلى :

أولاً : الزمن الفلكي الذي يعين بدء الدورة ونهايتها (السنة الكبرى) (الشر) (الدهر) .

ثانياً : الزمن الحيوي المؤشر بتعاقب الليل والنهار والمراحل التقويمية ، أنه الزمن المحسوب (المقنن) الذي يعتبر جزءاً من الزمن الفلكي . ويعبر عنه بـ (المدة ، والزمن ، والوقت ، والسنة ، واليوم ، والساعة ، والبرهة ،

والآن) . إنها المفاهيم المتصلة بظواهر التغيير على هذه الأرض بمعنى أنه متصل بعملية التغيير وغير منفصل عن حركة الأشياء[١] .

بابل وتطور الأفكار الفلسفية

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ؛ وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فتية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودمها . ولقد انتقلت الحضارة من أوربا إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى برسيبوليس وسارديس وميليتس ، ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان وروما .

وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يحظر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت أن تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثها العالم ، ونقلت إلى العرب

١ـ أنظر : مفصلاً : الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٥٥-٧١ ، تاريخ العلم جورج سارتون ج١ ص١٧٥ ، ٢١٤ ، قصة الحضارة ج٢ ص٢٥١

بعض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظوا بها روح أوربا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أرويا سومر وأكد وغذيا حدائق بابل المعلقة[١] .

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلي من تزاوج هاتين السلالتين ؛ وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكدي ، فقد انتهت الحروب التي شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هي شخصية حمورابي ٢١٢٣)- (٢٠٨١ ق. م الفاتح المشرع الذي دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوئها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية ، ذو عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر في حياته واقعة ؛ وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم[٢] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٨٧ – ١٨٨

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٨٩ –١٩٠

فلسفة التشريع (قوانين حمورابي)

لعل من نافل القول التأكيد على أهمية القوانين بين النتاجات الفكرية لحضارة بلاد وادي الرافدين ، وبسبب دلالاتها المتعددة فقد اصبح الحديث عنها يتقدم بقية الموضوعات الحضارية ، كما اكثر الباحثون من تناول الموضوعات القانونية سواء شملت اهتمامهم ترجمة النصوص القانونية القديمة أو تحليل موادها او استقراء موضوعاتها فيما له علاقة باستكشاف الجوانب الحياتية المختلفة لسكان العراق القدماء .

احتلت الدولة في حياة العراقي القديم ، منذ الألف الثاني ق . م ، موقعاً متقدماً ، وكذلك القانون ، ولا نغالي إذا قلنا أن فلسفة القانون والقاعدة الحقوقية والالتزام الخلقي من المبادئ الأساسية في المجتمع العراقي منذ ذلك الحين .

فقد تميز الإنسان الرافدي بوعي اجتماعي متطور وبخاصة في باب الحقوق والواجبات ، حتى أنهم اعتادوا على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود (القانون) باعتباره الأداة التي تحقق (الإنسجام) و (العدالة) والهادي للسلطة ، فرفضوا على هذا الاعتبار كل محاولة للانتقاص من حريتهم الشخصية ، وتقدم لنا (بابل) بهذا الصدد إنموذجاً واضحاً للمدينة الفاضلة التي هيأت لهم أجواء العيش والإبداع العلمي المتقدم ، واحتل حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق . م) موقعاً هاماً في تاريخ هذه المدينة[1] .

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٠٣

ويبرز في المقام الاول من الحديث عن تاريخ القانون في العراق القديم الاشارة الى ازدهار الجانب القانوني منذ مراحل مبكرة من حضارة بلاد وادي الرافدين ، ففي الوقت الذي نفتقد في أي دليل وثائقي عن صيغ قانونية في مراكز حضارية اخرى كما هو الحال في بلاد وادي النيل ، أو أن تكون بعض النتاجات القانونية في مراكز اخرى ناجمة عن التأثيرات الفكرية لقوانين بلاد وادي الرافدين مثلما كان الحال في بلاد الاناضول ، حقق العراقيون مستويات متقدمة جدا في صيغ القوانين المدونة والتي تعد شريعة حمورابي نموذجاً رائعاً لها[١] .

ويجمع الباحثون على أن قانون الملك اورنمو ، مؤسس الدولة السومرية الحديثة اوما تعرف بسلالة اور الثالثة ، الذي حكم ما بين ٢١١٣ - ٢٠٩٦ ق . م ، هو أقدم النصوص القانونية المكتشفة ، لأن في تقدير الباحثين أن بقايا المدن والمستوطنات القديمة لا تزال تخفي بين انقاضها نصوصاً اخرى لم يحالف الحظ المنقبين بعد لاكتشافها فهناك اكثر من دليل منطقي على وجودها ، ومن ذلك وجود العقود القانونية ، وكذلك اشارات الملوك الصريحة لإصدارهم للقوانين ، ومنهم سرجون الآكدي حوالي (٢٣٥٠ق . م) الذي يذكر من بين اعماله الكثيرة اصداره للقوانين .

ومثلما يكتسب قانون اورنمو قصب السبق والاقدمية لأننا لم نعرف لحد الآن قانوناً مدوناً يسبقه ، وهذا امر ربما يتغير في المستقبل مع احتمال العثور على قوانين تسبقه ، فأن قانون حمورابي يكتسب الاهمية والشهرة بين

١ـ حضارة العراق تأليف نخبة من الباحثين العراقيين الجزء الثاني ص٦٣ - ٦٤.

قوانين العراق القديم على الرغم من أنه ليس بالقانون الأول ولا الأقدم ، وإن زمن صدوره يتأخر عن زمن صدور قانون اورنمو بنحو ثلاثة قرون ولكن الذي يميز قانون حمورابي ويمنحه الشهرة والاهمية ، كونه القانون الوحيد الذي وصل الى ايدي الباحثين بنسخته الاصلية وبحالة كاملة وجيدة تقريبا ، لذلك أمكن ترجمته ودراسته واستقراء موضوعاته وعقد مقارنات بين فقراته أو بين مبادئه وافكاره وبين التراث القانون اللاحق . وهذا ما جرى لقانون حمورابي فعلا ، فقد شهدت نصوصه اوسع الدراسات اللغوية والفقهية والتاريخية والمقارنة ، مثلما ترجم إلى العديد من اللغات الحية المعاصرة[1] .

وقد كُشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس في عام ١٩٠٢م ، اكتشفت البعثة الأثرية الفرنسية المرسلة الى بلاد فارس برياسة (جاك دي مورجان) أثراً مدهشاً من أهم ما خلفته العصور القديمة بقلعة مدينة السوس.

١ـ حضارة العراق تأليف نخبة من الباحثين العراقيين الجزء الثاني ص٧١ - ٧٢ إذ من المعروف انه حتى الفترة التي سبقت أيام حمورابي ، استن ملوك عديدون من الملوك الرافدين الذين حكموا المدينة - الدولة قوانين مماثلة ، لكنه لم يصلنا إلا أجزاء مبعثرة من هذه القوانين . وكمثال على ذلك ما تبقى من قوانين عهد أوركاجينا في لاجاش (لغش تللو) /٢٣٦٠/ قبل الميلاد وسرجون الاكادي /٢٣٠٠/ قبل الميلاد واورناموا في مدينة اور / ٢١٠٠ / قبل الميلاد بالإضافة إلى قوانين لبت عشتار ملك إيسين / ١٩٣٠/ قبل الميلاد والتي كانت نوعاً ما أكثر شمولية والتي وصلنا منها ثمان وثلاثون قانوناً ... أنظر : شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم مجموعة من المؤلفين ترجمة اسامة سراس ص٩.

وهذا الأثر قطعة من الديوريت الأسود ، وهي مهندسة نوعاً ما ، ومصقولة صقلاً جيداً ، وارتفاعها ٢،٤٥ متر وهي الآن محفوظة في متحف اللوفر . ووجد هنا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على اسطوانة من حجر الديوريت نقلت من بابل إلى عيلام (حوالي عام ١١٠٠ ق. م) فيما نقل من مغانم الحرب ، إذا أخذها فاتح عيلامي غنيمة حربية وقيل عن هذه الشرائع أنها منزلة من السماء . فترى الملك على أحد أوجه الأسطوانة يتلقى القوانين من شمش إله الشمس نفسه[١] .

وتقول مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أنو الأعلى ملك الأنونا كي وبِلْ رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم ، لما أن عهد حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ ... ولما أن نطقا باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض – وفي ذلك الوقت ناداني أنو وبِل ، أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم ، وأقضي على الأشرار والآثمين ؛ وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ... وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق . أنا حمورابي ، أنا الذي اختاره بِل حاكماً ، والذي جاء بالخير

١ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص١٩٢ ولعل هذا الفاتح (شترك –نخني) (١٢٠٠ – ١١٠٠ ق . م) الذي أقام في عاصمة مملكته ، حيث أزيلت أجزاء من القانون ، لتخصيص موضع النقش في تمجيد الفاتح العيلامي . غير أنه أمكن معرفة معظم هذه الأجزاء التي أزيلت لأنه وجدت من القانون نسخ مدونة في ألواح الطين ، وربما في أحجار أخرى .

والوفرة ، والذي أتم كل شيء لنبور وذُريلو ، ... والذي وهب الحياة لمدينة أرك ؛ والذي أمد سكانها بالماء الكثير ؛ ... والذي جمل مدينة بارسيا ؛ ... والذي خزن الحب لأوراش العظيم ؛ ... والذي أعان شعبه في وقت المحنة، وأمن الناس على أملاكهم في بابل ؛ حاكم الشعب ، الخادم الذي تسر أعماله أنونيت ...

ويحتوي القانون على ٢٨٢ مادة ، تسبقها عبارة ابتهالية يوضح فيها الملك عظمته وأهدافه السامية ، ويقول فيها إنه قنن القوانين الموجودة " ليجعل العدل سائداً في البلاد ، ولكي يبيد أهل الشر والفساد ، حتى لا يطغى القوى على الضعيف ولكي يشرق العدل كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود ، ولنشر النور في البلاد) . وبعد أن سرد الملك جميع فضائله وأمجاده ، وعدد أعماله العسكرية والسلمية ، ختم هذه المقدمة بقوله : «حينما فوضني مردوخ أن أقود الناس الى سواء السبيل ، وأن أدير شئون البلاد . أصدرت القانون والعدل في لغة البلاد ،متوخياً بذلك رعاية مصالح الناس ...» .

يقول ول ديورانت بهذا الصدد : «إن الألفاظ التي أكدناها نحن في هذه العبارة لذات نغمة حديثة ؛ وإن المرء ليتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي «مستبد» عاش في عام ٢١٠٠ ق. م ، أو أن يتوهم أن القوانين التي تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية مضى عليها ستة آلاف عام . وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذ هي التي جعلت قانون حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة . فهي تفتتح

بتحية الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهي تمزج أرقى القوانين وأعظمها استنارة بأقسى العقوبات وأشدها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهي إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة والعمل الحصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتي رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة ، وبالأملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعمل ؛ نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقياً وأكثر تمديناً من شرعية أشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة .

وقلّ أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كلها ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته: «إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ... أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد ... وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة ... فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة ، ليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة ! ولعل أثرى هذا يكون هادياً له في قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه فينادي: «حقا إن حمورابي حاكم كالوالد

الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة»[١] .

ونجدُ وللمرة الأولى في هذه القوانين ذكر المثل الأعلى الأسيوي للملك الكامل ، الذي أخذت عنه الصين تعليق ملك العدالة ، تقليد ملك الأب لشعبه ، وهي فكرة لا يقل مداها الميتافيزيقي عن معناها الاجتماعي ، ونشأ عن ذلك مصائر علم الإلهيات التوحيدي ومصائر السلام العالمي والحق ، ومستقبل المذهب العقلي ، فقبل أن يفكر الإغريق في أن الرجل الحكيم سيكون سعيداً في تنورفالاريس[٢] ، جاء حمورابي بعناصر حل مؤقت ، وهو تخفيف المظالم الاجتماعية بالالتجاء إلى عدالة سيد أب رحيم يخفف شدة القانون بتطبيق قوانين غير مكتوبة[٣] .

وهكذا جاءت شريعة حمورابي اصلاحاً قانونياً شاملاً للتشريعات السابقة عليه ، وهي غير قابلة للإجتهاد والتحوير ، فلكل قضية عنده حكم هو الصواب ، والحق لديه واحد لا يتغير ، وعلى الإنسان أن يسعى دائماً إلى تحقيقه ، وإذا ما فشل في ذلك فعليه أن يدفع ثمن الخطأ[٤] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٩١ -١٩٢ ، حضارة العراق تأليف نخبة من الباحثين العراقيين الجزء الثاني ص٦٩ - ٧٠

٢ـ فالاريس ، طاغية صقلي عاش في القرن السادس ق . م ، وقد عرف بجبروته وتنوره النحاسي الذي كان يميت به حرقاً من يريد .

٣ـ الفلسفة في الشرق بول - ماسون أورسيل ص٧٧ -٧٨

٤ـ راجع : القانون العراقي القديم د. عامر سليمان ج١ الوصل ١٩٧٧ ص١٣٢ وما بعدها .

ولعل قائل يقول : إن قوانين حمورابي لا تمت لما نحن فيه بصلة ، فإن تشريع القوانين وتنظيم حياة الفرد والمجتمع ، وإرساء دعائم العدل والمساواة بينهم ، لا يكون مرتبطاً بالتفكير العقلي المحض ، ولا يُشكل أساساً ومهداً لعملية التفكير الفلسفي ، ذلك التفكير الذي - كما يدعي أصحاب المعجزة اليونانية - انفرد به اليونان عن سائر الشعوب والحضارات!

فإننا نقول : إن مفهوم الفلسفة ولاسيما في بداياته الأولى لم يكن مقتصراً على التفكير العقلي والاستدلالي المنطقي وإنما كان شاملاً لمفهومه العام والأوسع لكل مفاصل الحياة الإنسانية والعلمية ، بل حتى في مراحل متقدمة من التطور الفلسفي ، فإننا لنجد في امثال ذلك التنظيم الأجتماعي والفردي في الفلسفة اليونانية السقراطية أو الأفلاطونية بل حتى الفلسفة الارسطية ، وبالتالي لا يمكن لنا بسهولة إزاحة هذه التنظيمات القانونية والتشريعات الاجتماعية عن حيز التطور الفلسفي والتفكير الإنساني .

مضافاً الى ذلك ، إننا نجد في هذا القانون أو غيره المواد القانونية والمعلومات القانونية المتعلقة بإجراء العقود ، أو شروط الدين وحقائق الدائن ونسب الفوائد ، وعقوبة الاخلال بالالتزام ، وشروط الزواج والطلاق وتبعات كل منهما الاجتماعية والاقتصادية ، وغير ذلك القوانين الاخرى ذات الارتباط بالحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك يكشف مدى الازدهار الفكري والتقدم الثقافي في تنظيم العلاقات الانسانية بين ابناء المجتمع ، وبراعة العقل العراقي القديم ، المتفتق الخلاق والمبدع .

وبتعبير جورج سارتون : «ينم عن تطور طويل للفكر القانوني .

ويصور لنا الناحية القانونية من العبقرية البشرية تصويراً باهراً ، وهي ناحية لا يمكن الاستغناء عنها في بناء أية حضارة ، ومؤرخ العلوم جدير بتوجيه جانب من اهتمامه إلى هذه الناحية منهما حاول الاقتصار على ميدانه»[١] .

ويمكن تقسيم مواد القانون إلى ستة أبواب ، هي الأموال المنقولة . وملكية الأراضي ، والتجارة ، والأسرة ، والأضرار ، والعمل . وفي ذلك دليل - كما يرى جورج سارتون - على أن البابليين كانوا رأسماليين أصحاب مصالح تجارية ، ومع أنه يجوز إن كان مجتمعهم ثيوقراطياً وعقولهم مشبعة بالأوهام السحرية ، فإنهم ينظرون إلى الأشياء على وجه مادي عملي عسير عندما تكون مصالحهم المادية في خطر[٢] .

ولكي ندرك حجم التقدم الحاصل في وعي الإنسان الحقوقي - كما أظهرته مدونة حمورابي - فليس هناك اظهر من تفحص (مكانة المرأة) في القوانين العراقية ، فهي معيار الكشف عن مستوى النضج الحضاري ، في ذلك المجتمع ، وفي أي مجتمع آخر ، إن الأحوال الشخصية في شريعة حمورابي مثلتها المواد (١٢٧ - ١٩٤) ، التي عالجت مسألة الأولاد ورضاعتهم ، وعدم شرعية الزواج ، بدون عقد شرعي ، بالإضافة إلى نصيب المرأة بالتجارة وتمتعها بالحرية في ممارسة مهنة التجارة ، وحرية الفتاة الغنية في الزواج من عبد ، وبروح المشرح المسؤول ، إلى غير ذلك من

١ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص١٩٣ - ١٩٤ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٠٤

٢ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص١٩٤ - ١٩٥

الأحكام المتعلقة بالمرأة وحريتها ، إلى الحد الذي يصف بها ول ديورانت مكانة المرأة العراقية القديمة بقوله : «ولم تستمتع نساء انكلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي»[1] .

وهكذا تكشف لنا هذه القوانين ، مدى التقدم الحضاري والإنساني الذي شهدته الحضارة العراقية في مختلف ميادينها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي نظمت حياة الفرد والمجتمع في ظل قانون يحفظ الحقوق ويكفل للجميع التمتع بحرياتهم .

احيقار حكيم الشرق الأدنى

يمثل احيقار الرجل الحكيم الذي يحسن المشورة ويصوغ الحكمة في قول موجز بليغ . واحيقار واضع الأمثال ، وكثير من امثاله لا يزال حياً شائعاً على ألسنة الناس حتى يومنا هذا . ويتردد ذكر احيقار في كثير من الآداب العالمية وفي كثير من الكتب المقدسة وكتب الابوكريفيا . فقد ورد ذكر اسمه في سفر طوبيا ، ولأقواله وحكمه شبه كبير بالادب الحكمي في سفر الأمثال وسفر الجامعة ويشوع بن سيراخ . وإذا ذُكرت خرافات ايسوب ذكر معها احيقار . وقد ورد اسمه في الادب الاغريقي الكلاسيكي : ديمقريطس وثيوفراست وسترابو . وفي العهد الجديد امثال وحكم تشبه امثال احيقار الحكيم . فلا غرابة اذا أستأثرت قصة احيقار بكثير من الاهتمام

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ج٢ ٣٢-٣٣ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٠٦-٢٠٧

والبحث التاريخي . ولنتعرف معاً على شخصية هذا الحكيم وقصته ، وما قيمته حكمته في الفكر الفلسفي .

ورد في العربية في بيت شعر لعدي بن زيد : حيقار حيقار ، ومعرفاً بأل : الحيقار . اما في لسان العرب تحت مادة (خفر) فقد ورد الخفتار . ويرد الأسم في غير العربية بأشكال مختلفة ولكنها في جوهرها واحد . وفي التلمود (ايقار) وفي العربية (اح - يقار) و (احي يقار) وفي الاشورية (احي يقار) . أما في اليونانية فيظهر هكذا : Achikarus (Akikarus) و Achiacharos وهذا الشكل الأخير يتفق تماماً مع الشكل الاشوري . والاسم مركب من اح أو احي (ومقابلها العربي اخ أو أخو) ومن يقار ، ويقابلها في العربية أي الثقل والرصانة والاهمية . فيكون معنى الاسم اخو الرصانة والفضل أو الوقار ، واخ كنية كما هي الحال في (أبو) . والاسم سامي اشوري ، ويلائم شخصية احيقار ، لأنه يمثل الوقار والرصانة والفضل[1] .

وأحيقار ، كان وزيرا آشوريا ينسب إليه كتاب «حكم أحيقار» المكتوب بحوالي ٥٠٠ ق . م بالآرامية والذي عثر عليه في إلفنتين بمصر

١ـ احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٥٢ ، أنظر : المعرب للجواليقي ، طبعة ساخو ص٥٤ ، وفي لسان العرب تحت مادة (خفر) : وغصن على الخفتار وسط جنوده وبيتن في لذاته رب مارد . والخفتار ملك الحبشة ، واما في حماسة البختري ٦٨ : عصفن على الحيقار وسط جنوده وبثيتن في لذاته رب مارد . والحيقار ملك من ملوك الفرس .

العليا . وبحسب القصة المذكورة في هذا الكتاب كان أحيقار وزيرا لكل من أسرحدون ووالده سنحاريب من قبله ، من ملوك اشور وفي عهدهما عاش احيقار ، كما تقول القصة[1] .

وقد قام بتبني ابن أخيه ناداب[2] لكي يخلفه غير أن الأخير يتهمه أمام أسرحدون فيسجن أحيقار في انتظار إعدامه غير أنه يخبر المسؤول عن عملية الإعدام كيف أنه خلصه من الموت سابقا فيقوم هذا بقتل أحد السجناء بدلا منه ، وهنا تنقطع القصة لفقدان بقيتها .

غير أن نسخا أخرى تذكر هربه إلى مصر ومن ثم عودته منتصرا إلى منصبه بعد إثبات إخلاصه لأسرحدون ، وقد اتخذ احيقار اسم ابيقام عند

١ـ اما سرحدوم فهو بدون شك اسرحدون ، وفي النص الآرامي يرد اسمه اسرحدون لا سرحدوم . وفي القصة يظهر سرحدوم انه ابن سنحاريب ، وهذا خطأ في التاريخ ، اذ أن سرحدوم هو أبو سنحاريب لا ابنه . وفي الاشورية اسرحدون معناه (الاله اشور اعطى ابنا) ، وسنحاريب معناه (الاله سن = (القمر) أكثر من الاخوة . انظر : احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٥٣-١٥٤ .

٢ـ وفي النص الآرامي نادان ، وهو ابن اخت احيقار الذي تبناه وعلمه الحكمة . ويظهر هذا الاسم ايضاً بأشكال مختلفة ومتباينة ففي مخطوطة سيناء يرد (ناباد) و (ناداب) . وقيد خيل للبعض أن هذا الاسم فارسي ومعناه (الجاهل والاحمق) على أساس ان ابن اخت احيثار يمثل الحماقة والجهل . ولكن الاسم سامي صرف فلماذا الذهاب بعيداً إلى الفارسية ؟ يظهر هذا الاسم كثيراً في الأسماء الاشورية المركبة كما في اسرحدون الذي ذكرناه انفاً ، والاسم مشتق من جذر سامي مشترك (ندن) او (نتن) بمعنى اعطى ووهب . فيكون معناه (وهب) أو (عطاء) أو (المعطي) كما هو في الآرامية : (نادن) . انظر : احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٥٤-١٥٥ .

فرعون مصر ليخفي شخصيته . والظاهر - كما يرى بعض الباحثين - أن احيقار اعتبر أنه قد (قام) من الموت ، فدعا نفسه (ابيقام) ! وهو اسم عبري ، ويصلح أن يكون بابلياً او اشورياً أيضاً . وقد ورد شبيه هذا الاسم في سفر الملوك الثاني : ٢٥ : ٢٢ ، وسفر ارميا ٣٩ : ١٤ : احيقام[١] . كما تذكر نسخ أخرى لقائه بابنه بالتبني الذي يلقى حتفه بعد ذلك .

اختلفوا كثيراً في اصل القصة ، فمن قائل أنها أسرائيلية كتبت باللغة العبرية ، ثم ترجمت إلى سائر اللغات . ومن قائل أنها يونانية ، ومن قائل أنها آرامية ، ومن قائل أنها فارسية كتبت إلى أهل جزيرة الفيلة للتعليم والوعظ .

ولكن يعتقد البعض أن القصة آشورية كانت شائعة أولاً باللسان الاشوري ثم انتقلت إلى الآرمية . لم تصلنا القصة بشكلها الاشوري الأول ، ولكن لا شك في أن القصة كما وردت في البردي الذي وجد في جزيرة الفيلة تمثل اقرب الترجمات إلى الأصل .

مضافاً إلى ذلك ، إننا عند دراستنا للأسماء الواردة في قصة احيقار يدل على أن أصل القصة اشورياً . نعم ، في سفر طوبيا تتغير الأسماء إلى أسماء عبرية ، وهذا أمر طبيعي ، وكذلك في الاغريقية وفي الآداب التي أخذت عن الإغريقية ، فأن بعض الأسماء هناك يختلف عن شكله السامي الأصلي .

١ـ احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٥٧

وهكذا فأننا لا نرى لماذا مؤلف إغريقي ، إذا كان أصلها إغريقي ، أو مؤلف يهودي ، إذا كان أصلها يهودي ، أو مؤلف فارسي ، إذا كان أصلها فارسي ، يلجأ إلى أسماء اشورية وآلهة اشورية ويختار مسرحاً لحوادث قصته ، بلاد نينوى واشور[1] .

فأن روح القصة ، ومسرح حوادثها ، وأسلوب سردها ، جميع هذه الأمور تدل على أنها اشورية المنشأ واللغة . وعن الاشورية - التي ربما بقيت شائعة في القرن السادس قبل الميلاد - اخذها بعض اليهود الذين كانوا يتكلمون الآرامية . وعن الآرامية نقلت بأسماء يهودية ، وبروح عبرية ، إلى اللغة اليونانية فسائر الآداب التي يرد فيها ذكر احيقار وحكمه وامثاله .

وقد اختلف في احيقار بين كونه موحداً أو وثنياً ، وما يهمنا كتب احيقار ، إذ يحتوي هذا الكتاب على العديد من الأمثال التي يتردد صداها في حكم يشوع بن سيراخ وسفر الأمثال، وتقسم تعاليم احيقار إلى قسمين ، الأول النصائح والحكم التي اعطاها لابن اخته نادان تأديباً وتحضيراً له ليحل محله في خدمة الملوك ، والثاني ، التوبيخات التي وجهها احيقار لابن اخته نادان بعد أن رد إليه اعتباره[2] .

١ـ انظر : احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٥٩-١٦١

٢ـ انظر البحث مفصلا : احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ص١٦٢ فما بعد

الطاعة جوهر الحياة الفاضلة

آمن إنسان وادي الرافدين ، بأن كل ما في الكون يسير حسب (خطط) إلهية تستند على قواعد ونواميس مقررة وما على الإنسان إلا أن ينقاد لها طائعاً مختاراً لأن الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته ، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاماً دقيقاً عادلاً من أجل الحفاظ على التوازن والأنسجام الكلي فيه ، ما على الفاضل إلا طاعته .

واحتلت فضيلة (الطاعة) الواعية موقعاً مهماً في الأخلاق الرافدية ، تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجرى التطور اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الرافدين ، أهمها (فضيلة الإنسجام والتوافق) .

والحياة الفاضلة هي الحياة (المطيعة) ، والعصر الذهبي ، هو عصر الطاعة ، حيث تتدرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة ، فالمجتمع ، فالدولة ، والنظام ، وفق سلطة موجهة ، إذ يستحيل في عُرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سُلطة تكون دائماً على حق لأنها تطبق القانون العام و (النظام الألهي) ، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة أفضل ، ومركب (الطاعة) و (التخطيط) هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق ، والأبناء الكثر ، والمال[1] .

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٥

فنحن واجدون نشيداً يصف عصراً ذهبياً قادماً، يتميز بأنه عصر الطاعة :

يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه،

يوم يبين الاحترام جلياً في البلاد، ويبجل صغير القدر الكبير،

يوم يحترم الأخ الصغير ... أخاه الكبير،

ويرشد الولد الأكبر الولد الأصغر، ويتمسك الأخير بقراراته[١].

ويوصي العراقي القديم دائما بأن (أسمع كلمة أمك، كما تسمع كلمة إلهك) و (وأحترم أخاك الأكبر)، و (واسمع كلمة أخيك أكبر كما تسمع كلمة أبيك) و (ولا تغضب قلب اختك الكبرى).

وما طاعة المرء للأفراد الذين يكبرونه سناً في العائلة إلا البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى وسلطات أخرى : الدولة والمجتمع، فثمة المراقب حيث يعمل المرء، وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء، وثمة الملك، وكلهم يطالب بالطاعة المطلقة، والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الأستياء والشفقة - ونظرة الخوف أيضاً، والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها، ثم إن الجمهور الذي يعوزه القائد والتنظيم لا يجدي ولا ينتج، كحقل لا ينمو الزرع فيه إذا لم يحرث (الفلاحون) بلا مشرف كحقل بلا حارث[٢].

١ـ انظر : ما قبل الفلسفة جاكبسون ص٢٣٩

٢ـ أنظر : البحث مفصلا الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٩٦-١٩٨، ما قبل الفلسفة جاكبسون ص٢٤٢

الدراسات الانسانية

ننتقل الآن إلى الآداب القديمة التي أثرت أعمق الأثر في النواحي الروحية لآداب الحضارات الآخرى ، فالألياذة والأوديسة المملوءتان بالأدب الشعري والقصصي عند اليونان ، والريج فيدا التي تتضمن الإنتاج الأدبي في الهند القديمة ، والأفستا التي تشمل الأنتاج الأدبي الأيراني القديم . والملحوظ أولاً أنه لم يدون من هذه الآداب شيء في صورته الحاضرة قبل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد . أي أن الأدب السومري المدون على الواح يرجع عهدها إلى حدود ٢٠٠ ق . م . يسبق زمنياً عهد تلك الآداب بأكثر من ألف عام .

وثمة فارق جوهري آخر ، وهو أن نصوص تلك الآداب ، الألياذة والوديسة والريج فيدا والأفستا ، التي وصلت إلى أيدينا تغيرت وتعدلت وتنقحت على أيدي الناسخين والشارحين والمنقحين ، لأغراض متنوعة ووجهات نظر مختلفة . ولم يكن الحال كذلك في الأدب السومري ، إذا وصل إلينا كما نقشته أيدي الكتبة الأقدمين الذي عاشوا قبل عصرنا الحاضر بأربعة الآلف عام ، دون أن يغير فيه الناسخون والشارحون المتأخرون[1] .

وقد أكتشفت بعثة التنقيبات في (نفر) نحو ٥٠،٠٠٠ لوح محفوظ الآن في متحف جامعة بنسلفانيا ، ومن هذه ٣٠٠٠ لوح يوجد أكثر من ثلثيها في

١ـ أنظر : تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص٢٠٨

فيلادلفيا مدونة باللغة السومرية ، ويرجع عهدها إلى ٢٠٠٠ ق . م لكنها تمثل عهوداً أقدم من هذا التأريخ ، وقد تم قراءة وتفسير عدداً كافياً من هذه الألواح ، وهي تتضمن في معضمها نصوصاً أسطورية ، وتراتيل دينية إلى الآلهة ومرائي وأمثالاً وحكماً وآراء متعلقة بالخليقة .

ومما تجد الإشارة إليه ، أن السومريين الأوائل لم يحسبوا أنفسهم محدثين في الحضارة ، بل وارثين لتراث ماض مجيد ، وهم بذلك الاعتقاد ، يعتبرون أول المبتكرين لفكرة مرور الإنسان في عصر (ذهبي) ومصداق ذلك أساطيرهم :

«في تلك الأيام لم تكن الحية في الوجود ، ولم يكن العقرب ، ولم يوجد الضبع ولا الأسد ، ولم يكن الكلب الوحشي ولا الذئب» . «لم يكن خوف ولا هلع ، ولم يكن للإنسان من غريم» . «في تلك الأيام كانت أرض (شوبر) (الشرق) ، موضع الخير العميم ، وموضع الأحكام العادلة» . «وكانت بلاد سومر (الجنوب) ذات اللسان الواحد المنسجم ، هي البلاد العظيمة التي نبعت منها أحكام الإمارة» . «وكانت (أورى) (الشمال) الأرض المحتوية على كلما يحتاج إليه» . «وكانت بلاد (مارتو) (الغرب) آمنة مطمئنة» . «كان الكون جميعه ، والناس كلهم ، يمجدون (انليل) بلسان واحد» .

وفي تلك الأزمان البعيدة الحالية التي يصورها ذلك اللوح كان في الأرض سلام عام ، ولم تكن في الألسنة بلبلة ، وكان البشر سعداء يمجدون الله . وهذه الفكرة العجيبة القائمة على أن المجتمع البشري بدأ كاملاً ثم

هوى (وهي عكس فكرة التقدم)، كانت شائعة بين الناس . ولم يقتصر الأمر على مشاركة معظم كتاب الأزمان القديمة في الاعتقاد بها ، بل أنها استمرت في الشيوع نوعاً ما إلى ما بعد القرن السابع الميلادي .

أما فكرة (التقدم) فلم يكن لها نصيب كبير في الظهور حتى العصور الحديثة ، ولم تنتصر حتى حلول القرن التاسع عشر . ولا يزال في زماننا هذا أناس لا يستسيغون قبولها ، لأن في شرور العالم من القسوة والذيوع ما يجعل خيراته محجوبة عن أعينهم[١] .

ويشهد لوحان من ألواح (نفر) أحدهما في متحف اللوفر في باريس والآخر في فيلادلفيا ، على (الروح الإنسانية) السومرية والوعي الأدبي السومري ، إذ يحتوي هذان اللوحان على قوائم مؤلفات أو ربما فهارس خزانات كتب ، وهي أقدم الوثائق من نوعها . ويحتوي لوح فيلادلفيا على ٦٢ عنواناً ، لوح متحف اللوفر على ٦٨ عنواناً ، ومن هذه ٤٣ عنواناً مشتركة في اللوحين ، وهكذا يعطينا اللوحان ٧٨ عنواناً لتأليف أدبية . وأمكن إلى الآن تعيين ٢٨ تأليفاً منها .

وصفوة القول أن حضارة ما بين النهرين ، استمرت أزماناً طويلة وعصوراً مختلفة - وهي العصر السومري والبابلي والآشوري والكلداني - بحيث يصعب علينا توضيح أثرها في الشعوب الأخرى على وجه الدقة . وعلى أية حال فالكتابات التي كتبها أشخاص من غير علماء الآشوريات مملوءة بالغموض والإبهام ، وينبغي للباحث أن ينظر الى تلك الحضارة على

١ـ تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص٢٠٩

أنها مركز الطاقة الروحية المتحركة إلى الأمام طوال ثلاثة أو أربعة آلاف عام ، فنشرت حول نفسها إشعاعات حضارية طوال ذلك الزمن . ووصلت تلك الإشعاعات إلى سورية ومصر ، وإلى الجزر الكائنة في شرق البحر المتوسط وإلى الأقاليم المطلة على ذلك الجزء من البحر المتوسط ، أي الأناضول وأرمينية وبلاد فارس ، وربما الهند والصين ، ومن الأهمية الكبرى أن نعرف متى بدأت كل موجة من هذه الإشعاعات .

فإن الكسور الستينية ، وتقسيم الساعة على أساس ستيني ، وكذلك تقسيم الدرجات والدقائق (على الأساس نفسه) ، وتقسيم جميع اليوم الى ساعات متساوية ، وفكرة نظام كامل للأعداد مع ما لانهاية له من المضاعفات وما تحت المضاعفات ، والطريقة المترية ، ومبدأ المرتبة في كتابة الأعداد، والأزياج الفلكية ، ونحن مدينون للحضارة البابلية بأصول الجبر ورسم الخرائط والكيميا كما أن تربية الخيل واستخدامها قد جاءانا من الهند (؟) وكبدوكية عبر بلاد ما بين النهرين ... وفي هذا الأحصاء السريع ما يكفي لتوضيح ضخامة ما ندين به إلى أسلافنا السومريين والبابليين[1] .

وبعد ، فهل نغالي إذا قلنا - استنتاجاً من كل ما تقدم - أن (بدايات فلسفة في الطبيعة والاخلاق) ظهرت في وادي الرافدين ، ثم انتقلت إلى بلاد اليونان ، مع أفكار شرقية أخرى ، لتتعمق وتتجسد على أيدي فلاسفتها

١- أنظر : تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) ص٢١٣ - ٢١٤

، بما يواصل التقدم الفكري والفلسفي للإنسانية ، ومن أبرز هذه البدايات :

١- أن الكلمة تساوي الاسم ، والاسم يساوي الشيء ، والشيء يساوي الوجود ، بمعنى أن اسم الشيء يعني وجوده ، ولا شيء في الوجود بلا اسم ، ولا اسم بلا كلمة ، ولا كلمة بدون وجود ، فما لا اسم له ، لا وجود له .

٢- كلما هو موجود هو جزء من (الكون) ولا شيء في الكون دون (قانون) ينظمه ، عليه تصبح جميع الموجودات ، خاضعة للاتساق والنظام ، ومن غير الممكن تصور وجود كون تحكمه الفوضى وتسوده العبثية .

٣ - الكون كالإنسان ، حي وعاقل ومنظم ، ولا حياة دون نظام وعدل ، لذلك أصبحت الحياة الإنسانية السعيدة ، لا تستقيم إلا في ظل نظام عادل ، ولما كانت الكائنات الحياة محكومة بالنظام ، فالإنسان قبل غيره - وبوصفه سيد المخلوقات - محكوم بالنظام والطاعة الواعية .

٤ - ثم يرتقي منطق العراقي القديم إلى نسق أعلى في دائرة الواقع الاجتماعي والأخلاقي ، متجاوزاً حدود الأفق الطبيعي ، فالكون يساوي المجتمع ، والمجتمع لا يستقيم إلا بالنظام ، ولا يمكن تصور النظام بدون (قوة) السلطة ، ولا سلطة بدون (عدالة) القانون ، ولا عدالة بدون حاكم عادل ، وشعب مطيع ومتعاون ، عليه لا مسؤولية دون قانون عادل ، إذن القانون هو الذي يحدد مسؤولية الإنسان العاقل والعدالة هي قانون الحياة الفاضلة في المجتمع السعيد . وهكذا ، نجدُ أنه كان لحضارة وادي الرافدين ، منذ زمن باكر دورها المؤثر في تاريخ البشرية ، وكان للفلسفة الخاصة

فيما بين النهرين - طبيعية وأخلاقية - نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي[1].

فلسفة التوحيد إبراهيم إنموذجا

قدس العراقي القديم أرواح الأسلاف، موجودات محسوسة قريبة منه بعد أن ظن أن فيهما قوى إلهية فيها علامات (الحياة) الخير، بجانب دلالات (التدمير) والانتقام والموت فراح يتقرب منها لكي لا يبقى تحت وطأة الخوف من (المجهول) وليتجاوز (فرديته) ويضمن له قدراً من الطمأنينة الداخلية بفضل ذلك (الامتداد) الذي يبدأ من (الداخل) إلى حيث تقف القوى المقدسة، ولكي يتناغم إزاء ما يجري حوله من أحداث ووقائع لا يريد أن يشعر بالغربة إزاءها وقد تكون سبباً في تعاسته، إن هو قصر في تقديم فروض التقديس وطقوس الطاعة كناية عن ذلك الامتداد الذي يشعره دوماً بتوازن المعادلة، بينه وبين الطرف الآخر (المقدس).

وفي سياق ذلك الأطار، أرتقى معتقده بارتقاء وعيه واتسع باتساع دائرة حركته التي عادة ما تقطع خيوط الامتدادات السابقة، وترسم خطأ جديداً من الاتصال مع قوى تتوافق والمتغيرات التي طرأت في مجمل حياته، فمال إلى عبادة رمز الكثرة بعد أن تكاثر وتكاثرت عليه الكوارث ولا عزاء له غير (الأم) ملاذ الأبناء المنكوبين ... ثم ارتقى إلى حيث المواقع التي هي (ارفع) من مستوى بيئة الإنسان فعبد القوى الطبيعية (الهواء) و

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٠٧-٢٠٨

(المطر) و (العواصف) التي ظن أنها تثور وتغضب لتقصير منه ، وإهمال ارتقى بعدها إلى عبادة الكواكب فهي موطن السر المقدس في عليائها وكل ما هو عال وسام ، فهو مقدس ، وغيرها واطئ ودنس ، متغير (فاسد) إن الكواكب كائنات مقدسة يكمن فيها سر توازن الأحداث واستقرار العيش وزيادة الخير وكثرة المواليد ، حيث تحقق السعادة للإنسان.

فانتظمت لى هذا الاعتبار لوحة (المبادئ) أو الرمز أو (الأسباب) التي اكتسبت صفة (التأليه) حيث شد الإنسان فيها بصره ، فهو دائم التطلع إلى السماء في الليل أكثر منه في النهار ، يطلب بركات الأسباب ! ويحرص على حسن العلاقة معها ، ... فالسماء هي السر المعلقة به متغيرات الأرض هكذا أصبحت (جغرافية العقيدة) العراقية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد فالأرض وما عليها ، من حوادث وبشر هي امتداد لنفوذ (الآلهة) في القبة السماوية تتحكم في حركة الأحداث جميعاً ، من (بقاء) و (ازدهار) و (تدمير) ، فأصبح مجمع الآلهة - الأسرة المقدسة - يضم (الهواء والماء والشمس والقمر والزهرة ، ... وبقية الكواكب المعروفة ... والتي أصبح لها رئيس هو بمثابة رب العائلة المقدسة ونعني به آنو - (السماء) صاحب مملكة السماء .

وتتقدم الحياة ويتقدم معها وبها ، وعي الإنسان وأدواته ووسائله وتتراكم خبراته وتتجدد إجاباته عن المشكلات القديمة والجديدة فتتغير المفاهيم والقناعات بفضل بحثه المستمر عن إجابة مقنعة ! تحافظ على (الامتداد) بين (الميحط - الكوني) وبينه وصولاً إلى أفضل المواقف ، التي تضمن له قدراً معقولاً من (الاستقرار) والسعادة فكان ما كان من طقوس

ومعابد وعقائد ورموز متعددة لهذه (الآلهة) بمقدار ما توجد في وادي الرافدين من مدن وقرى من صروح ومعابد لهذه الامتدادات الروحية التي أصبحت ليست هماً من هموم الإنسان وطقوسه بل وجزءاً من واجبات السلطة الدنيوية في رعاية حسن الروابط بين السكان والأرباب !

فقد نشر أور- أنجور في البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما في الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشري ، إله موح مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمس «نور الآلهة» الذي كان يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء . ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبته النارية . وشيدت مدينة نبور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحبته نهيل ، وأكثر ما كانت تعبد أوروك إلهة أنينى العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكد الساميين باسم إستير ، والتي تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفرديتى - دمتر الفاجرة الغمليجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كش ولكش أمّاً لهما حزينة هي الإلهة ننكر ساج التي أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة ؛ وكان ننجرسو إله الريّ و «ربّ الفيضانات» وكان أبو أو تموز إله الزرع ؛ وكان سِنْ إله القمر ، وكانوا يمثلونه في صورة إنسان يعلو رأسه هلال أشبه شيء بالهلالات التي تحيط برؤوس القديسين في العصور الوسطى ؛ وكان الهواء كله في زعمهم مملوءً

بالأرواح - منها ملائكة خيرين لكل سومر ملك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخيرة الواقية وتقمص جسم الآدمي وروحه[١] .

وما يلفت النظر أن الإنسان الرافدي كان دائم البحث عن مسوغات لاختصار المبادئ المؤثرة في حركة الكون إلى أقل عدد ممكن من المبادئ مع ميل لاحق لأكثر من هذه المبادئ شفافية وسمواً لكي يجعله ، سبباً للذي دونه ذلك عبر عن نزوع (وحدوي) في تفكير الأسلاف ، لكنه ما زال في دائرة السامي (المرئي المحسوس) الأكثر قرباً من الإنسان والأبعد صلة به فهو فقط السر ، و (الجوهر) الكامن وراء الأشياء لذلك قدس (الماء) ثم (آيا - آن - كي الأرض) بعدها أصبح (آنو - السماء) هو رب الأرباب[٢] .

وهكذا عبرت الإرهاصات السابقة عن ميل للتوحيد بقي ردحاً من الزمن أسير الأسباب المرئية المحسوسة (الطبيعية) فهي وحدها ، صاحبة (القوة) و (الجبروت) القادرة على تحقيق الحياة الهانئة للإنسان المطيع مقابل قدرتها العجيبة على تدمير حياة (الابن الضال) ! ثم أصبح إله الماء بعد حين ، ليس الماء المرئي والمحسوس بل (السر) الكامن في الماء (قوة

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ج٢ ص٢٨-٢٩

٢ـ إحيقار الحكيم تحقيق ونشر المطرقان غريغوريوس ، بهنام بولص ص١٠٩ - ١١٤، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص١٩-٩٢

الماء) ومثل ذلك قيل عن (الهواء) والأرض ... والخيرة كانت أم الإنسان وسبب عيشه ومكان احتوائه حينما تنتهي فيه أسباب الحياة !

وما إن ولج إنساننا الألف الثاني قبل الميلاد ، حتى كان دائم التفتيش عن تصور يتجاوز الطبيعة إلى ما ورائها ، إلى حيث السبب الأول وسر الأسرار وجوهر الأشياء ، وسبب الأسباب واصل الوجود ونجح وبذلك ارتقى (بالبشرية) ... من التعددية إلى الوحدة ومن الطبيعة إلى التوحيد الخالص النقي ... مثلما ارتقى بالبشرية من عصور الجهل والأمية ، إلى عصور الكتابة والنور والتأريخ ! وكان بذلك رائداً لثورة عقيدية فكرية منهجية تناولت في الجانب القريب (مشكلات العصر) العقيدية والاجتماعية ، كما رسمت طبيعة الامتداد الذي ينطلق من عقل وقلب الإنسان إلى حيث السبب الأول ، برؤيا شفافة نقية (حنيفية) ، إنه إبراهيم الخليل (عليه السلام) فما هي قصة هذا التأثر ؟

ينتمي الخليل إبراهيم (عليه السلام) زماناً إلى القرن التاسع عشر ق . م ، ومولداً إلى أور الكلديين في العراق ولساناً إلى (جزيرة العرب) وعقيدة إلى (التوحيد) وحكمة إلى (الميتافيزيقا) .

يقول العقاد في كتابه القيم ، إبراهيم أبو الأنبياء : «إنه إبراهيم بن آزر ظهر في الجيل العاشر بعد الطوفان ، في أور الكلدانية ، حيث سميت أور بمدينة إبراهيم وزيادة في التخصص قالوا إنها تقع على الفرات الأسفل قرب موضع يقال له المقير مما يعني أنها تابعة أور التابعة لمحافظة (ذي قار) في جنوب العراق . وإن حاول بعض (الماديين) التشكيك بوجود شخصية

كهذه مثلما شككوا بوجود شخصية النبي محمد (صلى الله عليه [واله] وسلم)[1].

غادر هذه المدينة إلى بابل – في بدء تكونها السياسي – بعد أن اشتد عوده وتفجر وعيه ، وتفتق ذهنه ، حكمة وتعقلاً حتى قبل ان يبلغ الحلم ، فناصب الأصنام العداء وهو لم يتجاوز بعد الرابعة عشرة من العمر[2] مع أن والده كان مثالاً يمتهن صناعة الأصنام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ (الانعام :٧٤) إنها ثورة داخل بيت الشرك ! أراد

١ـ إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد ص٦٢ ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٩٤ وقد اختلف المفسرون على القراءة الأولى المشهورة والثانية الشاذة في (آزر) أنه اسم علم لأبيه أو لقب أريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الأعرج أو المعوج أو غير ذلك ومنشأ ذلك ما ورد في عدة روايات أن اسم أبيه (تارح) بالحاء المهملة أو المعجمة ويؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه، وما وقع في التوراة الموجودة أنه عليه السلام ابن تارخ .
كما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الأمي أو الكبير المطاع ومنشأ ذلك أيضا اختلاف الروايات فمنها ما يتضمن أنه كان والده وأن إبراهيم عليه السلام سيشفع له يوم القيامة ولكن لا يشفع بل يمسخه الله ضبعا منتنا فيتبرأ منه إبراهيم ، ومنها ما يدل على أنه لم يكن والده ، وأن والده كان موحدا غير مشرك ، وما يدل على أن آباء النبي صلى الله عليه وآله كانوا جميعا موحدين غير مشركين إلى غير ذلك من الروايات ، وقد اختلفت في سائر ما قص من أمر إبراهيم اختلافا عجيبا حتى اشتمل بعضها على نظائر ما ينبسه إليه العهد العتيق مما تنزهه عنه الخلة الإلهية والنبوة والرسالة . أنظر الميزان في تفسير القران العلامة الطباطبائي ج٧ ص١٦١-١٦٢ .

٢ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب د . محمد سليم الحوت ص٢٤ ، ٣٤

إبراهيم من خلالها التعبير عن وعيه الذاتي، وكيف توجب عليه أن يعلنه إلى المجتمع المشرك! لكي تتجلى أمام ناسه حقيقة المعتقد والصلة التي يجب أن تكون بين الإنسان والسبب الأول. كانت في عقل وسلوك الفتى الثائر، مقترنة بتلك الرؤيا الأثيرية التي تختصر المسافات إلى حد الوضوح ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا﴾، (هود :٦٥)

لقد سقطت في نظر ووعي هذا الثائر امتدادات الكثرة و عبادة الطبيعة والكواكب لينكشف ذلك السقوط في قرارة نفسه، وعياً شفافاً للسبب الأول (العلي) المنزه عن أدران المادة، بعد أن كانت ولاءات الناس وامتداداتهم العقيدية والطقوسية موزعة على مناطق نفوذ لم تعد قادرة على مجارة رياح التغيير والحق، التي سلطت نور العقل، فكان الجوهر الأصل، واحداً أحداً أختزل جميع (الأرباب) ووضعها في إطار العائدية لذلك الواحد الحي القدير.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، (البقرة : ٢٥٨) ليخلص بذلك سلسلة الأسباب والوسائل والوسائط برابطة الوضوح والتجلي والشفافية، التي كان عليها الثائر. ولكن هل يترك كهان الهياكل وسدنة المعابد دعوة الخليل تمر بسلام؟ وهي تهدد أسس العقائد التي جعلتهم في وضع اجتماعي مرفه؟ أبداً! كلا!

لقد اشتد الصراع بين داعية التوحيد وبين ممثلي العقائد الطبيعية وعبدة الكواكب ومعهم أربابهم الكثيرة البائسة بعد ان مارس الفتى في بابل حقه في التعبير عن رسالته الثورية، من خلال منهج الحوار والجدل المتين

بطريقة زلزلت الأرض تحت أقدام ممثلي تلك العقائد لأن الخليل لم يعبر عن فكرته دون منهج جدلي، في مستوى ثورته فعمد إلى منهج التهكم والتوليد قبل سقراط بأكثر من خمسة عشر قرناً - فها هو يحطم الأصنام في المعبد الرئيسي - في يوم عيد الآلهة - ويعلق الفأس في رقبة كبيرهم[١]، وحينما يُسأل عن الفاعل يقول: «هو - كبير الآلهة - كان سبباً لدمار الآلهة! . وحينما يقابل ذلك القول بالسخرية، يحول تلك السخرية إلى سلاح (يهدم) بواسطته، الصورة المستقرة في قعر العقل، لكي يفجر هذه الصورة من الداخل (تفجير الوعي) كمقدمة للبحث عن الحل أي لخلق الاستعداد في دواخل الناس، بعد أن عمل على قطع امتداداتهم (المشركة) لتقبل فكرة (التوحيد) من خلال اكتشافهم لضآلة اربابهم وعجزها، ومثل ذلك فعلهُ مع عبدة الشمس والقمر وغيرها من عقائد سائدة[٢].

فإبراهيم لا يرى الأفول أو التغيير من سمات الجوهر الأصل الواحد لكل الأشياء وفي كل مرة كان يحرص على اختيار الموقف الذي يمكنه من التقدم خطوة إلى الأمام باتجاه التوحيد، فإذا كانت الأسباب من ماء وهواء وكواكب وأوثان لا تصلح لحمل (سمة التقديس) فمن هو المقدس الحق ؟!

١ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب د. محمد سليم الحوت ص٢٥

٢ـ إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد ص١٨٦-١٨٧، راجع أيضاً: عن جولته ومبادئه التوحيدية كتاب الحوراني يوسف :البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسط الآسيوي القديم بيروت ١٩٧٩ ص١٥٧ -١٦٨، ٣٤٨، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٩٤

لم يترك إبراهيم الناس في حيرة وهم يبحثون عن البديل ، إنه الله العلي السامي ، الحي ذو الإرادة والقوة والعقل والرحمة ، مما لا يمتلكه الأرباب ! ولما لم يجد الكنهة أمام منهج الخليل المنطقي من حيلة تحفظ لهم مواقعهم غير الانتقام أطلقوا في وجهه تهمة (تسفيه الآلهة) والدعوة (لإله واحد) و (إفساد عقائد الناس) ونجحوا في تأليب السلطة عليه ، بحكم علاقتهم (بالحاكم الفارسي النمرود المهيمن على بابل آنئذ) لمحاكمته وفق هذه التهم - مثلما فعل السوفسطائيين فيما بعد مع سقراط - فاستصدروا حكماً على إبراهيم (بالإحراق) وتلك هي أشد العقوبات في وادي الرافدين ولكن الذي حدث يفوق الوصف فحدث ما حدث ، من ردود فعل لم يحسب لها حساب من لدن السلطتين (الكهنوتية) و (السياسية) ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ، (الأنبياء : ٦٩) فسكتت السلطة الأولى على مضض ، ووقعت السلطة الثانية تحت طائلة تقديس النار وعبادتها - بدلاً من عبادة الله - ومنذ ذلك الحين رافقت عبادات الفرس إلى أن أطفأها الإسلام بنور الحق الإلهي .

والآن لنتسائل : ما هو حجم الفعل الأبراهيمي تأريخياً وعقيدياً ؟

إن حكمة إبي الأنبياء الواقعية لم تقف عند حدود إيضاح مبدأ (التوحيد) بل ؛ وكذلك في ابتكار ذلك المنهج العلمي الجدلي الواقعي الرائع ، الذي يفصح عن قدر كبير من الفهم والإحاطة بنقاط الضعف في البناء العقيدي والاجتماعي السائد في البيئة (العربية) آنئذ والذي سعى بواسطته ، إلى الارتقاء من البسيط إلى المركب ، في الحياة ومن المركب إلى البسيط في الكون والوجود ! بما عبر من (شمولية الموقف) ودقته لبيان

موقع الإنسان بين هذا الكون وعلاقته بتلك الأجزاء وطبيعة علاقته وعلاقتها بجوهر أصل يسمو فوق الأثنين فلم يعد الإنسان تحت رحمة هذه (الأجزاء) كما كان في العقائد المشركة ، بل أن الجميع يرجعون إلى سبب واحد لا يجاريه سبب أو مبدأ أو وثن ، هو الله سبحانه وتعالى ، وبذلك حرر الإنسان من ثقل الطبيعة وجعل بين (الداخل) و (الذات الإلهية) امتداداً شفافاً يتجاوز المسافات ، ليكون خير رقيب على فعل الإنسان وسلوكه[1] .

والنتيجة التي نصل إليها من الدعوة الإبراهيمية ، إن مجمل تجربة الخليل (عليه السلام) تضمنت نمطاً من الإجابة الفلسفية على أسئلة كثيرة تتصل بجوهر الوجود وأصل الكائنات . والأصل ذلك ، بالضرورة لا يشبه هذه الكائنات من حيث المادة او الطبيعة فهو ، أصل الوجود وسببه ، واحد ، حي ، قادر ، سام ، منزه عن المادة ، لا ينفعل ، ولا يتبدل ولا يتغير ولا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ، وإذاً استخدمنا لغة فلسفية في وصف المنجز الإبراهيمي على صعيد العقيدة والفكر والحكمة والمستقبل لأنه أصبح حداً فاصلاً بين موقف وموقف وبين عقيدة وعقيدة . نقول إنه العلاقة الفارقة بين عصر ما قبل التوحيد و وعصر التوحيد إنه نقطة الارتكاز في انتقال الفكر والجدل :

١- من المبادئ الكثيرة (الكثرة) إلى المبدأ الواحد (الوحدة) .

٢- من المادي إلى ما وراء المادة .

١ـ الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٩٨

٣- من عبادة رموز قوى الطبيعة ، إلى عبادة العلي المبدأ الأصل لكل شيء .

٤- من المتغيرات إلى الثابت .

٥- من المنفعل إلى الفاعل .

٦- من الجزئي إلى الكلي .

٧- من المخلوق إلى الخالق .

٨ - من الفاني إلى الخالد .

٩- من الوقتي إلى السرمدي .

١٠ - من العرض إلى الجوهر .

لأجل ذلك وغيره ، استحق إبراهيم الخليل (عليه السلام) الموقع الأول بين من حققوا (ثورة على الميتافيزيقا) في تاريخ الفكر البشري ، لأن مثل هذه الثورة ، جاءت تعبيراً عن اتساع دائرة الوعي والتصور في العقل الإنساني لكي ينفذ من جدران الطبيعة (السميكة) إلى ما ورائها ، مما يعد موقفاً متقدماً - لا العكس - في حسابات الوعي الفلسفي ، تركت وراءها حالة جديدة عبرت عن نفسها لا فقط في سلسلة الديانات الموحدة ، بل وكذلك في سلسلة الإصلاحات اللاحقة على صعيد السلطة والعقيدة .

ويحثنا منهجه الجدلي (العقلي الفلسفي) والمنطقي ، على بحث مسألة المبادئ التي أرسى أسسها هذا المفكر في ربوع العرب القديمة ، بعيداً عن محاولات العنصريين ، الذين نسبوا (التوحيد الإبراهيمي) إلى (اليهودية)

فقط متناسين إن (يهوه) هو صورة مشوهة للتنزيه الإلهي[١] . لا ترتقي إلى ما ذكره الخليل الخليل (عليه السلام) ناهيك عن تصورهم الرب على صورة إنسان ، مما لا يستقيم مع منطق (التوحيد الإبراهيمي) ولا مع منهجه العقيدي المنطقي الحكيم ، لقد تحول (يهوه) إلى إله (عنصري) ليس إلا . أما التوحيد الحق فلم يعبر عن حقيقته إلا في الأسلام الذي جاء لكي يعيد للتوحيد نقاء وبساطة الدين الأول دين إبراهيم الخليل[٢] بشهادة القرآن الكريم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:٦٥- ٦٨) . فهل هناك شهادة أفصح وأبلغ من تلك التي حفظها لنا الكتاب المقدس أي بما يسقط ما ذهب إليه (شمار) من أن التوحيد لم يعرف عند العرب الساميين بل عُرف لدى اليهود فقط ، ظناً منه ، أن الخليل (عليه السلام) كان بعيداً عن السامية[٣] .

وبما تقدم ، يتضح لنا وبما لا يعتريه شك ، الإنجازات العلمية

١ـ أنظر : تاريخ اليهود في بلاد العرب مصر ولغستون مصر ١٩٢٧ ص٧٩

٢ـ الفكر الشيعي والنزعات الصوفية د.كامل الشيبي ص١٣

٣ـ تاريخ حضارة وادي الرافدين د. أحمد سوسه ج١ ص٢٢٣ ، انظر البحث مفصلاً : الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ص٩٨-١٠١

والمعرفية التي أسهمت بها حضارة وادي الرافدين، على أصعدة متعددة ومجالات مختلفة، وقد أورد لنا قناعة (تيوفل ميك) بمنجزات الإنسان السومري حينما قال: «لم يساهم شعب في توسيع آفاق المعرفة الإنسانية - بالقدر الذي - ساهم فيه الشعب السومري ومأثورات هذا الشعب كانت تتضمن البحث في أصل الكون ونشوئه وفلسفة الكائنات والخلق، وتلك هي موضوعات الفلسفة التي لم تخل منها حتى المراسم المقدسة لمدينة أوروك»[1].

ولنختتم الحديث عن حضارة وادي الرافدين بما أوجزه لنا ول ديورانت بقوله: «ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزا في هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التي أوفت على الغاية في الجمال والإتقان. لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع في بعض الأحيان. وفي تلك البلاد - على قدر ما وصل إليه علمنا في الوقت الحاضر - نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات، وأول نظم الري، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع، وأول العقود التجارية، وأول نظام للائتمان، وأول كتب القوانين، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع، وأول قصص الخلق والطوفان، وأول المدارس والمكتبات، وأول الأدب والشعر، وأول أصباغ التجميل والحلي، وأول النحت والنقش البارز، وأول القصور والهياكل، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين. وهنا نجد في البناء أول العقود

١ـ أساطير سومر كريمر ص١٥، ٥٥، ١١٠

والأقواس وأول القباب ؛ وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع: يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر»[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول ص٤٠ -٤١

الفصل الثاني

فلسفة بلاد النيل

- الفلسفة المصرية القديمة
- نشأة الكون في الفلسفة المصرية
- المذهب الشمسي
- المذهب الاشموني
- المذهب المنفي
- تعاليم منف الدينية والفلسفية
- المذهب الواتسي
- فلسفة بتاح حتب
- أخناتون فيلسوف مصر
- فلسفة اخناتون وديانة التوحيد
- انشودة اخناتون والمغزى الفلسفي
- العقيدة والمعرفة في الفلسفة الاتونية

الفلسفة المصرية القديمة

إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل في كتاب علم الآثار. لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية؛ وكان الناس في زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت في بلاد اليونان، وحتى عصر الاستنارة، لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام. وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية. ذلك أن القائد القورسيقي العظيم، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها، وشملت هذه الحملة أيضا بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماما يظنه الناس سخيفاً في تلك الأيام، ويسعون لفهم التاريخ فهما أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ. وكانت هذه العصبة من الرجال هي التي كشفت للعالم الحديث هياكل الأقصر والكرنك، كما كان كتاب «وصف مصر» المحكم المفصل (١٨٠٩ - ١٨١٣) م الذي أعدوه للمجمع العلمي الفرنسي أول

خطوة هامة خطاها العلماء في دراسة هذه الحضارة المنسية[١] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص٦١ لسنا بصدد بحث أي الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى . إلا أن اقدم مدونات كتابية وصلت إلينا هي المدونات السومرية وإن كان هذا في حد ذاته - كما يرى البعض - لا يقوم دليلاً على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ؛ فقد لا يكون هذا الكشف إلا وليد الظروف المحضة ، ولكن هناك عناصر معينة من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين ، ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين ، والخاتم الأسطواني- وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة - يظهر في أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر ، ثم يختفي ، وقد كان أسلوبا قديما دخيلا استبدل به أسلوب وطني أصيل . وليست عجلة الفخراني معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة - أي بعد أن ظهرت في سومر بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات . ورؤوس الصولج المصرية لا تفترق في شيء عن البابلية ، وغير ذلك من الأثار ، وهكذا نجد في الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين .

يقول ول ديورانت ما لفظه: «ولا غضاضة علىّ مصر في أن تعترف بالسبق لبلاد سومر. ذلك أنه مهما تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هي بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ وأعلاها شأناً وأعظمها قوة ؛ وهي مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالاً ، حضارة إذا قيست إليها الحضارة السومرية لم تكن هذه إلا بداية فجة ، بل إن حضارتي اليونان والرومان لا تفضلانها في شيء» . أنظر البحث مفصلا ص٤٢-٤٥ . مضافاً الى ذلك يرى البعض أن أصل الملوك المصريين الاوائل قبل وبعد السلالة الفرعونية الاولى ، أنها سلالة سومرية جاءت بنواميس الملك والحضارة الى مصر ، بعد ان كونت حضارة عالمية امتدت من الهند الى كريت

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة ؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان في عقائدهم من خرافات . وهم يقولون في أساطيرهم أن العلوم قد اخترعها من ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب في كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التي وضعها هذا الإله .

وكان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم في مدارس ملحقة بالهياكل كما هي الحال في أبرشيات طوائف الكاثوليك الرمان في

وشملت مصر ، لكن مركزها كان في سومر . كما يرى ان المرحلة الصورية للكتابة السومرية هي أساس الهيروغلوفية المصرية أنظر : الاصول السومرية للحضارة المصرية أ . وادل ترجمة زهير رمضان ص١٧ فما بعد .

نعم ، أن البحوث الأثرية في مصر بدأت قبل البحث عن آثار ما بين النهرين بنصف قرن من الزمن ، لكن الدليل في نظر جورج سارتون على قدم حضارة بلاد ما بين النهرين أن الوثائق المعروفة بتل العمارنة التي اكتشفت في وادي النيل ، وهي الواح مكتوبة بالخط المسماري واللغة البابلية - كش - ت على وجه التفصيل عن العلاقات التي تكونت حول متصف الألف الثاني ق . م بين مصر وشعوب آسيا الغربية ، وهي تبرهن على أن اللغة البابلية صارت في ذلك العصر لغة الدبلوماسية الدولية ولم يكن ذلك بسبب السلطة والقوة ، لأن المصريين كانوا وقتذاك أشد بأساً من البابليين ، بل هو من جراء التقاليد الدولية ، على مثال اللغة الفرنسية التي ظلت لغة الدبلوماسية زمناًطويلاً بعد أن ذهبت أيام السيادة الفرنسية على أوربا . أنظر تاريخ العلم جورج سارتون الجزء الأول (الاصول الشرقية واليونانية) ص١٤٩ - ١٥٠ .

هذه الايام ، ويطلق أحد الكهنة - وقد كان يشغل المنصب الذي يصح أن نسميه في هذه الأيام وزير المعارف - على نفسه اسم (رئيس الاصطبل الملكي للتعليم)[١] .

يرى بعض الباحثين أن الحكماء المصريين كانت لهم فلسفة من وراء حضارتهم وأن المدرسة الفلسفية المصرية القديمة كانت متناغمة ومتناسقة ، تجمع بين المدرسة الطبيعية والمدرسة الإلهية ، وأن الفكرة الدينية عند قدماء المصريين كانت تسير في شكل مُتوازٍ مع الفكرة الطبيعية ، وكانوا يرجعون ظواهر الكون الطبيعية إلى قوانين الطبيعة ، وفي نفس الوقت كانت معتقداتهم الدينية تهيمن على فكرهم واخلاقهم ، ولذلك نجد اهم سمات المدرسة الفلسفية المصرية القديمة إنها تعطي ديناً وعلماً ، دين توحيد سابق الأديان السماوية الموحدة ، وعلوماً وفنوناً وحضارة عظيمة ومؤثرة[٢] .

وهكذا أصبح الكثير من مؤرخى الفلسفة يؤمنون بأن جذور الفلسفة قد نبتت في مصر القديمة ، ولما أتصل بهم اليونانيون نمت هذه الجذور وترعرت على أيديهم[٣] ويعبر هنري توماس أحد المؤرخين الغربيين عن ذلك بقوله : «أنه على أرض مصر عاش الحكماء الأوائل العظام في التاريخ . ويمكن أن نعتبر هذا القطر معلم الانسانية الأول ، فقد نزح إلى مصر الكثير من فلاسفة العالم القديم حتى أفلاطون - أعظم فلاسفة اليونان - اعترف

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٠٤ -١٠٥

٢ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٠

٣ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٣

بفضل المصريين القدماء عليه كرواده وأساتذته في كل ما هو سام من عمل أو فكر. ولذا يمكن أرجاع كل التفكير الحديث إلى حكمة المصريين وذلك عن طريق أفلاطون والفلاسفة اليونانيين الآخرين، فقد أخذ اليونانيون فلسفتهم عن الشرق، والغربيون المحدثون بدورهم أخذوا فلسفتهم عن اليونان وهكذا انساب تيار الحكمة عبر الأجيال من غير توقف مبتدئاً بالحضارة المصرية. وأن عرضاً مقتضباً للفكر المصري المبكر يوضح لنا أن ما أورثنا اياه أفلاطون وأرسطو موجود في فلسفة بتاح حتب وما تركه لنا شوبنهور من تراث ممثلا في حكمة أبوور، كما نجد وحى اسبينوزا وكانط في رؤى أخناتون»[(١)].

أو كما يقول شيخ انتاديوب عن مصر هي: «مهد الحضارة طوال عشرة آلاف سنة بينما كانت بقية دول العالم غارقة في ظلمات الوحشية. وقد ظلت رغم عمليات الاحتلال المتوالية تلقن شهوب البحر الابيض المتوسط الفتية الإغريق والرومان وغيرهم التنوير الحضاري. وظلوا يحجون اليها لينهلو من منابع المعرفة العلمية والدينية والأخلاقية والاجتماعية ...»[(٢)]

١ـ أعلام الفلسفة وكيف نفهمهم هنري توماس ترجمة مترى أمين مرجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود ص٣-٤

٢ـ الأصول الزنجية شيخ انتاديوب ترجمة حليم طوسون ص٢٨، وأنظر: أثينا السوداء برنال ص ، وانظر: النقد المفصل الذي قدمه د. جسن حنفي لهذا الكتاب في (مجلة القاهرة) في العددين ١٥٦، ١٥٧ نوفمبر وديسمبر ١٩٩٥م وخاصة ص ٨٠ من العدد.

فإن الحضارة المصرية استمدت قدرتها على البقاء بالرغم من الغزوات الأجنبية التي تعرضت لها ، حيث الطبيعة الهادئة والموقع الجغرافي المتميز ، مما كان له عظيم الأثر على سكان مصر القديمة ، ويمكن للعادات والتقاليد المفطورة في نفوس المصريين أن تحيا دون تغيير ، مما دعا البعض للقول (بالطبيعة المحافظة للمصريين) لأنها أتت من إيقاع الحياة الهادئ البطيء في وادي النيل ، حيث الحياة الهادئة دون حدوث أي مفاجات أو خوارق طبيعية تكدر على المصري صفو حياته الهادئة ، وحيث تتشابه الأيام في الماضي والحاضر ، حيث النشاط الزراعي لأغلب سكان القائم على ماء النيل وقوة الشمس الساطعة . وكما تعكس الأساطير المصرية البيئة الطبيعية لوادي النيل ، حددت جغرافيته صورة العالم في عقول المصريين ، فلقد اعتقدوا أن العالم هو عبارة عن سهل مستوٍ كأرض وادي النيل التي كان المصري القديم لا يرى سواها ولا يعتقد بوجود أرض أخرى تحظى بحب الطبيعة لها ومنحها إياها كل سُبل الحياة الكريمة .

وتمتد من فوقه السماء كطبق مسطح ، ترفعها دعائم أربع في أركان العالم[1] ، أو تستند إلى جبلين في طرفي الأرض ، وهذه الصورة متأثرة

١ـ المقصود بها آلهة الكون الأربعة أبناء (حورس) والتي وردت الأشارة إليها في متون الأهرام وكانوا يصاحبون المتوفى في العالم السفلى ، وهم يمثلون (حابي) ويرمز إلى الشمال ، و (دواموتف) ويرمز إلى الشرق ، و (مثا) ويرمز إلى الجنوب ، و (قبحسنوف) ويرمز إلى الغرب . وعندما يدخل المتوفى إلى (سخت - انرو) يرشدونه ويقف كل اثنين بجانبه ليخلصاه من الشعور بالجوع والعطش ويقومان بحمايته . وكانت في الأصل أعمدة السماء الأربعة التي تدعم السماء ، والس بادج :

بشكل المرتفعات الصحراوية التي كانت تمتد كالجدران على طول وادي النيل . وكان لهذا أثر بالغ في الاتجاه الذاتي القوى في التفكير[١] .

ويحدثنا ديوجينيس اللائرتي أن المصريين قد جعلوا من هيفايستوس[٢] أبناً لرب النيل ، وزعموا أن الفلسفة بدأت على يديه ، وأن الكهنة والأنبياء كانوا شُراحها الرئيسيين ولقد عاش هيفايستوس قبل ميلاد الإسكندر المقدوني بنحو ٤٨٨٦٣ عام[٣] .

أما فلسفة المصريين فهي على النحو التالي فيما يتعلق بالآلهة وبالعدالة : فهم يقولون إن المادة هي المبدأ الأول ، وإن الشمس والقمر إلهان يحملان أسم (اوزيريس) و (إيزيس) على التوالي . ولقد جعلوا (أي المصريين) الجعران والتنين والصقر وكائنات أخرى رموزاً للآلهة ، طبقاً لما يرويه (مانيثون Manethon) في كتابه (موجزالنظريات الطبيعية) ، ووفقاً لما يخبرنا به هيكاتيوس في الجزء الأول من مؤلفه (عن الفلسفة المصرية) . كما أن المصريين أقاموا التماثيل والمعابد (لهذه الحيوانات المقدسة) لأنهم

كتاب الموتى الفرعوني . ترجمة فيليب عطية مكتبة مدبوني الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ص ٢٠٥ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص ٢٦ .

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٢٦

٢ـ هو آله النار والحدادة في الأساطير اليونانية ، وراعي جميع الحرفيين الذين يعملون في الحديد والمعادن ،. راجع قصته في : معجم ديانات وأساطير العالم المجلد الثاني ص ١٢٢

٣ـ أنظر حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٢٩-٣٠

لم يتوصلوا إلى شكل الآله الحقيقي .

فضلاً عن أنهم ذهبوا الى أن الكون مخلوق ، وأنه سوف يفنى وأنه على شكل كرة ، وكذا قالوا إن مادة النجوم من النار ، وإنه ما دامت مادتها ممزوجة بالنار فسوف تقع أحداث على ظهر الأرض ، وأن النفوس تبقى بعد الموت ثم تنتقل إلى أجساد أخرى ، وإن المطر يسقط بسبب تغير في حركة الهواء . ثم إنهم فسروا جميع الظواهر الطبيعية الأخرى بتفسيرات فيزيقية - على نحو ما يروي كل من هيكاتيوس وأرستاجوراس - كما سنوا القوانين المتعلقة بالعدالة ، ونسبوا هذه القوانين إلى الآله هرميس . كما انهم ألهوا الحيوانات النافعة للإنسان ، وزعموا انهم هم الذين ابتكروا الهندسة ، وعلم الفلك ، وعلم الحساب[١] .

مضافاً الى ذلك أن معابد مصر المنتشرة في ربوعها لم تكن مجرد أماكن عبادة ، يؤمها المصلون لأداء الطقوس ثم ينفضوا ؛ بل كانت في المحل الأول المطبخ الثقافي أو ترسانة الثقافة ... للتثقيف ، وصناعة الثقافة ، وهي خزانة الوعي الثقافي الاجتماعي تصوغ رؤية المجتمع وإطاره الفكري . ولهذا كانت مستهدفة دائماً من الغزاة لتدميرها رغبة منهم في تدمير منابع الثقافة المصرية واحكام السيطرة ؛ ولم يكن الكهنة في مجموعهم مجرد رجال دين يلقون مواعظ للتخويف والترويع بل كانوا بدرجاتهم وفئاتهم

١- حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٣٢هنري توماس أعلام الفلسفة وكيف نفهمهم ترجمة متري أمين مراجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود ص٣-٤

المختلفة رجال علم : علم دنيا وعلم دين وصناع معرفة . وقد كانت المعرفة بجميع أشكالها قدسية الطابع الهية الطبيعة حسب عقيدتهم ... والعارف العالم رجل قدسي لما حظى به من علم ومعرفة ... ولهذا كتبوا علومهم للخاصة بلغة مقدسة هي الهيروغليفية[١] .

نشأة الكون في الفلسفة المصرية

كيفية خلق الكون ومم خلق ومن ذا الذي قام بعملية الخلق ؟ وهكذا مشكلة أصل الحياة ونشأتها على الأرض لمن المشكلات الشائقة المثيرة التي شغلت - ولا زالت - أذهاب الشعوب القديمة والحديثة ، ونجدُ أن التفكير في أصل الكون ونشأة الحياة قد مرت بمراحل عدة على مر العصور وفقاً لازدهار الفكر والثقافة الإنسانية في تلك العصور أو ركودهما ، فقدمت المعتقدات الدينية والأفكار الأسطورية لأبناء الشعوب القديمة الآراء والنظريات الواحدة تلو الآخرى ، وقد عرفت فيما مضى الفكر الفلسفي العراقي القديم ونظرته إلى هذه المسألة ، ولنرى هنا ماذا قدمت لنا الفلسفة المصرية القديمة من أراء واتجاهات في عملية تفسير أصل الكون ونشأة الحياة .

وقد تنافس في التراث الفكري المصري القديم في الإجابة عن هذه التساؤلات النشكونية أربعة تفسيرات قدمها أهالي أربع مدن كبرى في مصر

١ـ التراث المسروق الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة تأليف جورج جي . ام . جيمس ترجمة شوقي جلال ص٦

القديمة هي على التوالي أون أو مدينة الشمس هليوبولس ومدينة أونو أو مدينة الأشمونيين الحالية ومدينة منف وأخيراً مدينة واست أو مدينة الأقصر الحالية[١] .

المذهب الشمسي

ينسب هذا المذهب إلى أهالي مدينة أون هليوبوليس مدينة الشمس وهي عين الشمس الحالية . ويعد أقدم مذهب معروف في تفسير نشأة الوجود وربما يرجع هذا المذهب إلى ما قبل التاريخ المكتوب للحضارة المصرية القديمة ، لكن أقدم تسجيل لنص هذا التفسير شبه المتكامل وجد داخل هرمى مرن رع وبيبى الثاني (نفركارع) من الأسرة السادسة ، أي ما يرجع إلى حوالي القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد[٢] .

وقد ورد في هذا النص : «يا آتوم - خبرر أنت على القمة على التل (الهيولى) ، ظهرت كالطائر (بن) الخاص بالحجر (بن) في منزل (بن) بهليوبوليس ، بصقت ما كان شو ، وتفنوة وجب ونوة وأوزيريس وست ونفتيس ، الذين ولدهم آتوم باسطين إلى مدى بعيد قلبه . يفرح عند إنجابه إياك . في اسمك الأقواس التسعة ، ياليت ألا يكون بينكم من سيبتعد بنفسه

١ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح دراسة نشرت بالعدد ٢٦ من (مجلة القاهرة) فبراير ١٩٥٩م ص٢٣ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د.مصطفى النشار ص٥٤

٢ـ أنظر : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ج١ نشرها جيمس بريتشارد تعريب وتعليق د. عبد العزيز زايد وراجعها د. محمد جمال الدين مختار ص٣٣

عن آتوم ، لأنه يحمى هذا الملك نفر - كا - رع ، لأنه يحمى هرم هذا الملك نفر - كا - رع ، لأنه يحمى عمله الإنشائي هذا من كل الالهة ومن كل الموتى ولأنه يحمى حتى لا يحدث له أي شيء مكروه عبر طريق الأبدية »[١] .

لقد تأمل أصحاب هذا النص في نشأة الوجود وبدء الخليقة وانتهوا إلى القول بماضى سحيق قديم لم تكن فيه أرض ولا سماء ولا كائنات ولا بشر وإنما عدم مطلق واتفقوا مع القائلين ممن سبقهم بأن ذلك العدم المطلق لم يكن يشغله سوى كيان مائي لا نهائى العظم ، ذلك الذي أطلقوا عليه (نون) وقد أضافوا أنه في حقبة بعيدة ظهر هذا الكيان المائي العظيم روح الهي أولى خالق هو (آتوم) . وآتوم لفظ مصري يجمع بين ضدين من المعانى ، معنى العدم تكنية عن نشأة صاحبه من العدم ، ومعنى الشمول والاكتمال تكنية عما أرادوا تصوير الآله به من قدرة وجلال[٢] .

وهناك أيضاً فقرة في نصوص التوابيت تقدم لنا بعض عناصر الاجابة عن نشأة الكون وتفسير الحياة ، فها هو رب الأرباب الخالق يحكى عما حدث قبل عملية الخلق : «كنت بمفردي في المحيط الأزلي[٣] ، جامداً

١ـ نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ج١ ص٣٤

٢ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٣٣

٣ـ هذا يعني أنه قبل عملية الخلق كان يوجد المحيط الأزلي (نون) فقط والذي قام بدوره في بناء الكون بمفرداته المختلفة ، أي أن أصل تكوين العالم منذ البداية هو (الماء) ، أنظر : الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص ٣١

وبدون حراك ، ولا أجد مكاناً أقيم به ... ولم يكن (أرباب) الجيل الأول قد وجدوا بعد (ولكنهم) كانوا معي » ، ثم قال رب الأرباب للمحيط الأزلي : « لقد كنت أطفو بين مياهك بدون حراك تماماً ... وإنه (شو) ولدى (الحياة) هو الذي أوقد ذهني . الذي جعل الحياة تدب في قلبي وجميع أعضائي (الخامدة) ، فقال المحيط الأزلي لرب الأرباب الخالق : «استنشق ابنتك ماعت» وقربها من خياشيمك حتى ينتعش قلبك بالحياة ، ولا يجب أن تبعد عنك ابنتك (ماعت) وابنك (شو) واسمه هو الحياة »[1] .

من خلال هذا النص الجدير بالملاحظة نجد أنه يحدد ثلاث مراحل للحياة ، أولها أن الحياة تظهر تلقائياً بداخل الإله الخالق بعدما كان يفكر ، ثم الآلهة الأولى سوف تتكاثر بعد عملية الخلق ، حيث إنها لم تكن قد وجدت بعد . ولكنها بشكل ما متضمنة داخل الخالق نفسه . وقد قيل لنا إن الأمر يتعلق بـ شو إله الهواء وعلى الفور ، وهذه هي المرحلة الثانية ، أخذ الخالق يتكلم ، فالكلمة ... هي الاستتباع القاطع لظهور الحياة في كيانه . ثم يتولد حوار بين المحيط الأزلي والإله الخالق وهذه هي المرحلة الثالثة .

إن الحياة تستنفر الكلمة ، والكلمة يتولد عنها حوار . إن هذا الحوار بواسطة عملية الخلق يفصح في آن واحد عن محركات وضمانات عملية الخلق المقبلة : الحياة التي يمثلها شو رب الهواء وماعت التي يستنشقها الخالق والتي من جراء ذلك تُعدُّ عملياً مشاركة في الجوهر مع الهواء .

١ـ الحياة اليومية للآلهة الفرعونية ديمتري ميكس - كريستين فافارميكس ترجمة فاطمة عبد الله محمود راجعه د. محمود ماهر طه ص٢٨-٢٩

إن ماعت ليست في واقع الأمر سوى القانون أو المعيار الذي يسوس ويدير تناسب الظواهر الكونية ، إذن فالهواء والحياة بواسطة الجهاز التنفسي للخالق سوف يزفران ويعملان على مولد الكائنات الأخرى[١] .

فقد ظهر الاله آتوم الأول العظيم منفرداً على تلك الرابية أو تلك الهيولى التي لا شكل لها ، حتى ذرأ أو أوجد من نفسه أول عنصرين من عناصر الوجود آحدهما الآله الذكر شو الذي تكفل بأمر الفضاء والهواء والنور ، والإله الأنثى تفنوة التي تكفلت بأمر الرطوبة والندى واختلط العنصران أو الروحان الالهيان وتفاعلا أو امتزجا على حد تعبير الانسان المصري القديم ، فتولد عنهما بقية التاسوع الالهي العظيم حيث ظهر بعدهما عنصران جديدان ، أحدهما ذكر تكفل بأمر الأرض وسمى (جب) والآخر أنثى تكفلت بأمر السماء وعرفت بأسم (نوة) .

ذلك كان الوضع الأول الذي ظهر عليه الوجود حيث لم يكن فيه إلا هؤلاء الأرباب الكبار ، وكانت هيئة الوجود بهذا الشكل مهيئة لوجود الكائنات الحية والانسان ، فأستكمل الخلق بأن تولد عن الالهيين السابقين أربعة آخرين ذكران هما أوزوريس الذي تكفل في الأرض بأمر الفيضان والخصب والنمو ، وست الذي تكفل بأمر أمطار السماء ورعدها وأعاصيرها وأنثيان ارتبطت كل واحدة منهما بزوجها هما أيزيس التي ارتبطت بأوزوريس ونفنيس التي ارتبطت بست . وبهذا أكتمل التاسوع الالهي

١ـ حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما ترجمة ماهر جويجاتي ص٨٠٩، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٣١-٣٢

العظيم الذي عد أصل الوجود بكل ما فيه من عوالم وكائنات حية وجماد[1].

ويرى بعض الباحثين أنه لما ذاع هذا المذهب وانتشر كثرت التفسيرات والتفريعات التي تفرعت عن المذهب الرئيسي وكان أبرز التطورات التي لحقت به، ذلك التفسير الذي ربط أصحابه بين الآله (آتوم) وبين (رع) الذي كان إلهاً يعبد ويدين به الكثيرون، مما اضطر معه أهالي مدينة أون أن يجددوا في عقيدتهم الدينية والفلسفية وأن يقرعوا رع بآتوم[2].

فقد نشرت برديات (أون) القديمة في مخطوطات قصة الخليقة التي تنص: «كان الكون فضاءً أزلياً يغمره الظلام وتنعدم فيه الحركة، حتى خلق الإله الأكبر (رع) نفسه بنفسه، فسارت الحركة الدائمة وغمر نوره الكون كله، ومن أنفاسه أنجب (شو) الهواء والفضاء، و (تفنوت) الماء أبا الكون وأمه، وأنجب (نوت وجب) أربعة أبناء (إيزيس وأوزيريس وست ونفتيس) التي تعبر عن الخصب والخير والشر والضمير. وهو ما أطلق عليه بالتاسوع المقدس أي أركان الدنيا الثمانية التي يجلس على عرشها الإله رع وبوجودهم بدأت الحياة على الأرض وبدأت البشرية في صراعها بين الخير

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٦-٥٧

٢ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٧ وقد حدث هذا التجديد في عصر الدولة الوسطى أي حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب وقد عبر نص الفصل السادس عشر من كتاب الموتى فيما بين الأسرة الثامنة عشر إلى الأسرة الحادية والعشرين عن هذا التطور.

والشر عندما قتل ست إله الشر أخاه أوزيريس إله الخير»[١].

لقد ارتبط الاله آتوم برع في هذا النص وأمثاله ارتباطاً لا ينفصل سواء من جانب أنصار آتوم من أصحاب التفسيرات الأولى للوجود عبر آتوم وحده، أو من جانب أنصار رع الذين حاولوا قدر استطاعتهم أن يلتمسوا الأسباب التي تربط بين إلههم وبين أتوم فبدأ رع وكأنه ليس إلهاً جديداً يضاف إلى آتوم، بل هو آتوم نفسه، ذلك الخالق القديم الذي شاءت إرادته أن يتجلى على الناس في هيئة رع إله الشمس وأن ينير العالمين من أفقه العظيم، لقد حدث تزاوج بين الأسمين في هذا التطور الجديد بحيث أصبح الخالق هو (رع آتوم)[٢].

وهكذا استمرت التأويلات المختلفة للمذهب الشمسي تتوالى واحداً بعد الآخر تبعاً لتطور الظروف السياسية والدينية التي مرت على مدينة أون موطن المذهب الأصلي. وقد اتخذت هذه التأويلات والتفسيرات صوراً متعددة منها الفلسفي المادي ومنها الشعرى الاسطورى. وفي كل هذه الصور نلمح اجتهادات العقل المصري القديم في تفسير أصل الوجود وكيفية نشأة هذا العالم الطبيعي. ولم تتوقف هذه الاجتهادات عند حد تطوير هذا المذهب بل بلغت درجة كبيرة من النضج العقلي حينما بدأ

١ـ كتاب الموتى الفصل (١٧) نص (١) ترجمه عن الهيروغليفية السير والس بدج ونقله إلى العربية د. فيليب عطية ص٤١-٤٢، وانظر: لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ١٩٩٦ ص٦٨، المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفرى بارندر ص٤٦

٢ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٣٦، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٨-٥٩

اهالى المدن الأخرى يحاولون نقد هذا المذهب كلية ليقدموا تصورات حول نفس الموضوع وهذا ما سنجده بداية لدى اهالى مدينة الأشمونيين ومدينة منف[1] .

المذهب الأشمونى

وهو نسبة إلى مدينة الأشمونيين الحالية في مصر الوسطى ، وكانت تعرف في الزمن القديم بأونو أو هرموبوليس .

أما بداية هذا التفسير الجديد لأصل الوجود والعالم الطبيعي فيرجع إلى الجدل الذي كثر حول المذهب الشمسى في المدن المصرية المختلفة وإلى محاولة حكماء مدينة (أونو) أو (هرموبوليس) أن يناهضوا هذا المذهب وربما يكون وراء ذلك أسباب سياسية تمثلت في نوع من الأنشقاق السياسى الذي عز معه على حكماء المدينة أن يظلوا أتباعاً لمذهب منافسيهم . ومن ثم فقد أعلنوها حرباً في السياسة والدين والفكر في آن واحد .

وقد حاول هؤلاء الحكماء في البداية أن يشككوا في بعض عناصر المذهب الشمسى متسائلين فيما بينهم ، أذا كان رع آتوم قد خرج أصلاً من نون كما قال أتباعه ، أفلا يعتبر بذلك ولداً لنون ؟ وإذا كان ذلك صحيحاً ، ألم يكن من المفروض أن يتوفر لنون طرفان للإنجاب ؟ وما الذي كان

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٩

يحيط بنون قبل أن ينجب ولداً ؟ وهل كانت له رغبة حقيقية في ذلك ؟[1] .

وبعد هذا التشكيك وتلك التساؤلات كان على مفكرى أونوا أن يقدموا تصورهم المثالي للوجود وكيفية نشأة العالم ، فقالوا بأن الوجود بصورته الحالية تقدمته أربعة عناصر هي : ماء كثيف ، وظلام محيط ، وقدرة منطلقة دافعة ، وعنصر لطيف لا يرى ، وقدروا أن كلا من هذه العناصر الأربعة تكفل به تؤمان يتفقان في الطابع ويختلفان في الجنس أحدهما مذكر وهو الأصل والآخر مؤنث وهو الفرع . وأنه توفر لكل من التوائم روح ربانية منفصلة وذلك مما جعل منها ثمانية .

هذه هي عناصر الوجود الأساسية عند الأشمونيين وهذا هو أصل (الثامون) الذي آمنوا به . لكن السؤال الهام هنا هو : كيف ردوا العالم إلى هذه العناصر ؟ أو بمعنى آخر ، هل فسروا نشأة الوجود والكائنات عن هذا (الثامون) ؟

لقد أفاض التوءم الأول أو الروح الأول في البداية محيطاً مائياً كثيفاً أستقر فيه وأتخذ مظهراً لوجوده وتسمى معه بأسم (نون) واستقرت معه انثى توائمه اشتقوا اسمها من اسمه فدعوها (ناونت) . ثم أحاط الروح الثالث نفسه بظلام كثيف اتخذه مظهراً لوجوده واستقر فيه وتسمى معه باسم (كوك) ، وبنفس الطريقة استقرت معه انثى تماثله اشتق اسمها من اسمه فسيمت (كاوكت) .

١ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٣٦ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٥٩-٦٠

أما الروح الخامس فقد تمثل في تلك القدرة المنطلقة الدافعة التي اشتق أصحاب المذهب اسمها من لفظ يدل على الحركة المماثلة لأندفاع الأمواج أو أنسياب المياه فسموها (حوح) ثم افترضوا وجود الانثى التي تقاربه واشتقوا اسمها من اسمه فسميت (حاوحت) أما العنصر أو الروح السابع فهو العنصر اللطيف الذي لا يرى أي (الهواء) وقد سموه بأسماء مختلفة منها (تنمو) أو (نياو) وأحيانا (جرح) أو (آمون) . وافترضوا له انثى تماثله وجعلوا اسمها مشتقاً من كل من المسميات السابقة وأشهرها اسم (أماونت) .

وقد تصوروا بعد ذلك أنه في فترة ما تجمعت هذه العناصر أو الأرواح الثمانية بما فيها من ذكر وانثى - وشاءت أن تغير ما هي فيه من كيان قديم بكيان آخر جديد فتعاونت فيما بينها على خلق دحية عظيمة ووضعها فوق ربوة عالية في مدينة أونو ، ولما انشقت الدحية خرج منها كائن جديد لم يكن لم يكن في حقيقة أمره إلا الإله (رع آتوم) إله النور أو إله الشمس ، ذلك الإله الذي ظن أصحاب المذهب الشمسى أنه وجد من لا شيء . ومنذ ظهور الإله رع آتوم أصبح العالم مهيئاً لظهور الكائنات ووجود البشر[1] .

١ـ أنظر : فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٣٨ ، الحضارة المصرية جون . أ . ويلسن ترجمة أحمد فخري مكتبة النهضة المصرية القاهرة ص٦٧ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٠-٦١

المذهب المنفي

ينسب هذا المذهب إلى مدينة منف التي أسسها الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ مصر القديمة لتكون عاصمة مصر الموحدة ومقراً لملكه . وقد ازدهرت منف في ذلك الوقت لمكانتها السياسية وقد واكب مفكروا المدينة هذا الازدهار لمدينتهم فحاولوا اثبات تفوقها على ما عداها من المدن بقولهم إن معبد الهها الإله (بتاح) كان الميزان الذي وزنت فيه مصر العليا والسفلى[1] . ولعل ذلك الاعتقاد يرجع إلى المكان الوسط الذي احتلته مدينة منف منذ أسست في حوالي القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد كواسطة عقد لكل من أقاليم الدلتا وأقاليم الصعيد أي فيما بين مصر العليا و ومصر السفلى .

وبالطبع فقد نشط أهل الفكر في منف حتى يقدموا مذهباً فكرياً جديداً ينطوي بداخله تلك التفسيرات السابقة ، وبحيث يتجاوزها جميعاً بسمو ما فيه من تصورات لمسألة الخلق وكيفية نشأة الوجود .

ولاشك أن نقطة البداية في هذا المذهب ستنطلق من أمرين ؛ أولهما الإعلاء من شأن مدينتهم وأربابها المحليين خاصة أقدمها جميعاً الإله (بتاح) الذي كان ينظر إليه على أنه - حسب معنى اللفظ - الفتاح أو البناء الخلاق رب الأرض العالية ، وثانيهما : احتواء المذهبين السابقين بنقدهما تارة

١ـ انظر : الترجمة العربية لنصوص الشرق الادنى القديم ج١ ص٣٦ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٧٩

وبتأويلهما ليصبحا جزءاً من مذهبهم الخاص تارة أخرى[١] .

ومن هنا بدأت تساؤلات ، وربما كان أول هذه التساؤلات ؛ إذا كان أصحاب المذهبيين السابقين قد شبهوا ظهور الههم الخالق بظهور رابية أو ربوة عالية طافية في وسط مائى . وسواء قد ظهر الاله مباشرة في هذا الوسط كما يرى اصحاب المذهب الشمسى أو ظهر بعد أن حلقت عناصر الوجود أو أرواحه الثمانية تلك الدحية التي خرج منها الاله لأول مرة ، فإن الناس قد صدقوا هذه الآراء واعتنقوها .

إذا كان ذلك كذلك ، فلماذا لا تكون تلك الربوة العالية الطافية هي مدينة منف ذاتها أو على الأقل جزء معيناً منها ، ولاسيما انها كانت بالفعل أرضاً طافية في بداية أمرها قبل أن يحول عنها فرعون فرع النيل ويجنبها طغيان النيل عنها ذلك الطغيان الفيضانى الذي كان يحولها في الزمن القديم إلى ما يشبه المستنقع الكبير ويجعل من أرضها أشبه بالجزيرة الطافية[٢] .

وإذا كانت منف هي ذاتها تلك الربوة العالية الطافية في بداية أمر الخليقة ، فلماذا لا يكون ما حدث فيها من عمران متتابع ومنتظم منذ انشائها على يد الملك مينا قد حدث عن تدبير إلهي حكيم وربما هذا التدبير مماثلاً لما حدث فيها عند نشأة الوجود لأول مرة ؟

ولقد تساءل حكماء منف كذلك عن (آتوم) وقدرته الخلاقه . فقد قال أصحاب المذهب الشمسى بأنه قد خلق من نفسه أرباب الطبيعة أو ما

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٤-٦٥

٢ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٥

أسموه بالتاسوع العظيم ، فكيف تم خلق بقية الأرباب الآخرى التي عبدها المصريون وهي كثيرة ؟ وكيف ظهر العمران في الأرض ، وكيف تميزت الكائنات المختلفة بعضها عن بعض ؟ أ يمكن أن تكون هذه الأشياء جميعاً قد حدثت من تلقاء نفسها ؟ أما كان للإله الخالق تأثير في ايجادها وفي تنظيم العالم المعمور واصدار التشريعات والنواميس التي يعمل الجميع ويعيشون وفقاً لها ؟

لقد تساءل حكماء منف أخيراً عن تلك الارادة المدبرة التي فكرت في خلق العالم وفي تنظيم أموره ؛ إن تلك الارادة المدبرة المفكرة فيما وراء الوجود لابد أنها قد فكرت ودبرت قبل أن يصدر أمر الخلق ذاته إذ لابد أن يكون التفكير والتدبير قد سبقا الخلق والتعمير !!

وهكذا وصل فلاسفة منف إلى افتراض وجود الإله الخالق وإلى افتراض أنه قد فكر ودبر قبل أن يخلق ويعمر . وأنه قد شمل الكون والكائنات برعايته ورسم لكل ما في العالم قدره وأفعاله . وقد عبروا عن ذلك في وثيقة صيغت في حوالى عام ٧٠٠ ق . م . وإن كانت كل الدلائل الأثرية والجغرافية واللغوية تشير إلى أن هذه الصياغة قد اشتقت من نص يرجع تاريخه إلى أكثر من ألفين سنة قبل هذا التاريخ[1] .

١ـ وجدت هذه الوثيقة فيما يعرف بحجر شاباكا نسبة إلى ذلك الفرعون الأثيوبى الذي حكم مصر خلال القرن الثامن قبل الميلاد وقد ورد في النقش أنه نقل من كتابات قديمة خلفها الأجداد وقد درس هذا النص من تلك الوثيقة العديد من علماء المصريات من أمثال زيته وارمان وبرستيد وتوملين وغيرهم ، انظر فجر الضمير برستيد ترجمة سليم

يقول فلاسفة منف : «وهكذا إنما هو في الأصل قلب (أو عقل) أرسل الآيات جميعاً ، وإنما هو كذلك لسان أزلي جرى على ترديد ما تدبره الفؤاد» فعن طريق الفكر اذن والنطق من بعده بدأ الخلق «فخلق الأرباب جميعاً» ، وآتوم وتاسوعه أيضاً ، ثم حدث أن أفضت كل كلمة ربانية تدبرها العقل (الالهى) وأمر بها اللسان إلى أن تتابع خلق الأنفس وتقرر شأن الأطياف الحوارس . وتوفرت الاقوات جميعاً والميزات جميعاً و «تقرر ما يستحب من أمور الناس وتقرر ما يكره ، وحق أن توهب الحياة لمن يعمل بالسلم . والفناء لمن يتحمل الأثم ..» وفق الناووس الذي تدبره العقل وخرج باللسان فقدر لكل شيء قدره ، أنجزت الأمور جميعها ، وابدعت الفنون جميعها وتوفر نشاط اليدين وسعى القدمين وخلجات الأعضاء كلها[1] .

وهكذا انتشرت النظريات الخاصة بنشأة الكون في كل من هليوبوليس ومنف وهرموبوليس التي تُعد أكثر النظريات انتشاراً ، وخلاصة لأفكار المصريين القدماء عن نشأة الكون والذين أكدوا من خلال النصوص المقدسة ان الماء هو أصل جميع الكائنات ومنه ظهرت جميع

حسن ص٥١ ، الحضارة المصرية جون . أ . ويلسن ترجمة أحمد فخري ص٧١- ٧٥ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٦-٦٧

١ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٤١ ، نصوص الشرق الأدنى القديم ج١ ص٣٧-٤٠ ، الحضارة المصرية جون . أ . ولسن ٧٣-٧٥ ، فجر الضمير برستيد ص٥٣-٥٥ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٨

الخلائق وكذلك الآلهة[١] .

لأنهم رأوا مياه النيل الفيضان تغمر بلادهم بالمياه المتدفقة بقوة هائلة ، فأيقنوا مدى القوة التي تكمن داخل الماء ، والدور المهم الذي يقوم به في حياة الإنسان بصفة خاصة والكون بصفة عامة ، كذلك إنه شكل بعض المفاهيم لدى مخيلة المصري القديم وخاصة في بناء معتقداته حول الكون وطبيعة الوجود الذي يحيط به . فاعتقد المصري القديم أن الأرض قد برزت من الماء ، وتصوروا أن مكاناً عالياً (الأرض) كان أول ما ظهر على سطح نون[٢] (Nun) وكان هذا الكون بمثابة بدء العالم ، فهو التل الموغل في القدم وظهرت منه معالم الحياة فسكنت فيه الضفادع والثعابين وغير ذلك من المخلوقات التي تعيش في الظلام والرطوبة ، وكان هناك شيء آخر هو بيضة طائر مائي خرجت منها إوزة حولت الظلام إلى نور هي الشمس التي طارت صائحة وسُميت بذلك الصائحة الكبيرة فوق سطح الماء[٣] .

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص ٣٢

٢ـ نون هو تشخيص للمياه الأولية التي ظهر منها كل شيء ويخرج منه إله الشمس كل يوم وقد تجدد واستعاد شبابه ، وبهذا فهو أب الألهة وهو مع زوجته (نونت) يشكلان الجيل الأول لأسرة مجموعة الأرباب الثمانية (ثامون الأشمونين) وأحياناً يصور في شكل إنساني أو برأس ضفدع دليلا على الخصوبة ، وكان الفيضان السنوي للنيل مرتبطاً بعملية الخلق وبالتالي مع (نون) ، وادي الملوك أفق الآبدية (العالم الآخر لدى قدماء المصريين) ، ترجمة محمد العزب موسى ، راجعه محمود ماهر طه الطبعة الأولى مكتبة مدبولي ١٩٩٦ ص ٣٥٥

٣ـ ديانة مصر القديمة أدولف إرمان ص ٧٢ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة

ونذكر جزءاً من سياق النص [(الفصل السابع عشر) من كتاب الموتى]: «أنا (آتوم) كنت موجوداً بمفردي في الهوة السحيقة. أنا (رع) وهو يشرق في الفجر، في بداية الزمان الذي تولى فيه الحكم». «أتيت إلى الوجود في (نو)[1] إني (رع) الذي نهض في البدء وحكم ما قد صنع»[2]. «أنا الإله الذي يأتي إلى الوجود من تلقاء ذاته» ومعنى ذلك الماء والهوة السحيقة ووالد الآلهة[3].

ويوجد أيضاً نص كهنوتي له سمات مميزة يصف العمليات التي يقوم بها الخالق وصفاً دقيقاً بواسطة أفعال وأسماء مشتقة من نفس الأصل وتتكرر مراراً، من خلال بردية يعود تاريخها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ومؤلف هذه البردية يتميز بعقلية فلسفية فذة تتضح لنا من خلال عرض هذا النص:

«يقول رب الكون: عندما ظهرت إلى الوجود، جاء الوجود إلى الوجود. جئت إلى الوجود على هيئة (الموجود) («خبري») الذي جاء إلى الوجود للمرة الأولى. وإذا جئت إلى الوجود على هيئة وجود (الموجود («خبري») أصبحت إذن موجوداً. وهكذا أتى الوجود إلى الوجود، كنت

اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٣٣

١ـ كتلة الماء الأولى التي انبثق منها كل شيء عند عملية الخلق. كتاب الموتى الفرعوني والس بادج ص٢٠٣، ص٢٣٤

٢ـ كتاب الموتى الفرعوني والس بادج ص٤١

٣ـ حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما ص٣٥٩، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٣٣

سابقاً على الآلهة السابقة التي صنعتها، واتمتع بالأسبقية على هذه الآلهة السابقة. وكان أسمى سابقاً على أسمائها وصنعت الزمن السابق كما صنعت الآله السابقة».

«لقد صنعت في هذا العالم كل ما كنت أرغبه وتمددت فيه. وعقدت أنا لوحدي يدي. قبل أن تولد (الآلهة). واستخدمت فمي. قبل أن أبصق (شو) وقبل أن أنفث (تفنوت). وكان اسمي هو (حكا) (إله القدرات السحرية). فأنا الذي جئت إلى الوجود على هيئة وجوده، وعندما جئت إلى الوجود على هيئة وجود (الموجود) («خبري») لقد جئت إلى الوجود في الزمن السابق وحشد كبير من أوجه الوجود جاءت في البدء إلى الوجود.

وقبل أن يجيء إلى الوجود، في هذا العالم، أي وجه من أوجه الوجود خلقت في وحدتي الخليقة جمعاء. وقبل أن يجيء إلى الوجود، كائن من مكان، لينشط معي في هذه الأصقاع، صنعت أوجه الوجود في (با) ني هذا. وقيدت نفسي في الـ (نون). إذ كنت لا ازال خاملا، قبل أن أجد مكاناً، لاستطيع النهوض فيه. كنت فعالا في قلبي. ووضعت خطة نصب عيني. وخلقت في وحدتي الخلقية جمعاء. ووضعت خطة في قلبي وخلقت أوجهاً أخرى من الوجود. عديدة كانت أوجه وجود «الموجود» (« خبري»). عندئذ جاءت أبناؤها إلى الوجود، كوجه من أوجه وجود أبنائها».

من هذا النص يتضح دور المؤلف في إبراز أسبقية دور الإله آتوم -

رع بالمقارنة مع كل ما هو موجود والآلهة الأولية . ويحاول منذ البداية أن يوضح أبعاد فعل المجيء إلى الوجود من ذات نفسه . ويعود إلى ذلك في الفقرة الثالثة بالاعتماد على ظهور تاتنن في قصة خلق منف . وعلى هذا النحو كان يعمل الإله الخالق في محاورة طيماوس لأفلاطون : إنه يتصور العالم وفي نيته أن يكون جميلا وكاملا ، فخلق الآلهة التي تولت الخلق بدورها[١] .

إلى غير ذلك من النصوص والأساطير المصرية القديمة التي حاولت الاجابة على التساؤلات النشكونية ، واعطاء الآراء و التصورات الدينية والأسطورية حول نشأة الكون وأصل الحياة ، والتي تثبت ومما لا يعتريها شك جانب من التفكير العقلي والتأمل الفلسفي .

تعاليم منف الدينية والفلسفية

والآن لنعرض لبعض التعاليم الدينية والفلسفية في مدينة منف ، مدينة الاله بتاح التي أنجبت لنا أعظم ما كُتب عن آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات والكوزومولوجيا[٢] والفلسفة المدونة على حجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني ، وتعد هذه الوثيقة أهم الوثائق التي حفظت بين كنوز منف آلاف السنين في أول عصور الدولة القديمة والتي تُعد أول بحث

١ـ حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما ص٤١٦ - ٤١٧ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٣٧-٣٨

٢ـ Cosmology .. هو فرع من الفلسفة ينصب على دراسة القوانين العامة للكون في أصله وتكوينه ونظامه ويقابله علم الوجود أنطولوجيا Ontology .

فلسفي وصل إلينا من العالم القديم وصورة رائعة من أفكار أقدم بني البشر لم يصل إلينا مثلها مدونة حتى الآن[١].

ويرجع تاريخ هذا النص إلى عام ٧١٠ ق . م تقريباً ويحمل أسم فرعون مصري يدعى شباكا يقرر أنه استنسخ نقشاً لأسلافه ، ويتكون هذا النقش من ثلاثة أجزاء متكاملة ، يمثل الجزء الأول منها آلهة العماء البدائي . ويمثل الجزء الثاني آلهة النظام والترتيب عند الخلق ، ويمثل الجزء الثالث كبير الآلهة اللوجوس الذي يقوم بعملية الخلق . ولنتعرف إلى هذه النصوص الثلاثة .

أولاً : نص الجزء الأول : بتاح كبير الآلهة حمل في قلبه كل ما هو موجود ، وبكلمته خلقهم جميعاً . ظهر أولا من مياه المحيط الزلي نون في صورة تل سرمدي . وعقب التل مباشرة ومرادف له وإلى جواره ظهر أيضاً الإله آتوم من المياه واستوى فوق بتاح التل . وبقى في الماء أربعة أزواج من الأرباب الذكور والإناث .

ولخص لنا بعض الباحثين فلسفة الجزء الأول بإن بتاح إله منف يتصف بأنه كبير الآلهة أو رب الأرباب وأنه اللوجوس أي الفكر وكلمة الخلق والقوة ، وأنه هو أيضاً إله النظام والصورة وهو الإله الصانع الخزاف ، ونشير إلى أنه في الوقت الذي استوى فيه إله الشمس آتوم فوق بتاح التل الأبدي أنجز سبحانه[٢] عمل الخلق . وفقه إلهيات ممفيس يرجع إلى عام

١ـ فجر الضمير جيمس هنري برستيد ص٥٠

٢ـ المقصود به الإله بتاح

٤٠٠٠ ق . م ، في الوقت الذي لم يكن أحد يعرف شيئاً عن اليونان[١] .

نص الجزء الثاني :

آلهة النظام والترتيب في الكون يمثلها تسعة آلهة في وحدة واحد يُسمون التاسوع . الإله آتوم مصدر الثُماني الربوبي الموحد . وهو أيضاً مصدر أرباب النظام والترتيب . أربعة أزواج من أعضاء جسده هو ، وبذا يخلق ثمانية أرباب وتكون معه تاسوعاً . وهذه الآلهة الثمانية هي آلهة مخلوقة . وهي أول المخلوقات في هذا العالم ، وآتوم الإله الخالق أو الإله الصانع البارئ الذي حدثنا عنه أفلاطون من خلال أفكاره الفلسفية .

والآلهة التي خلقها آتوم من أعضاء جسده هي :

١- شو أو الهواء .

٢- تفنوت أو الرطوبة .

٣- جب أي الأرض .

٤- نوت أو السماء .

وروى أنه تولد عن هذه الآلهة أربعة آلهة أخرى :

٥- أوزيريس (إله الوجود في الكل والمعرفة المحيطة بالكل) .

٦- إيزيس (زوج أوزيريس ومبدأ أنثوي) .

٧- ست (مضاد الخير) .

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٤٢

٨- نفتيس (مبدأ انثوي في العالم الخفي).

وإليك فلسفة الجزء الثاني :

بالرغم من وجود آتوم إله الشمس في العماء الأزلي نجده أيضاً موجوداً أثناء عملية الترتيب المنظم للكون. ويقوم هو بدور خالق جميع الأرباب فيما عدا بتاح رب الأرباب ثم يأتي ثمانية ألهة بالصدور عن جسده واستوى بعد ذلك فوق بتاح التل الأزلي وظل ثابتاً لم يتحرك وأصبح الإله آتوم في عملية الخلق هذه، وهو المحرك غير المتحرك. وبالرغم من أن فقه إلهيات ممفيس هو المصدر المباشر لهذه المبادئ الفلسفية فإننا نجدها منسوبة إلى أفلاطون وبالتحديد مبدأ خلق الأرباب بينما نُسب إلى أرسطو مبدأ المحرك غير المتحرك، ولكننا نوضح أن مبدأ الصانع في الخلق يشتمل على مبدأين : مبدأ الأرباب المخلوقة، ومبدأ المحرك الذي لا يتحرك. وكانت وظيفة الإله الصانع الأول أن يخلق الكون، فأول عمل قام به هو خلق الأرباب التي أصبحت أول المخلوقات .. ولكن الطريقة التي خلق بها الإله الصانع البارئ الأول الأرباب هي عملية أصدارهم من جسده هو، وطريقة الخلق هذه تجعل بوضوح الإله الصانع المحرك غير المتحرك .. ولكننا نجد تاريخ الفلسفة اليونانية ينسب إلى أفلاطون مبدأى الإله الصانع والأرباب المخلوقة وإلى أرسطو مبدأ المحرك غير المتحرك، وما تقدم ردٌ كافٍ على زعمهم هذا[1].

١ـ أنظر : التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة) جورج جي إم جيمس ترجمة شوقي جلال ص١٣٤-١٣٥، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة

نص الجزء الثالث :

الإله بتاح إله الفكر واللوجوس والقوة الخالقة صاحبة النفوذ فوق جميع المخلوقات ، إنه ينقل القوة والروح إلى جميع الأرباب ، ويدير حياة جميع الموجودات بما في ذلك الحيوان والإنسان من خلال فكره وأوامره هو . أو بعبارة أخرى إن جميع الموجودات فيه تحيا وتتحرك وتملك وجودها الخالد .

وذكروا في فلسفة هذا الجزء : أن جميع المخلوقات خلقها بتاح رب الأرباب بفكره وأمره وكلمته ، وأنهم يحيون ويتحركون ويملكون وجودهم الخالد من خلال فكر وأمر وكلمة (بتاح) الخالق والحافظ والتي انتقلت قواه إلى آتوم بالوسائل السحرية وبعد ذلك باشر عملية الخلق .

ومما سبق يتضح لنا فقه إلهيات ممفيس هو مصدر الفلسفة اليونانية أو هو العلم البدائي ، وهو أيضاً أساس العقيدة العلمية الحديثة وأساس النجاح للبحث العلمي في مبادئ وأسرار الطبيعة[(١)] .

ومما لا شك فيه أن المصري القديم كان سباقاً دائماً لأى مجتمع بشري آخر في المجال الفكري والخلقي في شتى المجالات ، وخاصة ما يخص العالم الخارجي فأوجد كوناً يتفق مع ملاحظته وتجربته الذاتية .

اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٤٣-٤٤ .

١ـ التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة) جورج جي إم جيمس ترجمة شوقي جلال ص١٤٠ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٤٤

ولهذا الكون كما لوادي النيل مكانه المحدود ودورته المطمئنة ، وتركيبه وآليته يتيحان تكرار الحياة عن طريق عودة الميلاد في العناصر التي تهب الحياة . ونجد أن قصص الخليقة لدى المصري القديم جاءت وفق تجربته الذاتية ، والتقدم الذي يثير الاهتمام بوجه خاص هو محاولة المصري المبكر جداً لربط الخلق بعمليات فكرية ولفظية بدلا من عمل جسماني بسيط ، وحتى هذه الفلسفة العليا وضعت في شكل صورى انبثق عن تجربة المصرى للحياة[1] .

المذهب الواستى

وهو نسبة إلى مدينة واست القديمة التي هي الاقصر حالياً والتي عرفت في الزمن القديم باسم واست أي مدينة الصولجان وقد عرفها اليونان باسم (طيبة) بينما اطلق عليها العرب اسمها الحالي مدينة الاقصر .

لقد أسلمت المذاهب السابقة نفسها إلى مفكرى هذه المدينة التي تهيأ لها حظاً وأسعاً من السيادة خلال فترات التاريخ المصرى القديم في عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة وقد تطور بها الحال إلى أن اصبحت كبرى عواصم الشرق القديم بدون منازع بعد أن أصبحت عاصمة الامبراطورية المصرية الكبرى خلال أزهى فترات الدولة الحديثة .

وقد نشط فلاسفتها ليمزجوا بين التفسيرات القديمة لأصل الوجود وكيفية الخلق بطريقة جديدة أعطت السيادة لاله مدينتهم الاعظم الإله

١ـ ما قبل الفلسفة هنري فرانكفورت ص٧٧.

آمون ، وجعلت من مدينتهم أم المدائن وسيدتها !![١]

وتصور لنا النصوص القديمة كيف حاول أهالي (واست) تمجيد مدينتهم وجعلها أصل المدن ومركز الخلق والمدينة . لقد قالوا في بعض ما كتبوه عنها : «واست هي الأحق من كل مدينة . توفر فيها المياه واليابس منذ الأزل وزادتها الرمال فطوقت مزارعها وارتفعت ببطاحها على ما يشبه النجد . وبذلك تكونت الأرض وأمكن أن يحدث فيها الخلق . وبدأ الاتجاه إلى نشأة البلدان بمعناها الصحيح . وغدا لفظ (المدينة) يطلق من بعد على أسماء هذه البلدان تحت كفالة (واست) أو تحت كفالة العين المقدسة لإله الشمس بمعنى أصح ....»[٢]

على هذا النحو الأسطوري صور فلاسفة واست أنها الأحق أن تكون أقدم المدن وأعظمها وأنها هي التي كانت أول ما ظهر على التل الأول الذي أطل برأسه من الماء ، أى أنها أصل الأرض وموطن الخليقة الأول[٣] .

هكذا كان ينظر المصري القديم لمسألة نشأة الخلق ، ومن ثم ظهرت العقيدة الدينية القوية التي عملت على تغيير نظرة المصري القديم للكون والطبيعة والحياة الاجتماعية والسياسية ، وبدأ يفكر في الحياة بعد الموت

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٧٠

٢ـ فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح ص٤٣

٣ـ دور الاسطورة في الفكر المصرى القديم لويس بقطر مجلة فكر تصدر عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة باريس نوفمبر ١٩٨٩م ص٩٨ ، المصادر الشرقية للفلسة اليونانية د. مصطفى النشار ص٧١

واحتلت هذه الفكرة مكانة مهمة في نفس المصري القديم وخاصة رحلة العبور للعالم الآخر ، بما فيها من جَنة أو نار ....[١] .

فلسفة بتاح حتب

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان ، وأن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، وأن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون في ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التي خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم .

وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية «تعاليم بتاح حوتب» وتاريخه يرجع على ما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق. م أي إلى ما قبل كنفوشيوس وسقراط وبوذا بألفي عام وثلاثمائة . وكان بتاح حوتب هذا حاكماً على منف وكبير وزراء الملك في أيام الأسرة الخامسة. فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوي على الحكمة الخالدة. ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء[٢]

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٤٥

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٤٩

فكانت مؤلفات هذا الفيلسوف بتاح حتب التي ظهرت قبل أفلاطون بما يقرب من ألفين وثلاثمائة عام أي قرابة عام ٢٧٠٠ ق . م ، وتطل علينا (مخطوط الحكمة) الذي ألفه لتكون من نتاج فلسفته ، والتي أثرت تأثيراً كبيراً على إخناتون وتعاليمه .

وكان بتاح حتب حاكم ممفيس ورئيس وزراء الملك ، ولكنه رأى في نهاية حياته أن يعتزل السياسة ويكرس كل وقته وجهده لوضع تعاليمه التي تفيد النشء من بعده وبخاصة أبنه ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى أن يُقلد الأب الحكيم المحب الذي هو في السماء باعتباره أباً على هذه الأرض .

وكان بتاح حتب يؤمن بالعقاب البدني لأنه يحث على الفضيلة ، وقال في ذلك : «إن قانون السماء والأرض هو أن نتعلم عن طريق التألم والمعاناة» ، ولكنه يرى أن الطفل يحتاج إلى النصح بجانب العقل ، فعليه أن يتعلم النظرة الفلسفية إلى الحياة منذ الصغر ، وقال بتاح حتب في ذلك : «النظرة الفلسفية هي أحسن ميراث أستطيع أن أتركه لابني» .

ويبدأ مخطوطه في الحكمة بطلب يلتمس فيه إعفاء من واجباته السياسية : «مليكي ومولاي . لقد اقتربت نهاية الحياة وأخذ الهرم يسدل ستائره على ، وخور الطفولة يعود إلي ، إن من تُصيبه الشيخوخة تُقعده في بؤس كل يوم ، فقد أظلمت عيناي . وحُرمت أذناي السمع ، واضمحلت قواى ولا تجد الراحة سبيلا إلى قلبي ... ولذا أرجو أن تأذن لخادمك أن يُسلم سلطة الإمارة إلى ولده» .

وبعد ذلك يفسر بتاح حتب كيف أن هدفه من مخطوطه هو أن يمكن أبنه من أن يصبح رجلا صالحاً . ويؤكد أنه لم يدع ابتكاراً جديداً بالنسبة لمخطوطه ، بل لم يفعل شيئاً إلا أن ألبس الحقائق القديمة ثوباً جديداً فقال: «دعني أحدث ولدي بكلمات أولئك الذين أنصتوا إلى حكمة الرجال الذين عاشوا في قديم الزمن - أولئك الذين استمعوا مرة إلى كلمات الله» [١].

وأتبع بتاح حتب هذه المقدمة بمخطوطه عن الحياة الصالحة : «لا تزهُ بمعرفتك ولا تحسبن نفسك عالماً . تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى العالم على السواء . فعليكم أن تتعلموا الكثير بعضكم من بعض فالمعرفة لا حدود لها ، كما أنه ليس في الوجود أي فيلسوف يملك الحكمة الكاملة ، والحديث المتسامح اللين كذلك الذي يدور بين من تساووا في المرتبة ، أندر من أحجار الزمرد» .

لقد أدرك بتاح حتب العلاقة الوطيدة بين ضبط النفس وبين التحلي بكل ما هو فاضل ومحمود أي بكل ما هو أخلاقي ؛ فالتحلي بهذه الفضيلة من شأنه في نظر مفكرنا الحفاظ على الصداقة والحفاظ على الثقة بين الفرد وسيده والحفاظ على الحب الأسرى بين الزوج والزوجة وبين الآباء والأبناء والأمهات والأخوال ... والتحلي بهذه الفضيلة لا يكون بالطبع إلا إذا أعمل الإنسان عقله في كل سلوك يسلكه [٢].

١ـ اعلام الفلسفة كيف نفهمهم د. هنري توماس ص٥-٦

٢ـ بتاح حتب رائد الفكر الأخلاقي في مصر القديمة د. مصطفى النشار مجلة كلية الأداب

وقد ختم بتاح حتب نصائحه لأبنه بعبارة تُحبب إلى نفسه العدالة إذ يقول في منتهاها : تأمل ! إن الولد النجيب الذي يهبه الإله يقوم بأداء أكثر مما يأمره به والده ، فهو يُقيم الحق وقلبه يسير على صراطه . وبقدر ما تصل إلى ما وصل إليه الناس ، سيكون جسمك سليماً وسيكون الملك مرتاحاً لك في كل ما يجري . وكذلك ستصل إلى السن التي وصلت إليها ، والسنين التي عشتها على الأرض وليست بالقليلة ، فقد بلغت العاشرة بعد المائة وحباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأني أقمت العدل للملك حتى ضمني القبر " .

ومما سبق يتضح أن حكم بتاح حتب كانت ذات مكانة راجحة في الجهات العليا من وادي النيل ، وبخاصة إذا علمنا أن أحد ألقاب الملك أوسر كاف الذي عاش في عهد هذا الوزير (مقيم العدل) وقد أفاض الوزير في العدل وفضائله»[1] .

وكان بتاح حتب والفلاسفة المصريون الأوائل الآخرون هم أول من سجل إيمان الإنسان بالبعث ، وهذا الايمان هو الذي حفز المصريون على الاحتفاظ بجثث موتاهم ، وفي مصر القديمة كانت الفلسفة مرتبطة بالدين ارتباطاً وثيقاً ، فمن أكثر الرموز المرسومة على جدران المقابر إثارة ، صورة الميت وهو ينهض على قدميه وذراعاه ممدوتان على هيئة صليب ، وكان

بجامعة الامارات العربية المتحدة العين ١٩٩١م العدد السابع ص٤٦ ، أنظر : **المصادر** الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٦٧-٧٧

١ـ الأدب المصرب القديم د. سليم حسن ج١ ص١٩٥-١٩٦

لفكرة الصليب هذه التي ولدت في مصر منذ ثلاثة آلاف سنة قبل العصر المسيحي . من دلالة الارتفاع والسمو أكثر مما تتضمن من حزن وبؤس . وكانت تُمثل الجنس البشري وهو يصعد إلى أعلى نحو الحياة وليس إلى أسفل نحو الموت[١] .

لكن هذه النغمة السارة المستبشرة لا تدوم في التفكير المصري ؛ بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحيلها إلى نكد وكآبة . ويأتي حكيم أخر هو إبوور فيندب ما في البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين «يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله» ، ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهور من بعده: «ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون في الأرض حمل ولا ولادة ؛ ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع» ـ وواضح من هذه الأقوال أن إبوور كان قد شاخ ومل الحياة ، وهو يحلم في آخر أيامه بملك ـ فيلسوف ينجي الناس من الفوضى والظلم : يُبَرَّد لهيب(الحريق الاجتماعي) ؟ ويقال إنه راعى الناس جميعاً . قلبه خال من الشر فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه في جمعها ، لأن قلوبها محمومة . ألا ليته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول . إذن لقضى على الشر ، ولمد ذراعه لمقاومته ولسحق بذرته وما يخرج منها ... أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ انظروا إن قوته لا ترى»[٢]

١ـ أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم هنري توماس ص٧-٨ ، الفلسفة المصرية وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٢٨-١٢٩

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٥١

ولنتعرف هنا على نظرتهم تجاه الكون والحياة والتوحيد في محاورة بين الكاهن والطالب والتي تمثل نمط من أنماط الآدب المصري القديم، فسأل طالب العلم الكاهن : لماذا خلق الإله الأرض على شكل بيضة ؟ يجيب الكاهن : خلق الإله الحياة من الجماد ... فأخرج الفرخ من البيضة ونفخ فيها من أنفاسه فدبت فيها الحياة وخلق الكائنات جميعها من البويضات فأكبر الكائنات وأعظمها تخرج من أصغر البويضات .

ويسأل آخر : أين هو الله ؟ لماذا لا نراه وكيف نراه أو نسمع صوته ؟ يجيب الكاهن : أغمض عينيك وافتح عقلك ترَ الله . فهو موجود في كل ما هو موجود . موجود في كل ما في الكون من حياة أو جماد ، إن الزهرة الجميلة التي تخرج من الأرض القاحلة تقول لك أنا الله ، والفرخ الحي الذي يخرج من البيضة يقول لك أنا الله . إذا أردت أن تسمع صوت الله فأغلق أذنيك وافتح قلبك تسمع صوت الإله في صوت الوجود ، في همس النسيم وصوت الرعد في تغريد الطيور وصوت الموسيقى لغة السماء. فصوت الإله هو الذي أنطق الكائنات والحياة فوهبها النطق والحركة .

ويسأل آخر : لماذا يطلب منا الإله في كتاب النور أن نطلب العلم والمعرفة من يوم دخولنا الحياة إلى يوم خروجنا منها ؟ فلماذا نتعب أنفسنا عندما نكبر في السن في مداومة الحصول على العلم والمعرفة التي لا نستفيد منها عندما نفقد بالموت كل ما جمعناه من علم ومعرفة ؟

يجيب الكاهن : علوم المعرفة مفاتيح الجنة . إن الحياة الأولى التي نحياها هي حياة التجربة والتمهيد لاستمرارها في عالم الخلود ، فما نتحصل

عليه من علوم ومعارف لا تضيع وتنتهي بالموت ، فالموت استمرار للحياة وليس نهاية لها فالموت طريق البعث ، واستمرار الحياة وانتقالها من عالم التجربة إلى عالم الخلود . بالموت نفقد كل ما هو مادي وبالبعث نحتفظ بكل ما هو روحي أو غذاء الروح الذي نحصل عليه من علوم ومعرفة مقدسة في عالم التجربة والحياة الأولى ؛ لنحملها معنا لننتفع بها وبثمارها والتي تحدد مكاننا ومكانتنا في عالم الخلود .

فعلينا يا ولدى أن نكافح ونداوم على طلب العلم والمعرفة لآخر يوم في حياتنا ، حياة التجربة التي نعيشها اليوم ، فهي الثروة الوحيدة التي ستحتفظ بها أرواحنا ولن ينقص الموت منها شيئاً[1] .

ولم يقتصر أدب الحوار فقط بين الكهنة وطلاب العلم ، بل كان يدور أيضاً بين (الأنا والقلب) كالحوار الذي يدور بين الـ (أنا) و الـ (با) في أناشيد اليائس والذي يدور حول فكرة التشاؤم والموت .

«ولكن يا (بائي) إنه من غير المعقول الإبقاء على ذلك الذي سئم الحياة ، قُدني إذن إلى الموت ، قبل أن يحل أجله المضروب ، فلتجعل الغرب لطيفاً من أجلي . هل هذا من سوء الطالع ؟ إن الحياة دورة ، وهكذا تسقط الأشجار» .

ولكن الـ (باء) على عكس ذلك ينصح الـ (أنا) بأن يقنع بالحياة الراهنة . فالآخرة تشغل بالنا بلا طائل . عندئذ يجيب عليه الـ (أنا) : «من المستحيل أن يموت المرء ، دون أن يأخذ في الحسبان الشعائر الجنائزية ، فبدونها

١ـالحكم والأمثال في الآدب الفرعوني د. سيد كريم ١٠٥-١٠٦

يصبح الـ (با) ذاته بائساً . وفي هذه المرة يصله من الـ (با) رد لاذع . فيدين إدانة مطلقة فكرة أي حياة بعد الوفاة ، ويلجأ مثل أفلاطون إلى الصور والحكايات الأخلاقية لتوضيح أفكاره . و النتيجة التي ينتهي إليها واضحة كل الوضوح : فعلى المرء أن يُسلم بالحقائق الواقعة فحسب ، وأن يقف موقفاً يتفق مع هذا الواقع » .

إن مغزى هذا النص هو اختلاف في الموقف الفلسفي . على هيئة حوار بين مفهومين حول الآخرة ، أحدهما سلبي والآخر إيجابي . إنه تمزق داخلي يصوغه الكاتب على شكل تعارض بين عنصري شخصية الإنسان . فليس الأمر إذن صراعاً بين الـ أنا وأصدقائه ولكنه مواجهة مكتئبة في أعماق النفس[1] .

وكذلك نجدُ ثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما في ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها في كل جيل ، ثم ينطلق شاعر مصري آخر شبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزي قصيدة في مدح الموت ، وأشد من هذا كآبة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة في متحف ليدن يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق. م ، وهي تضرب على النغمة المألوفة نغمة تمتع بيومك:

لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف

وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها.

١ـ حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما ص٥٥٧ – ٥٥٨ ، الفلسفة المصرية وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٣٣

أنظر إلى مكانيهما

إن جدرانهما قد جردت

ومواضعهما قد اندثرت

كأن لم تغن بالأمس

إن أحداً لا يأتي من هناك

ليحدثنا عما حل بهما...

حتى يرضي قلوبنا ،

إلى أن يحين وقت ارتحالنا ... الى أخر القصيدة .

ولعل هذا التشاؤم وهذا التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها الغزاة الهكسوس وأذلوها ، وشأنهما في مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند اليونان المهزومين المستبعدين . وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التي يغلب فيها التفكير زمناً ما على العقيدة ، والتي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولم يعيشون ، وهي فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خليقة غير التي تسود العهد الآخر . وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يتغلب على التفكير، فتنحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضيع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحي إلى الناس بذلك الباعث الخيالي الذي لا غنى لهم عنه في حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كبيرة من المصريين بل ينبغي أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشيطة الحية التي

كانت تفكر في مسائل الموت والحياة بعبارة دنيوية طبيعية ، نقول أنه من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجالا كانوا أو نساءً ، ظلوا أوفياء مخلصين لآلهتهم لا يشكون قط في أن الحق سوف يسود، وأن ما يقاسونه على الأرض من الآم وأحزان سوف يعوضون عنه بسخاء يوم يستقرون في دار النعيم والسلام[١]

إخناتون فيلسوف مصر

في عام ١٣٨٠ ق. م مات أمنحوتب الثالث الذي خلف تحتمس الثالث على عرش مصر بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوي ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذي شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون[٢] . ولدينا تمثال نصفي لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه في تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، ذا وجه نسائي في رقته ، شاعري في أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شوهاء ، وجسم نحيل

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٥٣ -١٥٥

٢ـ حقيقة نطق اسم (إخناتون) هي (آخن آتن) و (آخن) معناه مبعوث أو مكرس ، و (آتن) صفة من صفات الإله ، كما وردت في (كتاب أوزيريس) ومعناها (القوى الإلهية) التي تهب الحياة وتحرك الكون ، أي أن أسم (إخناتون) أو (آخن آتن) معناه (مبعوث القوى الإلهية) . أنظر الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٩٣ أنظر : إخناتون د. سيد كريم الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص٧٩ .

ضعيف . وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً .

إخناتون كان آخر نتاج لسلسلة من الزيجات داخل نفس الأسرة ، فقد كان هذا الطفل الجميل للإله آتون أغرب شخصية في التاريخ المصري . فكان ضعيف البنية ، نحيل القوام ، بارز الوجنتين ، متدلى الفك ، يوحى وجهه بحزن شديد ، أما روحه فيمتلكها إلهام مقدس حساس بالطبيعة ، ولاشك أنه يُعد من أعظم المتصوفين في التاريخ[1] .

ولنتعرف على جزء يسير من حياة ذلك الفيلسوف المصري ، فقد ولد إخناتون من أبوين مصريين ، هما أمنحوتب الثالث (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق . م) ، ابن تحوتمس الرابع (١٤١١ - ١٣٩٧ ق . م) والملكة تي . وعاش إخناتون في جو ملكي يتصف بالترف . وأرسل إخناتون الطفل المدلل ليتلقى تعاليم الإله رع في أون (هليوبوليس) معبد أجداده من عصر الأهرام الذين حمل منهم اسم رع لا اسم آمون وكان آخرهم جده تحوتمس الرابع .

ويصف التاريخ (إخناتون) الشاب بأنه كان مرهف الحس شديد الذكاء ، وفيلسوفاً سديد الرأي . ذا عقل راجح ونفس صافية .

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التي يتبعها كهنته . فقد كان الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سراري لآمون في الظاهر، وليستمتع بهن الكهنة في الحقيقة .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٦٨ . مصر الفرعونية جان يويوت ترجمة سعد زهران ، الألف كتاب (٦٠١) ، سلسلة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب ، ١٩٩٦ ، ص١٢٨

وكان الملك الشاب في حياته الخاصة مثالاً للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ؛ وكانت رائحة دم الكبش الذي يقدم قرباناً لآمون كريهة نتنة في خياشيمه كما كان اتجار الكهنة في السحر والرقى، واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسي مما تعافه نفسه، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة، وقال في هذا: «إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما سمعت»[1].

وهكذا يظل إخناتون يحكم بلاده لمدة سبعة عشر عاماً ، وكانت بداية حكمه تتصف بالهدوء وبُعده عن مشكلات الحكم المبالغ فيها ، فقد كان شاعراً مبدعاً وفيلسوفاً قديراً ومصلحاً دينياً فذاً ، وكان يقضي معظم وقته في مناقشات فلسفية مع أمه الملكة تي وزوجته نفرتيتي كما كان يتحلى بالصدق والبساطة وعدم الميل إلى التصنع والمبالغة .

وكان إخناتون يكن بعض الكراهية لكهنة آمون وتضخم بينهما العداء ، مما اضطر إخناتون إلى أن يشن حرباً ضارية ضد آمون وكهنته . وبدأت ثورة إخناتون الدينية .

ونجد أن مصر قد عرفت عبادة الشمس منذ أقدم الأزمنة ، وكانت للشمس مظاهر متعددة عُبدت في شكل رع وآتوم وخبرى وحور آختي[2] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٦٨ -١٦٩ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٨٩

٢ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور (تاريخ مصر القديمة) د. عبد العزيز صالح وآخرون ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص٢٢٨ -٢٢٩

بينما نجد إخناتون قد شُغل طوال حياته بالسعي وراء التوحيد وتوحيد الديانات المختلفة والآلهة المتعددة حول إله واحد لا شريك له ، وكان يرى خطأ تعدد الآلهة ، ويعتقد ويؤمن بوجود إله واحد ومعبود واحد مسيطر ومتحكم في مصائر البشر[١] . فقد رأى الحق في أن يصور إلهاً واحداً أعظم تطل سماؤه حانية فوق جسم الأرض أنه الإله الحي المبدع ، مبدع الحياة وخالق كل شيء مسير الأشياء حسب مشيئته ، رابط جميع الأقطار والأمم برباط محبته[٢] .

وبعبارة أخرى : رأى إخناتون- كما رأى أكبر في الهند من بعده بثلاثين قرناً- أن الألوهية أكبر ما تكون في الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة[٣]

وقال المؤرخون إن إخناتون ادعى أنه نبي من قبل آتون وأنه وحده الذي يملك وضع الطقوس والأناشيد الدينية للإله ، ولذا فهو يدعو جميع المصريين ، بل جميع من هم في أنحاء الأرض أن يؤمنوا بهذا الإله الواحد العام الذي خلق العالم والكون كله والذي لم يعد خاصاً بوادي النيل فقط بل العالم ككل .

١ـ الاديان القديمة في الشرق د. رءوف شلبي ص٢٤ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٩٠

٢ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٧٨ ، تاريخ العلم الجزء الأول (الأصول الشرقية واليونانية) جورج سارتون ص١٣٢

٣ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٦٩

وعندما زاد العداء بين إخناتون وكهنة آمون ؛ وخاصة بعد ما قام به إخناتون من تحطيم تماثيل آمون وطمس كل ما يتعلق بتعدد الآلهة وتشويه كل ما يمتُ بصلة إلى الإله آمون ، بما في ذلك اسم أبيه أمنحوتب الثالث ، مما كان له أثر سيء في نفوس الموجودين بالقصر وعامة الشعب .

فاضطر إخناتون إلى أن يترك العاصمة طيبة ويهجر كل ما فيها لمكان آخر أعده لإلهه الجديد آتون وأسماها (مدينة إخناتون) في تل العمارنة[١] . على الضفة الشرقية للنيل ، والتي تنسب إلى بنى عمران الذين حطوا رحالهم هناك منذ قرنين من الزمان .

فلسفة إخناتون وديانة التوحيد

لقد شُغف إخناتون بالطبيعة[٢] وكان كثير التأمل فيما حوله من مخلوقات متعددة معتمداً في ذلك على عقله ، مما أدى به إلى محو طائفة

١ـ أنظر : تاريخ الفراعنة محمد فخر الدين ص٢٦٣ ، نشأة الكون ووحدة الخلق د. محمد عوض الله العدد (٤٨٦) دار المعارف ١٩٨٣ ص٢٢ ، الاديان القديمة في الشرق د. رءوف شلبي ص٧٦

٢ـ لفظ الطبيعة هو لفظ مشترك مع لفظ (الكون) في أحد مدلولاته ، وللفظ الطبيعة مدلول عام هو (جملة الموجودات المادية بقوانينها) فالطبيعة صنع عقل حكيم ، وأن لكل موجود طبيعته ، وأن للطبائع وأفعالها نظاماً وحكمة وأن (لا شيء معطل في الطبيعة) بحيث لو صادفنا مذهباً فلسفياً يعتمد على الاتفاق أو المصادفة ، حكمنا فوراً ببطلانه لمخالفته لذلك المعنى العام للطبيعة الذي يتبدى للعقل بداهة ويتبدى لكل عقل . الطبيعة وما بعد الطبيعة د. يوسف كرم دار المعارف ١٩٦٦ ص٨ - ١٠ .

كبيرة من الأساطير والتقاليد التي كانت محترمة والتي كانت تقول بأن النيل هو الإله أوزيريس عدة أزمان . ثم نُسب الفيضان في الحال إلى قوى طبيعية يسيطر عليها ذلك الإله الذي يعبده وهو الذي خلق - بمثل ذلك الاهتمام - للبلاد الأخرى نيلا آخر في السماء . ولقد تجاهل إخناتون الإله أوزيريس كلية ولم يُذكر قط في كل الوثائق الإخناتونية ، بل ولا في أي قبر من قبور تل العمارنة .

وبهذا ينتقل تفكير إخناتون إلى ما وراء الإدراك المادي المحض لنشاط الشمس فوق الأرض ويُقدر مبلغ اهتمام آتون الأبوي بجميع المخلوقات . وهذا التفكير هو الذي يرفع من شأن الحركة التي قام بها إخناتون إلى حد بعيد فوق كل ما كانت قد وصلت إليه ديانة قدماء المصريين أو ديانات بأجمعه قبل ذلك[1] فقد كان تفكير قدماء المصريين عن نشأة الكون والله والإنسان مختلفة تماماً عما جاء به إخناتون ، فنجدهم يقررون أن الإله قد وعى نفسه في الماء وكان قبل ذلك ماء ، ثم استكمل خلق ذاته وبدأ في خلق العالم !! فأين الله في هذه الأشياء ، والطاقة الكامنة والمحركة لها . هذا نجده واضحاً بالنسبة لتعاليم إخناتون .

ونجد في متون البرديات القديمة أن قصة الخلق تبدأ هكذا : «في البدء كان الظلام والعماء والسكون ولا شيء سوى المحيط الأزلي (نون) ، ومن باطن هذا المحيط المظلم خلق الله نفسه بنفسه وخرج ليفيض النور

١- فجر الضمير جيمس هنري برستيد ص٣١٤ ، أنظر : مصر القديمة د. سليم حسن ج٥ ص ٣١٥

والحركة على الوجود ، وكان أول ما خلق ملائكة التكوين الثمانية ... خلقهم من أنفاسه ليكونوا حملة عرشه فوق الماء»[1] .

ويأتي وصف الخالق في البرديات في برديات تحوت وأقوال كل من آنى وحونفر وكاجمنى وخيتى وإخناتون في برديات متون العقيدة وكتاب الموتى بقولهم : «في البدء كانت الكلمة والكلمة مصدرها الإله ، إله واحد هو كل شيء كان ، وكل شيء كائن وكل شيء سيكون ، محال على من يفنى أن يكشف النقاب عن ما لا يفنى» .

وتصف برديات الخلق في عقيدة التوحيد كيان الوجود الإنساني بقولها : «أمر الإله الخالق المعبود (خونوم) ليشكل الإنسان من طين الأرض . قال له : خذ حفنة من تراب الأرض من أركانها الأربعة الأبيض والأصفر والأحمر والأسود واعجنه بمياه الحياة الأربعة ماء السماء (الأمطار) وماء البحار (المالحة) ومياه الأنهار العذبة ومياه باطن الأرض (العيون) فمن ألوان

١ـ كتاب الموتى الفرعوني والس بادج ص٢٠٣ - ٢١٢ من الحقائق التاريخية أن (الأنقلاب) الديني الذي قام به إخناتون لم يتم بغتة ، أو دفعة واحدة فقد بدأت مقدماته في عهد جده تحتمس الرابع ، الذي بدأت الدعوة لإحياء عقيدة التوحيد والعودة إلى عبادة الاله رع (رب الارباب) في عهده مع بداية الدولة الحديثة . تنسب الدراسات الحديثة تلك الدعوة إلى النبوءة التي تلقاها تحتمس الرابع - عندما كان اميراً وأصغر ابناء أمنحتب الثاني - تلبقاها وهو نائم في ظلال أبي الهول .... ولقد تحققت تلك النبوءة التي نطق بها أبو الهول فعين الأمير تحتمس الرابع فرعوناً على عرش مصر مع أنه لم يكن وريثاً للعرش فقد كان له أربعة أخوة يكبرونه . أنظر : لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٧

التراب تختلف ألوان الناس ومن طبيعة المياه تختلف طبائعهم ... ومن الصلصال الناتج من خلط التراب بالماء شكل منه الإنسان على رحاية التكوين ... فانفخ فيه من روحي لتدب فيه الحياة».

ويقول إخناتون: «إن الإله قد خلق الحياة من الجماد فأخرج الكتكوت من البيضة وخلق الأرض وهي الجماد على شكل البيضة ومن بطنها خرجت الحياة»[1].

لقد صور إخناتون إلهه بإله واحد أعظم، تطل سماؤه حانية من علٍ فوق جسم الأرض «ومن هذا العناق المقدس تُخلق كل الأشياء بجسم يتكون من طين أرضي وروح أساسها نار سماوية». وقد أعلن إخناتون أن هذه النار التي لا تنطفيء لا تحل في المخلوقات البشرية فحسب، بل في كل المخلوقات[2]، فقد خلق الله الأرض تبعاً لمشيئته وإذا أراد شيء أن يكون قال له كن فيكون. فالإله الواحد عند إخناتون خلق الناس والكائنات لنفسه، وأنه موجود في السماء بينما قدرته ومشيئته تنفذ حتى أعماق البحار.

ويؤمن إخناتون بأن الأشياء خُلقت من الإله الواحد ومن أجله وأنه هو الذي منحها الحياة، والكل يحيا به. وهكذا اختلفوا في فلسفة إخناتون فعند البعض إن فكرة وجود الإله في كل شيء تجعل فلسفته أقرب نوعاً ما إلى المذهب الحلولي (ألوهية الكون) منها إلى مذهب التوحيد. وهكذا

١ـ الحكم والأمثال في الأدب الفرعوني د. سيد كريم ص٨٢-٩١، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٩٣- ٩٤

٢ـ اعلام الفلاسفة كيف نفهمهم هنري توماس ترجمة مترى أمين ص١٢

يمكن أن يُعد إخناتون المصدر الأصلي لفلسفة سبينوزا الحلولية[١] .

فالإله الواحد قد وضع في الكائنات القدرة على الحياة ، بل أعطاها الحياة وهي خُلقت منه وتحيا من أجله وكفل لها الرزق ، فإنه هو الحياة بعينها والكل يحيا به . ومن هنا أستنتج هؤلاء أن الإله الواحد هو الحياة في الأشياء أي أن إخناتون يؤمن بحلول الإله الواحد في الأشياء من حيث حلول الحياة ، حيث إن الأشياء خُلقت منه ومن أجله وهو مانحها الحياة ومن ثم ففكرة الحلول قديمة العهد من خلال وحدة الفكر الديني التي أيقظها إخناتون من خلال مبادئه وأفكاره الفلسفية والدينية ، تلك الأفكار التي لم تولد في عقل فيلسوف إلا عقل إخناتون[٢] .

ولكن يمكن القول أن العبارات السابقة لا تبتعد كثيراً عن فكرة التوحيد والدعوة إلى إله واحد ، بل تؤكدها صراحة ، وعليه يمكن القول بكلا الفكرتين ، ولا مسوغ في المقام على أفتراض الحلولية فحسب .

إنشودة إخناتون والمغزى الفلسفي

إن مذهب إخناتون قد نُقشت تعاليمه على جدران مقابر ذلك العصر . وقد عُثر بمقابر سُراة القوم على أنشودتين وضعهما إخناتون لآتون لتلاوتهما في المعابد أثناء أداء الطقوس الدينية والتوسل بهما في خلوته . وتُعد هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور ، لأنهما توضحان لنا

١ـ اعلام الفلاسفة كيف نفهمهم هنري توماس ترجمة متري أمين ص١٢ - ١٣

٢ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٩٩

قيمة مذهب ذلك الفيلسوف الذي ضحى بكثير لأجله . وقد لقبت هاتان الأنشودتان (بدعاء إخناتون والملكة نفر نفرو آتون للمعبد آتون) وهما تختلفان في الأسلوب والمقدار . فالأنشودة الطويلة هي أجمل ذوقاً وأعذب كلاماً وأجدر أن تُحفظ ضمن آداب عصرنا هذا[١] .

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب ، بل هي فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد ، فقد قيلت قبل أن يجيء إشعيا بسبعمائة عام كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر الأبيض المتوسط تحت حكم مصر في عهد تحتمس الثالث ، كما يقول برستد . ويرى إخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ، بل إنه في مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التي يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم ناظر إلى ما في القصيدة من مذهب حيوي : إن آتون لا يوجد في الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء ؛ وآتون هو الفرحة التي تجعل الخراف الصغرى «ترقص فوق أرجلها» والطير «ترفرف في مناقعها»[٢] .

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٠٣ وقد ذكروا هذه الأنشودة مع مقارنة بالمزمور الرابع والمائة من مزامير داود لمعرفة مدى التشابه الشديد من حيث الآراء وتسلسل المعاني انظر الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٠٣

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٧٥

ومما سبق يتضح لنا أن واضع هذا النشيد يتسم بالشفافية المطلقة والوادعة والشاعرية المفعمة التي تملأ نفسه ، فإخناتون كان واسع الاطلاع عالماً بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة إلى أقصى حدود سوريا في آسيا ، معتبراً هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ، الشيء الذي لم يعتد المؤرخون نسبته إلى أهالي القرن الرابع عشر ق . م وبديهي أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة في مصر بدلا من الروح الرجعية العتيقة ، والفضل في ذلك يرجع إلى إخناتون من خلال قصيدته المشهورة التي تشهد له بسمو الذاكرة في ذلك العهد السحيق . وقد توصل ذلك الملك الفيلسوف بثاقب فكره إلى معرفة إله العالم خالق الكون ، وإلى الإيمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقير منها . فقد أبصر في رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع بالمستنقعات المصرية نوعاً من التسبيح لخالقها .

كما تصور قفز السمك في الغدير حمداً لبارئها ، واعتقد إخناتون إن الإله الأحد هو الذي يناجي النبات ويُغذى الفرخ الصغير ويُشرف على فيضان النيل الشديد وقد سماه (أب وأم جميع مخلوقاته) ، ومنه يتضح لنا أن الملك إخناتون عرف لطف الإله العالمى وحلمه[1] .

وهكذا نجدُ إن صفات الإله عند إخناتون هي أنه واحد لا شريك له ، وأنه الخالق والمدبر - الوهاب - الملهم - الجميل - الحي - المُبدئ -

---

١ـ تاريخ مصر من أقدم العصور حتى العصر الفارسي جيمس هنري برستيد ص٣٠٧ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٠٨- ١٠٩

المشرق - العظيم - المستكن - المضيء - المانح - المحيى - المجيد - الجليل - الصمد - الرزاق - المالك - الرائى .

وتوجد صفات أخرى كثيرة متضمنة في أنشودته الآتونية الشهيرة والتي نستطيع أن نستخرج منها تلك الصفات والتي لها دلالات عديدة ، فقد أكد إخناتون أن عُمر الإنسان محدود وللإله الواحد المشيئة ، فقد خلق الأرض تبعاً لمشيئته وإذا أراد للشيء أن يكون قال له كُن[١] .

وهكذا نجد فلسفة إخناتون وتعاليمه الدينية قد أبرزت مفاهيم جديدة أخذت طابعاً فريداً عملت على توحيد الآلهة في إله واحد له السيادة العالمية للكون والبشر جميعاً ، وقد أشار إخناتون إلى أن سيادة الإله التامة على كل الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنو أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر . وأظهر الملك للمصري المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلها ، فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر في تعداد تلك الشعوب .

ولاشك أن هذه العقلية الفذة هي التي جعلت المؤرخين يعدون إخناتون أقدم رسول معروف في تاريخ البشر . وتصدق هذه الآراء لأن الملوك القدماء كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم هو الذي يهب النصر ويسحق الأهالي ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة الفرعون .

أما إخناتون فقد رأى في الإله رأفة ورحمة لخلقه جميعاً على السواء . ويُعدُ هذا المذهب أقدم ما عُرف من علم التوحيد في التاريخ ، وتعاليم هذه

١ـ الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص٩٨-٩٩

القصيدة اعتراف صحيح بوحدانية الله ورأفته ووجوده وسره المكنون في كل مخلوقاته .

وهكذا كانت عقيدة إخناتون التوحيدية تهدف لايجاد اتحاد سياسي عالمى يجمع بين مصر وجميع الممالك الأخرى ، وهذا لم يكن الهدف الوحيد من دينه الجديد ، بل كان يريد أيضاً رفع معبوده آتون فوق جميع الآلهة والمعبودات الأخرى ، وأنه هو وحده الذي سيصل بالشعوب إلى أعظم ما يتمناه الإنسان من الكمال والحرية والاستقرار .

فكان قصد إخناتون من العقيدة الآتونية تقريب الشعوب والأفراد من بعضهم البعض دون تفرقة بين أصولهم وأجناسهم وألسنتهم ليؤكد لهم أن إلههم هو الإله الواحد الذي لا شريك له ، وهو الذي يشرق بنوره على الكون كله[١] .

وقد ذكر إخناتون عبارة شهيرة اشتهر بها وهي (العائش على الحقيقة) وتدل على شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية ، فكان يعتقد أن الحياة البسيطة البعيدة عن التكلف هي أقرب الأمور للحق

١ـ انظر : إخناتون د. سيد كريم ص٤٥ ، تاريخ مصر من أقدم العصور حتى العصر الفارسي جيمس هنري برستيد ص٣٠٨ ونجد أن المؤرخ فرنراكشناين في (ضمير الشعوب) ينسب إلى إخناتون مسؤولية ضياع الامبراطورية المصرية بمحاولة إدخال الدين في السياسة ، ووصفه بأنه أول الفراعنة المسالمين والذي أظهر الميل إلى تأسيس دولة عالمية لا تستلزم استخدام القوة لإخضاع الغير ؛ بل تستخدم الوسائل السلمية تدرجاً حتة تبلغ الدولة بذاتها حد الكمال اللائق بها بين الشعوب أنظر : إخناتون سيد كريم ص٤٧

والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه، لذلك كان يُرى هو وأسرته دون تكلف ويظهر في كل الاحتفالات كأنه كاتب بسيط في معبد آتون[١].

ومن الواضح أن إخناتون كان يُبرز بذلك ديناً عالمياً يحاول أن يحل محل القومية المصرية التي سبقته وسارت عليها البلاد خلال عشرين قرناً مضت، أضف إلى ذلك تأثره الشديد بأزلية إلهه. وكان إخناتون نفسه يتقبل فكرة فناء نفسه بكل سكينة واطمئنان، فنراه يُسجل في تل العمارنة تعليماته الدقيقة الخاصة بدفنه بعد الموت. ومع ذلك كان يعتمد على علاقته الوثيقة بآتون حتى يضمن له شيئاً من خلود إله الشمس؛ ولذلك كان يحتوي لقبه الرسمي دائماً بعد ذكر اسمه على النعت الآتي (الذي مدة حياته طويلا)[٢].

فلاشك أن هناك روحاً جديدة في هذه العلاقة الشخصية بين الإله والإنسان، وهي روح لم يعهدها الناس من قبل في دين مصر أو على الأقل لم تُسجل من قبل في ترانيم أو صلوات أو أناشيد سابقة كانت أم لاحقة. ومن المحال ألا نفطن إلى أن إخناتون قد اعتبر ذاته قمة الوجود، فهو وحده الذي يعلم الخالق ويعرفه وكل البشر يعيشون من أجل ابنك إخناتون[٣].

١ـ تاريخ مصر من أقدم العصور حتى العصر الفارسي جيمس هنري برستيد ص٣٠٨،
الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١١١

٢ـ الأدب المصري القديم د. سليم حسن ج٢ ص١٢٦

٣ـ أوديب وإخناتون إيمانويل فليكوفسكي ص٥٩

وهكذا يرى هؤلاء أن إخناتون قد زعم أنه أول من بشَر باسم آتون أو أنه رسول آتون للناس كافة ، جاء ليظهرهم على جماله ويعظم أسمه بين العالمين ويجعلهم يشعرون بقوة خالقهم ، وأن آتون قد اصطفى ذلك الرسول واجتباه وعلمه وأظهره على قوته ، وأطلعه على إرادته[١] .

العقيدة والمعرفة في الفلسفة الآتونية

يرى بعض الباحثين أن جذور المعرفة في الحضارة المصرية القديمة قد ظهرت مع ظهور عقيدة التوحيد ، والتي ارتبطت جميع عناصرها بالعقيدة ، وكان مصدر نشأتها نفس المعبد الذي خرجت منه رسالة عقيدة التوحيد ، وحمل نفس الكهنة رسالة المعرفة التي أطلق عليها في نفس الوقت المعرفة المقدسة[٢] .

فنجد آني في الاعتراف السلبي[٣] (كتاب الموتى) يقول : «هلا ... يا من منحت المعرفة .. يا من أتيت من (أوتن) إني لم أسمع في وشاية»[٤] .

١ـ في موكب الشمس د. أحمد بدوي ص٥٨٠

٢ـ لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٠ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١١٧

٣ـ الاعتراف السلبي هو وقوف المتوفى أمام أثنين وأربعين إلهاً وما هم إلا مساعدون (لأوزيريس) الذي يتصدر قاعة (الإلهتين ماعت) لينفى عن نفسه أمام كل إله خطيئته من الخطايا ، والاعتراف أمام كل إله لابد أن يتضمن شيئين : اسم الإله والمكان الذي أتى منه ، ثم أعلان البراءة من الخطيئة . انظر : كتاب الموتى والس بادج ص٢٢٢ .

٤ـ كتاب الموتى والس بادج ص١٢٠

«هلا ... معطى المعرفة»[1] .

وتشير برديات هرمس إلى العلاقة بين العقيدة والمعرفة بقولها : «عندما آمن المخلوق برب السماء أنعم عليه بنعمة (المعرفة) التي حملها إليه (تحوت) رسول الإله الذي ينقل رسالته إلى البشر . علمه الحرف والكلمة والنطق والأسماء . أنزل إليه النقش المقدس (الخط الهيروغليفي) ليقرأ به كلمات الإله ليحفظ تعاليمه ويتلقى حكمته . وعندما تطلع إلى السماء ليرى وجه الإله شاهد عرشه الفسيح (قبة السماء) وراقب دورة حراس الإله التي لا تهدأ (النجوم السيارة) فأنعم عليه الإله بالتقويم وقياس الزمن . عرف علاقة الأفلاك ومكان الأرض منها ودورتها حول العرش فانكشف له سر الفلك ووضعه بالنسبة لبروج السماء ، وأتقن لغة التخاطب معها ، وهو التنجيم الذي فتح له نافذة يطل منها على أسرار ما وراء الطبيعة وسر الوجود . عرف معنى الخلود فآمن به وآمن بالخالق وكلما ازدادا إيماناً زاده الإله علماً وفتح له أبواباً جديدة من أبواب المعرفة»[2] .

وفي انشودة الخلق التي وردت في (كتاب الموتى) : «كان الله حكيماً عندما خلق بقدرته البشر قطيع الإله ، صنع لهم الأرض ليعيشوا فوقها والسماء لتغطيهم ، وأبعد الظلمات من الهاوية وجعل نسمة قلوبهم حياة وجودهم وأداة كيانهم فجعلهم صورته الخارجة وصعد إلى عرشه في

١ـ كتاب الموتى والس بادج ص١٢٧ ويقول أوزيريس آني : «نلت السيطرة على فمي ... نلت المعرفة» ص٧٣

٢ـ لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٠

السماء على رغبتهم بعد أن أمن معاشهم وصنع لهم من النبات والحيوان والطير والأسماك غذاء وأنزل عليهم المعرفة فعلمهم الكلمة والنطق والحروف ليقرءوا كلماته ويعملوا بتعاليمه التي ترشدهم إلى الطريق القويم حتى يسترد الأمانات في محكمة السماء بوابة الخلود»[١] .

من خلال تلك الكلمات الرائعة كانت العلوم والمعارف والفنون والآداب التي نسبها الكهنة إلى الإله الأعظم الذي اصطفاهم ليقوموا برسالة نقلها ونشرها بين الناس ، والتي اعتبروا فيها أن العلم عبادة والمعرفة من أركان العقيدة ، وهي النظرية التي أكدت أن الحضارة الفرعونية - كما وصفها كثير من المؤرخين - حضارة بُنيت على العقيدة وعلوم المعرفة معاً ، أي حضارة جمعت بين العلم والإيمان وهو ما يُمثله مذهب إخناتون الجديد[٢] .

ولم يقتصر نشاط إخناتون عند أناشيد آتون الدينية ، بل إنه اهتم بنشر العلم بين شعب آتون في رحاب مدينته الجديدة ، التي تقوم على العلم والعمل معاً ، حيث إن عقيدة التوحيد عند قدماء المصريين لم تشأ الفصل بين الإيمان الذي عبروا عنه بالحكمة والعلم ، فلم تقبل معالجة أي فرع من فروع العلم بمعزل عن العقيدة التي هي هدف في ذاتها ومعنى للوجود في نفسه ، فكل ما في الطبيعة كما يذكر (كتاب التوحيد) هو مظهر من مظاهر

١ـ لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٠

٢ـ لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٠ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١١٩

وجود الإله ، فليست معرفة الطبيعة وعلوم معارفها إلا شكلاً من أشكال العبادة المقربة إلى الله .

فانطلق العلم في عقيدة التوحيد المصرية من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة آيات الله وبين مختلف علوم مجالات الحياة من فنون وآداب وعلوم وغير ذلك ، بل مختلف الحرف والصناعات ، وامتداداً إلى السياسة والاقتصاد وإدارة الحكم والقضاء ، وعلاقة كل منها بتشاريع السماء كما هو الحال في جميع الكتب السماوية التي بدأت بالدعوة للعلم لتلقى تشاريع السماء وكلمات الإله .

ولم تغفل العقيدة علاقة العلم بالعمل ، فجعلت من العمل وممارسته وإتقانه نوعاً من العبادة التي تقرب الإنسان من الإله كما يقول إخناتون في إحدى برديات العمارنة : «تعلموا لتتعلموا كيف تعملون بإتقان ، العمل صلاة تقربكم من الإله ، وعين الإله لا تغفل عما تعملون» .

ونجد في الوثيقة التاريخية أو الرسالة الثالثة من تشاريع إخناتون بان العلم أول أركان الإيمان ، والجهل كفر برب السماء . وتضمنت كذلك وصفاً كاملا لنشر العلم بمفهومه الحضاري أي محو الجهل بمختلف مقومات حياة الفرد وكيان وجوده ودوره الفعال والثقافي في بناء الإنسان ودور الإنسان في بناء المجتمع المتحضر ودور المجتمع في بناء حضارة الأمة والتاريخ . وأوضحت هذه الوثيقة مدى الدور الذي يقوم به كل من الشعب وكهنة المعابد ورجال الدين وأهل العلم والمعرفة والعمال في

تطهير الشعب ودخوله تحت مظلة التوحيد[1].

وارتباط العقيدة بالعلم هو ما يفسر لنا قول بعض المؤرخين والباحثين إن الفلسفة الشرقية فلسفة دينية لإنها أرتبطت بالتعاليم الإلهية واقترنت فيها العقيدة والعلم ، فكانت المجالات المعرفية شكلا من أشكال العبادة الدينية ، وما ذلك إلا نتيجة العقائد الدينية الشرقية التي كانت في اغلبها ديانات توحيدية ، وهذا بخلافه في الحضارة الإغريقية التي كانت عقائدها الدينية ترتكز حول التعددية والوثنية فكان كل شيء عند الإغريق القدماء يُعبد ، وهذا يفسر لنا انفصال العلم عن الإيمان عندهم .

وهكذا تحولت المعابد ودور العبادة والمساكن وساحات المدينة إلى خلية حية لنشر العلم ومصنع للعلم والمعرفة ، فاصبح العلم والعمل من طقوس العبادة التي يأمر بها الإله ، وقد حدد إخناتون زمناً معيناً لتنفيذ مشروع (نشر العلم) طوال العام بدءاً بدورة سفينة عرش الإله دورة كاملة في قبة السماء ، دورة لا تغفل فيها عين الإله عن رؤية البشر ومراقبة اعمالهم .

١ـ لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٧٩-٨٠ ، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص ١٢٠ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٧٨ ، يذكر لنا الدكتور سيد كريم بإن الحفريات في العمارنة كشفت لنا عن خمسة من تاسوع تلك الرسائل موزعة بين المتحف البريطاني واللوفر وبرلين وتورين ومن بينها رسالة نشر العلم وهي الرسالة الثالثة لتشاريع العقيدة الآتونية ، وكان الفضل في اكتشافها للعالم الكبير الدكتور سليم حسن الذي اكتشف في نفس الوقت صفحات من كتاب العقيدة الإخناتونية مماثلة لصفحات من التوراة ، وأيضاً المزامير التي تُعد صورة طبق الأصل من أناشيد إخناتون .

تبدء الدورة بظهور النجم سبرت (الشعرى اليمانية) الذي يظهر مرة واحدة في أفق مصر مع شروق الشمس فيلعن بداية العالم. وهو النجم الذي اتخذه الفراعنة أساساً للتقويم الشمسي المعول به في العالم إلى اليوم. أي أن إخناتون قد حدد موعداً لبرنامج نشر العلم يستمر طوال العام لكن المشروع كله يكتمل خلال ثلاث سنوات.

يقول المؤرخ سيرام في كتابه (ذاكرة التاريخ) إن الملك الفيلسوف إخناتون تمكن من نشر العلم في عاصمة مصر خلال ثلاث سنوات، تركزت السنة الأولى على تعليم الكتابة والقراءة وحفظ وصايا السماء التسع وطقوس العبادة، ثم عامان لإتمام نشر العلم أو الجهل بالوجود والانتماء للمهن بالعلم والإيمان تبعاً للبرامج والتعاليم والوصايا التي حددتها الوثيقة[1].

وكان الشاعر الفتى في هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان. وكانت له سبع بنات ولكنه لم يكن له ولد ذكر. مع أن القانون كان يجيز له أن يطلب له وارثاً ذكراً من زوجة ثانية، فإنه لم يقدم على هذا الحل، وآثر على أن يظل وفياً لنفرتيتي ولقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان في تاريخ مصر.

وجاءت الرسائل المروعة من الشام تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة، فقد غزا الحيثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد

١ـ انظر: لغز الحضارة المصرية د. سيد كريم ص٨١-٨٢، فجر الضمير جيمس هنري برستيد ص٣٢١، الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية د. عفاف فوزي نصر ص١٢٢

التابعة لمصر في الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعيَّنون من قِبَل مصر يلحون في طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون في الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها . ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولي صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت في غير جلبة عن أداء شيء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة في جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصاه حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التي ظلت قرناً كاملاً تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من الجزية الخارجية . ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد، ووقف العمل في مناجم الذهب ، وعمت الفوضى في جميع فروع الإدارة الداخلية . وألفا إخناتون نفسه فقيراً لا صديق له ولا معين في عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له . واندلع لهيب الثورة في جميع الولايات التي كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية في وجهه تناوئه وتترقب سقوطه . ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفي في عام ١٣٦٢ ق. م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه عن أن يكون مَلِكاً وأيقن أن شعبه غير جدير به[١] .

والرأي في إخناتون - كما يرى بعض الباحثين - أنه فيلسوف ومفكر من خير فلاسفة ومفكري العالم القديم ، وإذا كانت المرارة قد تملكت

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٧٨ - ١٧٩

نفسه ، بعد أن رأى الصعاب في نشر دينه الجديد ، فأهمل شأن الحرب ، فربما كان لذلك أسبابه ، وربما كان أيضاً عقيدة راسخة في المحبة والإخاء بين الناس ، وكراهية منه للقتل والتخريب[1]

ويتضح لنا مما تقدم ارتباط الفلسفة بالدين ، فتكون الفلسفة المصرية كسابقتها العراقية القديمة مزيج بين الأفكار العقلية والتعاليم الدينية وهذا هو السبب الرئيسي في رأي الكثير من الباحثين والفلاسفة في عد الفلسفات الشرقية فلسات دينية وفلسفات أسطورية ، ولكن التساؤل الأهم هل أن أمتزج الفلسفة بالدين في بعض الجوانب وبالأساطير في جوانب آخرى يخرجها عن حريم التفكير العقلي والفلسفي ؟

إن كان الأمر كذلك ، فلازم ذلك أن يُعد التفكير المحض هو السمة الأساسية في الفلسفة ومميز لها عن المؤلفات الدينية والخيالية ، ولذا يصح أن نقول : أن أي فلسفة تخلو من التفكير المحض لا تُعد فلسفة بالمعنى المصطلح عليه فيلزم من ذلك خروج بعض المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية اليونانية عن الفلسفة لأمتزاج بعض نظرياتها بالتعاليم الدينية من جهة وأحتوائها على بعض الأساطير من جهة أخرى .

ولنذكر من معالم حضارة مصر القديمة نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العلمية ، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ، ونسيج الكتان ، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلي والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ؛ وأن

١ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص١٠٠

المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن في البلاد، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائي والثانوي ؛ بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة.

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ؛ والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردي ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد في الدين ، وأول من كتب في الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها على ما نعرف أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباء حتى في الوقت الذي كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدي الفينيقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أضحت من التراث الثقافي للجنس البشري . وإن ما قامت به مصر من الأعمال في فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مخلدة عند كل أمة وفي كل جيل ، «ولعل مصر» كما يقول فور «بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعا أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا» وإن من الخير لنا أن نعمل نحن لكي نبلغ ما بلغت[١] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص١٨٥-١٨٦

الفصل الثالث

فلسفة بلاد فارس

- الفلسفة الفارسية القديمة
- الحضارة الفارسية وأثرها الفكري والفلسفي
- زرادشت والديانة الزرادشتية
- الكتاب المقدس للزرادشتية

الفلسفة الفارسية القديمة

تعد ايران موطن الفرس القدامى أرضاً للقاء الحضاري بحكم موقعها الجغرافي الذي جعل أهلها يخضعون لتأثيرات فكرية متبادلة خاصة من جانب الهند والصين[1] . وقد تكشف هذا من التشابه بين العقائد الدينية لدى قدامى الهنود والفرس . فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأله (أهوار مازدا) وهو المعبود الأول عند الفرس قد أخذ أسمه من أحد الآلهة الهندية العتيقة[2] وقد توفر للفكر الفارسي الإحتكاك المباشر بالفكر اليوناني عبر قنوات عديدة منها التجارة ومنها النزاع بين اليونان وفارس الذي بلغ ذروته في الحروب التي دارت بينهما منذ مطلع القرن الخامس قبل الميلاد[3] .

وقد تميزت العقيدة الدينية - الفلسفية لدى الفرس بوجود مستويين

١ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفري بارندر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص١١٥

٢ـ أنظر : الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب ، مطبعة البيت الأخضر ص١٨٠

٣ـ أنظر : تاريخ العلم جورج سارتون ج٢ ٧-٩ ، تاريخ إيران القديم حسن بيرنيا ترجمة د.محمد نور الدين عبد المنعم ود. السباعي محمد السباعي ص٨٠-٨١و ١٠٥ -١٠٩ ، الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٩١

لها ؛ العقيدة الشعبية التي كانت تسمح بعبادة العناصر الأربعة : النار ممثلة في الشمس والقمر ، والهواء والماء والتراب ، كما كانت تقدس كل مظاهر الطبيعة لدرجة أنها كانت أول أمرها تأمر بالتضحية بأفراد بني الإنسان للتقرب إلى الآلهة ثم استبدلت ذلك فيما بعد التضحية ببعض الحيوانات كالثيران والكباش .

أما المستوى الثاني فتمثله عقيدة خاصة على نحو ما كان الحال عند المصريين القدماء ، إذ كشفت الآثار الملكية أن الملوك كانوا إلى جانب إيمانهم ببعض الآلهة الشعبية كانوا يضعون فوقها جميعاً الإله (اهور مازدا) ومن الطريف أنهم نظروا إلى هذا الإله على أنه ألهاً غير مرئي ، وليس له معبداً خاصاً وإنما كانت جميع الأرض بمثابة معابد له[1] .

وهناك رأي آخر عن الثقافة الفارسية القديمة ، يعتقد أن المراجع التاريخية لا تشير إلى فلسفة خاصة للفرس ، وان كانت الثنائية الفارسية القائلة بالهين : اله الخير واله الشر ، او للنور والظلام - قد اشتقت طريقها إلى النحل الصوفية اليونانية كالأورفية وغيرها ، ومن الممكن أيضا أن نسلم بتسلل بعض الآراء الفارسية إلى الفلسفة اليونانية كفكرة النار المقدسة عند هرقليطس وثنائية أفلاطون بين المحسوس والمعقول أو بين الخير بالذات وعالم الشر أي عالم المحسوسات . ولكن يرجع الفضل إلى اليونانيين في صياغة هذه الافكار في صورة فلسفية محكمة[2] .

١ـ تاريخ إيران القديم حسن بيرنيا ترجمة د.محمد نور الدين عبد المنعم ص١٨٢-١٨٤ ، الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٩٤

٢ـ تاريخ الفكر الفلسفي ، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون د. محمد ابو ريان ص

فإن المجوس دونوا مؤلفات في العدالة ، فضلا عن أنهم كانوا يعتقدون أن إحراق الموتى جثث الموتى ضرب من التجديف ، وقد مارسوا العرافة والتنجيم (التنبؤ بالغيب)، كما أعلنوا أن الآلهة تظهر لهم في صورة متجسدة (مرئية) ، وقالوا كذلك إن الهواء زاخر بالأطياف التي تبدو على هيئة دخان ، وتنفذ إلى أبصار العرافين الثاقبة .

وأيضاً ديوجينيس اللائرتي ينفي أن تكون للفرس نظم فلسفية وما يذكره أن المجوس قد أمضوا جُل وقتهم في عبادة الآلهة وتقديم القرابين إليها ، وفي تلاوة الصلوات والأدعية لها ، الأمر الذي قد يعني أنه لا يوجد أحد سواهم يطيع الأرباب (على هذه الصورة) . ولقد عرض هؤلاء آراءهم عن بداية الوجود وعن أصل الآلهة ، فقالوا عن الوجود إنه من التراب والنار والماء . ثم إنهم ناهضوا استخدام اللوحات المرسومة أو التماثيل ، كما عارضوا بشدة تقسيم الأرباب إلى ذكور وإناث[1] .

الحضارة الفارسية وأثرها الفكري والفلسفي

لقد تأثر بالفرس جميع شعوب الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وشعوب آسيا الأولى ، كما كانوا قد تأثروا بالكلدان وبالأشوريين من قبل ؛ بل إن مصر نفسها ، التي كانت شبه منعزلة ، وكذلك الإمبراطورية المقدونية والإمبراطورية الرومانية التي وصلت حدودها إما

---

٢٨ ، مع الفلسفة اليونانية د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص٦١

١-حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٣٢-٣٣

إلى الفرات وإما إلى البارت ، قد تأثرت جميعها بها . والساميون أنفسهم ، الذين كانوا يعتدون بمقامهم ، ظهروا بمظهر الضعف بجانب جيرانهم الأقوياء الشكيمة . أما اليونانيون فقد دافعوا عن أنفسهم بنجاح ، ثم هدموا الأمبراطورية الأشمينيدية ونقلوا إليها ثقافتهم ، لكن تلك الثقافة بالذات كانت مستقاة من آثار ما بين النهرين إلى حد كبير . وبيزنطة ، بفنونها وتفكيرها ، قد مزجت المثل العليا الإيرانية بالتقاليد الإغريقية[١] .

ويعلل لنا بعض الباحثين أسباب أفتقارنا للمعلومات الكافية عن التراث الفارسي الإيراني ، ويعزو ذلك لعدم وجود أبحاث نقدية أو بيانات تاريخية . فأقدم وثيقة وجدت في أجزائها القديمة مشابهات في اللغة أو تجانس في الروح مع الفيدا الهندية تؤكد في مجموعها أنها عمل من أعمال القرن الثالث ب . م ، أي بعد مضي ١٥٠٠ عاماً عما كان يجب أن تكون عليه ، فمن الصعب إذن التمييز بين ما هو معاصر للفيدا وما يرجع إلى عصور أحدث ؛ لأنه من العسير بمكان الاستناد إلى نصوص حديثة نسبياً ، تشتمل على بيانات قديمة معبر عنها بلغة أحدث عهداً . وعليه ، فإننا نجد الأفستا لا تمدنا بمعلومات إلا بأجزائها الحديثة العهد ، وأن النصوص القديمة أو الجاتا تشير إلى إصلاح في الدين السابق . وفضلاً عن هذا ، فأن الأفستا من المؤلفات المعقدة الغامضة والعسرة الفهم والمجدبة إلى حد كبير .

وفوق هذا ، فما ذكره المؤرخون الإغريق عن الفرس القدماء لا

١ـ الفلسفة في الشرق بول ماسون – أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٩١

يتناسق بسهولة ومعلومات الأفستا ، ولا يمدنا إلا بأضواء متخالفة . لقد عاش هيرودوت وسترابون وبلوتارك في عصور مختلفة ، وشاهدوا حوادث واطلعوا على أسانيد غير متصل بعضها ببعض اتصالاً مباشراً . ولم يتجه الرأي إلى التمييز بين هذا وذاك ، وما كان ذلك ضرورياً ، إلا منذ عهد قريب جداً ؛ وإلى هذا الوقت نجد المفسرين حاولوا استعراض الأمور استعراضاً نظرياً ، وعمدوا إلى تبسيط الحقائق ، وهذا ما أدى إلى فكرة أولية وخاطئة في آن واحد عن العقلية الفارسية : وهذه الفكرة هي أسطورة لدين واحد متماسك[١] .

ورغم الصمود اليوناني أمام المد الفارسي فإن التشابه بين النصوص الفارسية والنصوص اليونانية ، ولاسيما التقارب بين الفكر الزرادشتي وبين فلاسفة اليونان وخاصة أفلاطون ؛ فقد كان الحكيم الفارسي من بين كل أبناء آسيا - على حد تعبير أحد الباحثين - الأول الذي تبنته أوربا حيث وصلت عقيدته إلى اليونان قبل أربعة قرون من المسيحية ؛ اذ كان - كما قلنا - معروفاً لأفلاطون وكان يعني بالنسبة له الكثير . مما جعل يودكسوس الكندوسي معاصر أفلاطون وتلميذه يقوم بمقارنة فلسفة أستاذه بفلسفة زرادشت[٢] .

ولا يقتصر التأثير الفارسي على حدود فلسفة أفلاطون ، فإننا نجد تأثر

١ـ الفلسفة في الشرق بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٩٢-٩٣

٢ـ انظر : ترانيم زرادشت دوشن جيلمان مقدمة ترجمته الإنجليزية نقله إلى العربية د. فيليب عطية ص٧ - ٨

الفيثاغورية بعقيدة الثنائية ، سواء كان انتقالها بشكل مباشر أو غير مباشر ، مما دعى جثري إلى أن يفرد فقرة مستقلة يقارن فيها بين الفيثاغورية والدين الفارسي . وهو يبدأ بالتأكيد على وجود عناصر شرقية عديدة في الفلسفة الفيثاغورية وصلتها الوثيقة ليس فقط بفارس بل أيضا بالهند وحتى الصين[١] .

وقد انتقل هذا التردد بين الاعتقاد بالثنائية أو تجاوزها لصالح الاعتقاد بأن الحقيقة واحدة خلفها فيثاغورس إلى أفلاطون[٢] ولما كان أفلاطون قد نص صراحة على اعجابة بزرادشت ، فإنه كان أقرب أليه بأفكاره ، وأقرب إلى الأخذ عنه فلنقرأ هذا النص لزرادشت حيث يقول :

هو الذي في البدء ، بواسطة العقل قد ملأ السماوات المباركة بالضياء.

هو الذي خلق الحق تبعاً لمشيئته .

أنت ، أيها الرب الحكيم الذي زدته بروحك .

الكائنة الآن كواحد معك . أيها الرب .

بواسطة العقل ، أيها الحكيم قد عرفتك كأول وآخر .

١ـ Guthrin (W . K . C) : A History of Greek Philosophy , Vol. I,P . ٢٥١

نقلاً عن المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص١١٢ وهو يبرز هذه الصلات الفكرية من خلال النظر في لائحة الأضداد الثنائية الصينية التي تبدأ بثنائية اليانج والين ومدى تشابهها بلائحة الأضداد الثنائية الفيثاغورية التي ترد فيها مقابل تلك الثنائية الصينية ثنائية الذكر والأنثى .

٢ـ ترانيم زرادشت دوشن جيلمان ترجمة د. فيليب عطية ص٢٠

كأب للعقل الخير

عندما أدركتك بعيني كخالق صادق للحق

كسيد في أفعال الوجود .

إن من يقرأ هذا النصوص ويقارن بينها عند الفيلسوفين سيدرك مدى الأثر الذي تركه زرادشت على أفلاطون ويدرك أنهما يؤمنان معاً بأن الاله هو (الخير) ، وأن معرفته بالعقل عند زرادشت ، وبما يجاوز العقل (أي بالحدس) عند أفلاطون ، إنما تعني المعرفة بالحق وبخالق الحق ، إنها تعني اذن معرفة حقيقة الوجود من معرفة سيد الوجود بتعبير زرادشت ، أو معرفة حقيقة الوجود من معرفة ما يفوق الوجود قوة وجلالاً بتعبير أفلاطون[1] .

ومن يقرأ الكتاب العاشر من محاورة (القوانين) لأفلاطون يحس بما لا يدع مجالاً للشك أنه قد كتبه بهذه الروح الزرادشتية ، حيث نجده يؤكد على ضرورة الإيمان بالإله الواحد - الخير وعدم الالتفات إلى الشر . وبناء عليه يرى ضرورة أن يأتي التشريع موافقاً للروح الخيرة التي ينبغي ان تسود العالم حتى تنهزم الروح الشريرة التي تحاول جر الناس إلى عدم الإيمان بالله وإلى ممارسة الرذيلة وفعل الشر ، وقد صدق شارل فرنر حينما قال بوضوح : «إن هذه النظرية لأفلاطون مأخوذة من زرادشت دون شك»[2] .

١ـ أنظر : أنظر : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص١١٤ -١١٥ ، الجمهورية أفلاطون ص٤١٣

٢ـ الفلسفة اليونانية شارل فرنر ترجمة تيسير شيخ الأرض ص٢٥

ولعمق الأثر الزرادشتي في الفكر اليوناني ، سنقتصر في هذا الفصل على بيان أهم المفاصل الفكرية والفلسفية للديانة الزرادشتية .

زرادشت والديانة الزرادشتية

لقد ظلت تلك العقيدة السابقة قائمة ولها كهنتها وسحرتها إلى أن جاء زرادشت وبشر بعقيدته الجديدة .

وقد أحاط الغموض أحداث حياة زرادشت التي تروى عادة كأسطورة اختفت فيها إلى حد كبير معالم شخصية زرادشت نفسه ، فمنذ البداية لا يستطيع أحد تحديد التاريخ الحقيقي لمولده أو لوفاته ؛ فالمؤرخون اليونان واللاتين يرجعون تاريخ مولده إلى أقدم الأزمنة فنجد مثلا أن بلينوس يؤكد معتمداً في ذلك على أرسطو أن زرادشت كان على قيد الحياة قبل وفاة أفلاطون بستة ألاف سنة ، بينما يرى بلوتارخ أنه كان يعيش قبل حرب طروادة بخمسة آلاف عام[(١)] .

بينما نجد بيروسوس المؤرخ البابلي الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد قد تمسك بالرأي القائل بأنه عاش حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد[(٢)] . وهناك من يرون أنه عاش فيما بين القرن العاشر والقرن الثامن قبل الميلاد[(٣)] وبين كل تلك الروايات المتضاربة اتفق في النهاية على أن يؤرخ له بصورة

١ـ أنظر : الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ص١٠

٢ـ فلاسفة الشرق توملين ص١٤٥

٣ـ الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب ص١٨٥

تقليدية بأنه قد عاش فيما بين عامى ٦٦٠ و ٥٨٣ قبل الميلاد[١].

أما قصة حياته وأحداثها فقد رويت في جميع المصادر بنفس الطريقة الأسطورية التي تصوره في صورة غير الصورة التي عهدناها عن الكائنات البشرية حيث تلقفته عناية الآلهة منذ حمل أمه به وحتى مولده وصباه وتلقيه الوحي وحمته في كل الأحوال من تربص آلهة الشر به ومن مؤامرات أعدائه[٢].

يُخبرنا دينون في الجزء الخامس من مؤلفه التاريخي، أن اسم (زرادشت) - لو أننا فسرناه تفسيراً حرفياً - يعني: (عابد النجوم) ويوافقه هرمودوروس على ذلك. أما أرسطو فيقول في الجزء الأول من كتابه عن الفلسفة إن (المجوس) أقدم من المصريين، ثم يضيف الى ذلك أنهم يؤمنون بمبدأين: الروح الخير والروح الشرير، وأن المبدأ الأول يسمى (زيوس) أو (أهورا مازدا)، وأن المبدأ الثاني يُسمى (هاديس) أو (أريمانيوس)[٣].

١ـ الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ص١١، الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٩٥

٢ـ أنظر: المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص١٠٨ -١٠٩، الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ص١١-٤٠

٣ـ حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ج١ ص٣٤ ويضيف أيضا: وهذا هو ما أكده (هرميبوس) في كتابه الأول عن السحرة، وكذلك إيودوكسوس في كتابه (رحلة الطواف حول العالم)، وكذا (ثيوبومبوس) في الجزء الثامن من كتابه (الفيلبيات).

ولنتعرف على ترويه الأقاصيص الفارسية عن حياة زرادشت : أن نبياً عظيماً ظهر في إيريانا- فيجو ، «موطن الآريين» القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه يسميه زرثسترا . ولكن اليونان لم يكونوا يطيقون هجاء «البرابرة» أسموه زروسترز . وقد حملت به أمه حملاً إلهياً قدسياً : ذلك أن الملاك الذي كان يرعاه تسرب إلى نبات الهَوْما ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة . وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب متناسقة في الشرف . وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع ، فنشأ زرثسترا من هذا المزيج . فلما ولد قهقه عالياً من أول يوم ولد فيه ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التي تجتمع حول كل كائن ، وهي مضطربة وجلة . وأحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش في برية جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغويه ولكنه أخفق . وشق صدره بطعنة سيف وملئت أحشاؤها بالرصاص المنصهر ، فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكا بإيمانه (بأهورا- مزدا) رب النور الإله الأعظم . وتجلى له أهورا- مزدا ووضع في يديه الأبستاق أي كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه . وظل العالم كله زمناً طويلاً يسخر منه ويضطهده ، حتى سمعه أخيراً أمير إيراني عظيم يدعى فشتشبا أو هستبس ، فأعجبه ما سمع ، ووعده أن ينشر الدين الجديد بين شعبه ، وهكذا ولد الدين الزردشتي . وعمر زرثسترا نفسه طويلاً ، حتى أحرقه وميض برق وصعد إلى السماء .

يقول ول ديورانت : «ولسنا نعرف ما في هذه القصة من حق وما فيها

من باطل . ولعل يوشع كيوشع بنى إسرائيل هو الذي كشف هذا النبي ، ولكن اليونان صدقوا أن زرثسترا هذا كان شخصية تاريخية حقة وشرفوه بأن حددوا له تاريخاً يسبق تاريخهم بخمسة آلاف وخمسمائة عام .

ويقرب بروس البابلي هذا التاريخ إلى عام ٢٠٠٠ ق. م . أما من يؤمن بوجوده من المؤرخين المحدثين فيحددون تاريخه فيما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد. ولما ظهر بين أسلاف الميديين والفرس ، وجد بني وطنه يعبدون الحيوانات كما يعبدون أسلافهم ، ويعبدون الأرض والشمس ، وأن لهم دينا يتفق في كثير من عناصره وآلهته مع دين الهندوس في العهد الفيدي»[١] .

وعلى كل حال فإن ما يعنينا هو التساؤل عن التعاليم الزرادشتية ومصدرها ؟ أما مصدرها فهو كتاب (الزند أفستا) ZendAvesta وهو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين وقد أصطلح على ترجمة Avesta بالأبستاق في العربية[٢] وقد فقدت النصوص الأصلية لهذا الكتاب بعد غزو الأسكندر لفارس عام ٣٣٠ ق . م . ثم أُعيد تجميع ما تبقى منها في أذهان الناس وتم تدوينه جميعاً في حوالي القرن الخامس الميلادي[٣] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول ص٤٢٥ ، هكذا تكلم زرادشت فردريك نيتشه ترجمة فليكس فارس ص٦

٢ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفرى بارندر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام هامش للمترجم ص١١٧

٣ـ أنظر : الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ص١١٧ ، الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب ص ١٨٧ ، زرادشت الحكيم حامد عبد القادر ص٦٢

وكان أكبر الآلهة في الدين السابق للدين الزردشتي مثرا إله الشمس، وأنيتا إلهة الخصب والأرض، وهَوْما الثور المقدس الذي مات ثم بعث حياً، ووهب الجنس البشري دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود. وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهَوْما المسكر وهو عشب ينمو على سفوح جبالهم . وهال زردشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية، وهذه الطقوس الخمرية، فثار على المجوس أي الكهنة الذين يصلون لتلك الآلهة ويقربون لها القرابين، وأعلن في شجاعة لا تقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس في العالم إلا إله واحد هو في بلاده أهورا- مزدا إله النور والسماء، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته. ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً ملهماً لشعبه، ودعامة لحكومته، فشرع منذ تولى الملك يثير حرباً شعواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس، وجعل الزردشتية دين الدولة.

أما التعاليم الزردادشتية فأهمها هو تصور زرادشت للاله (أهورا مازدا) الذي وحد زرادشت بينه وبين الخير توحيداً جعلهما اسمين لمسمى واحد فسبق أفلاطون إلى هذا المزج الفلسفي والأخلاقي العظيم[1] إن هورا مازدا هو الآله الأوحد عند زرادشت، وهو وحده الذي لم يولد ولن يموت، وهو علة العلل وليس له علة، وهو المصدر الأول لجميع الموجودات، وهو روح الأرواح لا يُرى ولا يُنظر رغم وجوده في كل مكان، إنه يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، وهو وحده العالم بكل شيء، يعلم الغيب

١ـ الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب ص١٨٩

ودخائل النفوس ولا يخفى عليه سر من الأسرار وهو القادر على كل شيء رغم مناهضة الشيطان له . إنه خالق الخلق كله والملائكة الأبرار كما خلق الجنة والنار والشمس المشرقة والقمر المنير والنجوم اللامعة والماء والأرض والشجر والدواب والمعادن والناس أجمعين فهو أب الإنسان وخالقه وهو الذي شرفه على كافة المخلوقات بالعقل والبصيرة . ومن ثم فعلى الإنسان أن يعبد خالقه ويطيعه باعتباره منبع كل خير ومصدر كل مجد ونور وسعادة وهو الواهب المعطى الذي يريد الخير دائماً ولا يفكر بالشر أبداً[1] .

ولك أن تقول : «إله زردشت في بادئ الأمر هو» : دائرة السماوات كلها «نفسها . فأهورا مزدا» يكتسي بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباساً له ؛ ... وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، وعيناه هما الشمس والقمر . «ولما أن انتقل الدين في الأيام الأخيرة من الأنبياء إلى الساسة صُوّر الإله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب . وكان بوصفه خالق العالم وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار ، كانت تصور أولا كأنها أشكال وقوى من أشكال الطبيعة وقواها - كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والريح ، والمطر . ولكن أكبر فخر لزردشت أن الصورة التي تصورها لإلهه هي أنه يسمو على كل شيء . وأنه عبَّر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالاً عما

١ـ الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ص٤٤-٤٥ ، انظر : دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٥-٢٦ ، مع الفلسفة اليونانية د. محمد عبدر الرحمن مرحبا ص٦١

جاء في سفر أيوب»[١].

وعلى العكس من هذا الإله الواحد الرحيم الخير الخالق أهورا مازدا، يأتي (أهريمان) Ahriman الشيطان، مصدر كل شرور العالم، فهو المسئول عن الأمراض والموت والتهم والغضب، وكما أن لأهورا مازدا ملائكة أبرار أطهار يساعدونه في نشر الخير والسلام في العالم فكذلك لأهريمان حشوداً من الأرواح الشريرة الشيطانية التي تساعده في نشر الفوضى والشر في العالم[٢].

وبما أن تاريخ العالم سيكون هو تاريخ الصراع بين الآله (أهورا مازدا) والشيطان (أهريمان) فإن على الإنسان أن يختار بين أن يفعل الخير ويتوجه بقلبه وبعقله وبأعماله إلى الآله الخير أو يتجه إلى تلك الديانة الزائفة ويتبع الشيطان في كل تصرفاته، وبحسب اختياره - في نظر زرادشت - يكون مصيره، فقد أدرك الحكيم بثاقب بصيرته أن خيار الناس لا ينالون عادة ما يستحقون من حسن الجزاء في هذه الحياة الدنيا، فتحدث في (الإبستاق) عما سيلقونه من مصير حسن في الحياة الأخرى «فسوف تبتهج نفوس الخيرين في الحياة الثانية الخالدة - كما سيعذب الكاذبون إلى الأبد» . والمؤمن هو الذي يتطلع دائماً إلى مملكة العدل السماوية حيث يعمل الاله على تعويضه عما فاته في حياته الدنيا من لذة وهناء.

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص٤٢٨

٢ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفرى بارندر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص١١٩-١٢٠

فزرادشت يؤمن اذن بمبدأ الثواب والعقاب الأخروى ، كما يؤمن بأن هذا العالم الدنيوى متصل بالعالم الآخر بجسر يسمى (جسر الأنفصال) الذي يمر عليه الأشرار فيرتجفون ويرتعدون من الفزع والخوف مما سيلاقونه من عذاب في جهنم مأوى الأشرار والكذابين ، بينما يمر عليه الأبرار الصالحون المؤمنون وهم مطمئنون إلى مصيرهم الحسن الذي ينتظرهم حيث يستقبلهم أهورا مازدا بعد أن يمروا في وسط العمل الصالح والقول الخير والأفكار الطيبة ويتمتعون في كنفه بالسعادة الأبدية[١] .

وفي أطار هذه الرؤية الدينية ، الفلسفية للإله وللمصير الإنساني يؤمن زرادشت وأتباعه بضرورة أن يحيا الناس حياة اجتماعية مرحة معتدلة يتسق فيها القول مع الفعل ، والفكر مع العمل «فالعمل هو ملح الحياة» لكن خلق الشخصية لا يعبر عنه فقط فيما يفعل المرء أو يقوله رجلا كان أو أمراءة ، بل بأفكارهما . ولابد للناس أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة ، وأن يقهروا الجشع بالرضا ، والغضب بالصفاء والسكينة ، والحسد بالاحسان والصدقات ، والحاجة باليقظة والنزاع بالسلام ، والكذب بالصدق[٢] .

١ـ الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي ٥٠-٥١ ، الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب ١٩٥-١٩٦ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص ١١٠ - ١١١ يقول ديوجينيس أن المجوس يعتقدون أن البشر سوف يحظون بحياة أخرى وأنهم سيكونون خالدين ، وأن الموجودات (الأخرى) سوف تظل باقية بفضل دعواتهم وابتهالاتهم انظر : حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٣٥.

٢ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفرى بارندر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص١٢١ ، مع الفلسفة اليونانية د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص٦٢

لقد نجح زرادشت إلى حد كبير في تنقية العقيدة التقليدية لأبناء وطنه بما قدمه لهم من تأملات ثاقبة حول واحدية الإله وخيريته واستبعاد ألوهية الشر والتركيز على أن الشر مصدره الشيطان وأن ثمة حياة أخرى سيلقى فيها الإنسان الثواب أو العقاب جزاء ما صنعته يداه ، وهذه هي نفس المهمة التي حاول أفلاطون وفلسفته خاصة أنه قد ذكره بالأسم في محاورة (القبيادس) ووصفه بأنه كان عميق الفكر بعيد النظر[١] .

وقد كان هنرى كوربان على حق في قوله : «إن زرادشت كان هو القائم على ذلك التداخل الحضاري المميز للعهد المتأخر من العصور القديمة ، حيث كانت هناك صلات حضارية مستمرة بين أثينا والأوساط الفارسية مما يؤيد النظرة القائلة بأن اللاهوت النظري الأفلاطوني يعد امتداداً لزرادشت»[٢] .

الكتاب المقدس للزرادشتية

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها أصحاب النبي ومريدوه أقواله وأدعيته . وسمى أتباعه المتأخرين هذه الكتب الأبستا (الابستاق) وهي المعروفة عند العالم الغربي باسم الزند- أبستا

١ـ أنظر : تاريخ العلم جورج سارتون ج٣ ص٢١

٢ـ السهروردي المقتول هنرى كوربان ، مقال نشر بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الاسلام ، دار النهضة العربية بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٤م ، ص١٠١ -١٠٢ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص١١١

، بناء على خطأ وقع فيه أحد العلماء المحدثين[١]. ومما يروع القارئ غير الفارسي في هذه الأيام أن يعرف أن المجلدات الضخمة الباقية - وإن كانت أقل كثيراً من كتاب التوراة - ليست إلا جزءاً صغيراً مما أوحاه إلى زرتشترا إلهه.

وهذا الجزء الباقي يبدو للأجنبي الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية، والأناشيد، والأقاصيص، والوصفات، والطقوس الدينية، والقواعد الخلقية، تجلوها في بعض المواضع لغة ذات روعة، وإخلاص حار، وسمو خلقي، أو أغان تنم عن رقي وصلاح. وهي تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره في النفس من نشوة قوية. وفي وسع الدارس أن يجد في بعض أجزائها ما يجده في الرج - فدا من آلهة وآراء، ومن كلمات وتراكيب في بعض الأحيان. وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأبستاق ليست وحياً من عند أهورا- مزدا، بل هي مأخوذة من كتب الفِيدا. ويعثر الإنسان في مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلي قديم، كالفقرات التي تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السماوات، فالماء، فالأرض، فالنبات، فالحيوان، فالإنسان)،

١ـ لقد أضاف أنكتيل - دوبرون (حوالي ١٧٧١ ب. م) زند إلى هذا اللفظ. وليست هذه إلا كاسعة كان الفرس يضعونها قبله للدلالة على أن ما يليها ليس إلا ترجمة أو تفسيراً للأبستاق. أما لفظ أبستاق نفسه فأصله غير معروف على وجه التحقيق، والراجح أنه مشتق من فيد وهو الأصل الآري الذي اشتق منه «فيدا» ومعناه المعرفة . انظر قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٤٢٦.

وتسلسل الناس جميعاً من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على الأرض ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعا إلا قلة صغيرة منهم . ولكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التي تكفي لصبغ الكتاب كله بالصبغة الفارسية العامة . فالفكرة السائدة فيه هي ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه صراع يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله أهور- مزدا والشيطان أهرمان ؛ وأن أفضل الفضائل هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ؛ وأن الموتى يجب أن لا يدفنوا أو يحرقوا ، كما كان يفعل اليونان أو الهنود القذرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة[(١)]

وتروى الرواية الفارسية قصة أبستاق أخرى اكبر من هذه في واحد وعشرين كتابا يسمى وأحدها «النسك» وتقول أن هذه الكتب الأخيرة نفسها ليست جزءً صغيراً من الكتاب المقدس الأصلي ، وأن كتاباً من هذه الكتب وهو الوند داد قد بقي سليماً . أما الكتب الأخرى فلم تبق منها إلا أجزاء مبعثرة في مؤلفات متأخرة كالدنكرد والبندهيش . ويروي مؤرخو العرب أن النص الكامل للكتاب الفارسي المقدس كان يشتمل على ١٢ر٠٠٠ جلد من جلود البقر . وتقول إحدى الروايات الدينية أن الأمير فشتسبا كتب من هذا الكتاب نسختين ، التهمت أحدهما النار حين أحرق الإسكندر القصر الملكي في برسوبوليس ، أما الأخرى فقد أخذها اليونان المنتصرون معهم

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت لجزء الثاني من المجلد الأول ص٤٢٧ - ٤٢٨ ، أنظر : أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية إعداد د. خليل عبد الرحمن ص٧

إلى بلادهم ، فلما ترجموها كانت هي المصدر الذي أخذوا عنه كل معلوماتهم العلمية (كما يقول الثقات من الفرس). فلما كان القرن الثالث بعد الميلاد أمر فلجيس الخامس أحد الملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية أن يجمع كل ما بقي من أجزاء الكتاب المتفرقة المكتوبة منه والباقي في صدور المؤمنين . فاتخذ الكتاب من ذلك الوقت صورته الباقية إلى هذا اليوم ، وكان قانون الزردشتية في القرن الرابع الميلادي ، وأساس الدين الرسمي للدولة الفارسية . ثم عبثت الأيدي مرة أخرى بهذا الكتاب لما فتح المسلمون بلاد الفرس في القرن السابع بعد الميلاد . ويمكن تقسيم القطع الصغيرة الباقية من هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء :

١. اليزنا : وتتألف من خمسة وأربعين فصلاً من الطقوس الدينية التي كان الكهنة الزردشتيون يترنمون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلاً (من الفصل الثامن والعشرين إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث النبي وما أوحي إليه مصوغة في عبارات موزونة كما يظهر .

٢. الوسبرد : ويشتمل على أربعة وعشرين فصلاً أخرى من الطقوس الدينية .

٣. الونديداد : ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً أو فرجوداً ، وهي تشرح فقه الزردشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهي التي تتألف منها الآن شريعة البارسيين الكهنوتية (في الهند) .

٤. اليشت : أي التسبيحات الغنائية ، وهي واحد وعشرون نشيداً في الثناء على الملائكة تتخللها أقاصيص تاريخية ونبوءة عن آخر العالم .

٥. وآخرها الخرد أبستاق: أي الأبستاق الصغيرة وهي صلوات تتلى في مناسبات في الحياة المختلفة[1].

وقد عرف الكُتاب الإغريق القدماء الكثير عن أفستا في الزمان السحيقة، وأثارت الكلمات السحرية الغامضة فيها اهتمامهم وفضولهم، وظهر هذا الاهتمام عند هيرودوت طاليس فيثاغورث، هيراقليطس، أفلاطون، أرسطو، كسينافون وسترابون. وأثرت أفستا تأثيراً في كونيات انكسيماندر، وأخلاقيات أفلاطون، والمؤرخين الرومان، واللاهوتيين المسيحيين [القديس اوغسطين على سبيل المثال لا الحصر] والرحالة الأوروبيين، والباحثين كما بلغ هذا الاهتمام أوجه عند نيتشه وغوته[2].

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول ص٤٢٦ - ٤٢٧

٢ـ أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية إعداد د. خليل عبد الرحمن ص٨

الفصل الرابع

الفلسفة الهندية القديمة

- الأفكار الهندية القديمة
- الفلسفة الهندية في تصورات الغرب
- بداية التفكير الفلسفي الهندي
- اسفار الفيدا
- فلسفة كهنة البراهمة
- الفلسفة البراهمية ومذاهبها الستة
- مذهب النيايا
- مذهب الفايشيشكيا
- مذهب السانخيا
- مذهب اليوغا
- مذهب بيرفا - ميمانسا
- مذهب الافيدانتا
- الفلسفة في اسفار الأوبانيشاد
- مذهب اللوكايتكا
- المذهب الجايني (الجاينية)
- المذهب البوذي (البوذية)
- ولادة بوذا وحياته
- بوذا والفلسفة البوذية

الأفكار الهندية القديمة

ليس ثمة ما يجلل طلب العلم في عصرنا بعارٍ أكثر من حداثة معرفته بالهند ونقص هذه المعرفة ، فهاهنا شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها ما يقرب من مليوني ميل مربع ، فهي ثلثا الولايات المتحدة في مساحتها ، وهي أكبر من بريطانيا العظمى - صاحبة السيادة عليها - عشرين مرة ، [إشارة الى الاحتلال البريطاني للهند انذاك] ويسكنها ثلاثمائة وعشرون مليوناً من الأنفس ، وهو عدد أكبر من سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعتين ، أو هو خُمسُ سكان الأرض جميعاً ، وفيها اتصال عجيب في مراحل تطورها وفي مدنيتها من «موهنجو - دارو» ، سنة ٢٩٠٠ ق. م أو قبل ذلك ، إلى غاندي ورامان وطاغور ، ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود وأكثرها روحانية ، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار «اليوبانشاد» في القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شانكارا في القرن الثامن بعد الميلاد ، ومنها من العلماء الذين تقدموا بالفلك منذ ثلاثة آلاف عام والذين ظفروا بجوائز «نوبل» في عصرنا هذا ، ويسودها دستور ديمقراطي لا نستطيع أن نتعقبه إلى أصوله الأولى في القرى ، كما

سادها في العواصم حكام حكماء خيّرون مثل «أشوكا» و «أكبر» وأنشد لها من الشعراء من تغنى لهم بملاحم عظمى تكاد تعادل هومر في قدم العهد، ومن يستوقف أسماع العالم اليوم، ولها من رجال الفن من شيدوا لها المعابد الجبارة لآلهة الهندوس، تراها منتشرة من التبت إلى سيلان؛ ومن كامبوديا إلى جاوة، أو مَن زخرفوا القصور الرائعة بالعشرات لملوك المغول وملكاتهم - تلك هي الهند التي يفتح لنا أبوابها البحثُ العلمي الدءوب، كأنها قارة عقلية جديدة يفتتحها البحث العلمي أمام العقل الغربي الذي كان بالأمس يظن أن المدنية نتاج أوربي خالص لا يشاركها فيه بلد آخر[١].

ولنستذكر معاً ما قاله المؤرخ إميل برهييه في إن مسألة حدود تاريخ الفلسفة، المرتبطة بمسألة الأصول، لا يمكن لها هي الأخرى أن تحظى بحل دقيق. فمما لا مرية فيه أن بعض أصقاع الشرق الأقصى، وعلى الاخص الهند، عرفت في بعض العصور ازدهاراً حقيقياً للمذاهب الفلسفية[٢].

ولنا إن نتساءل بغرابة أسيكون حقاً للهند فلسفة، وتفكير عقلي محض أم سيؤول الحال فيها كما في الفلسفات العراقية والمصرية القديمتين، فلسفات دينية وأسطورية لا ترتقي لمستوى الفلسفة اليونانية ؟

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٩ - ١٠، حضارات الهند تأليف غوستاف لوبون ص٢٣ - ٢٥

٢ـ تاريخ الفلسفة اميل برهييه ترجمة جورج طرابيشي ج١ ص١١

وقد اتضح لنا أن أصحاب المعجزة اليونانية يميلون كل الميل إلى أن الدراسة التاريخية لمصر القديمة أو بلاد الرافدين قد أثبتت انه لم يكن لدى المصريين أو العراقيين او الشرقيين عامة فلسفة على النسق الذي ابتكره اليونانيون .

ولكن بالنسبة للهند فالأمر يختلف نوعاً ما فإنه إن قيل ان الهنود كانت لديهم فلسفة ، وانهم اثروا في الفلسفة اليونانية وان الفلسفة اليونانية مصدرها الهند ، أو لا أقل مهدت للتفكير الفلسفي اليوناني .

وبتعبير إميل برهييه أن تأثير اليونان على الشرق الأقصى ، وهو ما قام البرهان عليه اليوم في مضمار الفن ، كان في أرجح التقدير قويا للغاية في المضمار الفكري ، وأقوى بكثير من التأثير المعاكس ، أي تأثير الهند على الحضارة الأغريقية . ونظراً الى الشكوك التي تحيط بتواريخ الادب الهندي ، فإن التشابهات بين الفكرين الاغريقي والهندي لا يمكن أن تعين أي الطرفين جاء منه التأثير . ويبدو أنه تحت تأثير الأغريق فقط أمكن للهنود أن يخلعوا على عرض أفكارهم الطابع النسقي والمنظم الذي تحدو بنا عادتنا الفكرية ، الموروثة عن الأغريق ، الى اعتباره مرتبطاً بفكرة الفلسفة بالذات[1] .

١ـ تاريخ الفلسفة إميل برهييه ترجمة جورج طرابيشي ج١ ص١٢ ، يقول بهذا الصدد : على الرغم من هذه الصعاب ، لا يحق لتأريخ الفلسفة أن يتجاهل فكر الشرق الأقصى ؛ ومن ثم ، وعلاوة على إشاراتنا إلى تأثيرات الشرق طرداً مع تظاهرها في الغرب ، طلبنا إلى اختصاصي معروف في الفكر الهندي ، هو في الوقت نفسه فيلسوف ، ب . ماسون -

وهكذا، ورغم التشابه الكبير بين الفلسفات الهندية والفلسفات اليونانية في جوانب عدة، تضافرت الجهود في إقصاء الفلسفة الهندية الشرقية من حيز التفكير العقلي والاستدلال الفلسفي، وإذابة التأثير المتبادل بين الفلسفتين في حجة العجز عن معرفة المؤثر الأول.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ثم إنا نجد تشابهاً كبيراً بين كثير من المذاهب الهندية وبعض المذاهب اليونانية. ومن حيث أننا لا نستطيع تعراف تاريخ هذه الكتب بالدقة وتحديد الزمن الذي وضعت فيه، فإننا لا يمكننا أن نعرف إن كان الفكر الهندي هو الذي أثر في الفكر اليوناني، أم أن العكس هو الصحيح»[(١)].

بل نجد أن البعض يختار قولاً أكثر صرامة إذ يقول بان الفلسفة

اورسيل، أن يكمل هذا التاريخ بعرض لتطور الفلسفة في الشرقين الاوسط والاقصى، أنظر مخطط عام لتاريخ للفلسفة الهندية باريس ١٩٢٣ماسون - اورسيل، وأيضا مساهمته في الهند القديمة والحضارة الهندية ١٩٣٣. راجع اولترامار: تاريخ الافكار التيوصوفية في الهند.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن (ماسون - أورسيل) يذهب إلى أن التفكير الفلسفي لم يبدأ باليونان، وانه ليس وقفاً على الغرب وحده، بل أن الغرب مسبوق في هذه الناحية بالشرق. كما يقرر صراحة أنه ليس الآن من يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربا في العصور الوسطى والحديثة، هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي؛ ففي جهات أخرى من الإنسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد، وظهرت أشعتها جلياً في شتى الأنحاء انظر: الفلسفة في الشرق بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص٥ (كلمة المترجم)

١- ربيع الفكر اليوناني د. عبد الرحمن بدوي ص١١

الهندية نفسها قد ازدهرت بفضل الفلسفة اليونانية بعد فتوح الاسكندر الاكبر ، وقد ظهرت المذاهب الهندية بالفعل في وقت متأخر عن مذاهب الفلسفة اليونانية ولسنا نقصد ما بالفلسفة الهندية تصوف اليوبانيشاد والبوذية، على الرغم من أن الفلسفة الهندية تأثرت بهما أبلغ تأثر .

ولذا نجدُ بعض الباحثين يصفُ الحالة بالنسبة للهند اكثر مدعاة للشك فالأراء قد تختلف عما اذا كان للهند فلسفة أصلاً . أن الاوبانيشاد تحتوي على تفكير ديني - فلسفي من نوع ما . وبعد هذا تكونت لدينا ما يسمى بمدارس الفلسفة . ثم يذكر الاسباب التي تدعو الى عدم ادراج هذا التفكير الهندي عادة في تواريخ الفلسفة وإليك ما ذكروه :

أولاً : الفلسفة في الهند لم تفصل نفسها أطلاقاً من الاحتياجات الدينية والعملية ونادراً ما نجد المعرفة المثالية في حد ذاتها فالمعرفة مرغوبة لا لشيء سوى أن وسيلة للخلاص . يقول أرسطو أن الفلسفة والعلم جذورهما في الدهشة - الرغبة في المعرفة والفهم من أجل المعرفة والفهم في ذاتهما . غير أن جذور التفكير الهندي قائم في قلق الفرد للخلاص من شرور الوجود ومصائبه . وهذا ليست بالروح العلمية بل الروح العملية ، وهي السبب في مولد الاديان لا الفلسفات . وبطبيعة الحال من الخطأ تصور أن الفلسفة والدين منفصلان كلياً ولا يوجد أساس مشترك بينهما ، فهما في الواقع على صلة قربى أساساً لكنهما أيضاً متمايزان وربما كانت أصدق نظرة إليهما هي أنهما متماثلان في الجوهر ومختلفان في الشكل فجوهرهما هو الحقيقة المطلقة وعلاقة جميع الاشياء بما في ذلك الإنسان - بتلك الحقيقة المطلقة . ولكن بينما تعرض الفلسفة هذا الموضوع على نحو علمي على

شكل تفكير خالص فإن الدين يعرضه على شكل صور حسية وأساطير وصور خيالية ورموز .

ثانياً : السبب الثاني الذي يجعل التفكير الهندي يصنف على نحو أفضل على أنه تفكير ديني أكثر منه تفكيراً فلسفياً ، فإن هذا التفكير نادراً ما يرتفع أو لا يرتفع أطلاقاً من التفكير الحسي الى التفكير المحض . أنه تفكير شاعري أكثر منه تفكيراً علمياً . أنه تفكير قانع بالرموز والاستعارات بدلا من التفسيرات العقلانية وكل هذا علامة على العرض الديني - لا الفلسفي - عن الحقيقة . مثلا التفكير الرئيسي في الاوبانيشاد هو أن الكون كله مستمد من كائن واحد لا يتغير خالد لا متناه يسمى (برهمان) أو (باراماتمان) ، وعندما نصل إلى المسألة الحاسمة وهي كيف ظهر الكون من هذا الكائن نجد عبارة على هذا النحو : (على غرار ظهور الالوان في الشعلة أو الحديد المحمى من الشيء الكامن المطوي آلاف الطيات كذلك جميع الأشياء تظهر من (اللامتغير) وتعود إليه ثانية أو مرة آخرى : (كما أن النسيج يصدر عن العنكبوت وكما تنطلق الشرارات الصغيرة من النار نكذلك من النفس الواحدة تنطلق كل الحيوانات الحية وكل العوالم وكل الآلهة وكل الكائنات) . أن هناك آلافاً من أمثال هذه العبارات في الأوبانيشاد . ولكنه واضح أن هذه العبارات لا تفسر شيئاً ولا تحاول أن تفسر شيئاً ، فهي ليست سوى كنايات او تشبيهات ضحلة أنها صور شاعرية أكثر منها تفكيراً علمياً وهي قد تشبه الخيال والمشاعر الدينية لكنها لا تشبه

الفهم العقلي[(١)] .

والذي يبدو لنا أن ولتر ستيس نفسه غير مقتنع بما أورده من أسباب لأزاحة التفكير الهندي عن دائرة الفكر الفلسفي إذ يذكر لنا سبباً أخر في غاية الغرابة حيث يقول : وأخيراً ، يستبعد التفكير الهندي عادة من تاريخ الفلسفة لأن هذا التفكير - مهما تكن طبيعته - قائم خارج التيار الرئيسي للتطور الانساني ، فهو يستبعد بسبب وجود حواجز جغرافية أو غيرها وبالتالي مهما تكن قيمته في حد ذاته فإنه لم يمارس الا تأثيراً واهناً على الفلسفة بصورة عامة[(٢)] .

ولا يخفى عليك غرابة ذلك ، فإن الكلام في أصل ونشأة التفكير الفلسفي وبداياته الأولى بغض النظر عن طبيعة المكان الذي نشأ وولد فيه وعوامله الجغرافية او مدى تأثره بالدين وتلبس الاسطورة فيه .

وكذلك رفض هيجل في كتابه (تاريخ الفلسفة) ، الفلسفة الهندية ، على نحو مقتضب وفظ إلى حد ما ، على أساس انها تتحد في هوية واحدة مع الديانة الهندية . وعلى الرغم من أنه وافق على وجود أفكار فلسفية عندهم إلا أنه ذهب إلى أنها لم تأخذ شكل الفكر ، بل صيغت في أشكال

١- تاريخ الفلسفة اليونانية ولتر ستيس ص٢٣-٢٤ ، حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٣٣ ولا يخفى عليك أن هذا ليس بتام إذ كثيرا من الفلسفات اليونانية كانت ذات طابع ديني فنجدُ فيها تصورات لربة الشعر وإفاضة الإله العلم والمعرفة على مبعوثيها ، وتمحض بعضها بالتناسخ والبعث ، وغير ذلك من الأفكار الدينية .

٢- تاريخ الفلسفة اليونانية ولتر ستيس ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ص٢٥

رمزية وشعرية ، وكان لها ، مثل الدين ، أغراض عملية هي تخليص الناس مما في الحياة من شقاء وأوهام بدلاً من أن يكون هدفها المعرفة لذاتها .

ودون أن يلزم المرء نفسه بالأخذ بوجهة نظر هيجل عن الفلسفة الهندية ، فيكن للمرء أن يتفق معه على أن الفلسفة اليونانية منذ الفكرة الأولى كانت تبحث بروح علمي حر . وربما مالت عند بعضهم إلى أن تأخذ مكان الدين : سواء من وجهة نظر الأيمان أو السلوك . ومع هذا فإن ذلك كان يرجع إلى عدم كفاية الديانة اليونانية أكثر منه إلى أي طابع أسطوري أو غيبي في الفلسفة اليونانية[1] .

وفي قبال هذا الاتجاه ، يكفي لنا أن نرجع إلى ما انتهت إليه بحوث المتخصصين في تراث الهند الفكري فنجد الفلسفة في قصائد اليوبانيشاد منظومة في تاريخ يرجع إلى ما قبل القرن الثامن للميلادي ثم نجد كيف تطور الفكر الفلسفي في الهند على مدى قرون طويلة أنتهت إلى ظهور مذاهب فلسفية متعددة ومختلفة الاتجاهات فقد تمثل المذهب المادي في فلسفة الكارفاكا Carvaka وعبرت فلسفة السانكيا Sankhya عن الثنائية القائلة بمبدئين أحدهما روحاني والآخر مادي ومن هذه المذاهب أيضاً البوذية Buddbism والجانيزم Jainism[2].

وهكذا يتفق مؤرخو الحضارات الشرقية القديمة أن الهند أغزر بلاد

١ـ موسوعة تاريخ الفلسفة المجلد الأول اليونان والرومان فردريك كوبلستون ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٤٧

٢ـ الفلسفة اليونانية تأريخها ومشكلاتها د. أميرة حلمي مطر ص٢٧

الشرق القديم ابداعاً في مجال الفكر الفلسفي ، فالفلسفة الهندية ظهرت وتطورت في ظل عدة مذاهب ومدارس فلسفية جعلت عملية دراستها مسألة معقدة للغاية وذلك لتنوع هذه المذاهب وكثرة الكتابات والشخصيات التي تمثلها[١] .

وعلى كل حال تَزْخَرُ الهند بتراث طويل وثَرِيّ ومتنوع من الفكر الفلسفي يمتدُّ لما يقرب من ألفيتين ونصف الألفية ، ويتضمَّن العديد من التقاليد الدينية الكبرى . ويحظى الدين في السياق الفلسفي بأهمية كبيرة ؛ لأن العادة في الهند جَرَت على اعتقاد أن دور الفلسفة - أو بالأحرى محاولة فهم طبيعة ما يركز المرء عليه - يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالمصير الشخصي للفرد ؛ ومن ثَمَّ فإن الفلسفة لا تُعتبر نشاطًا فكريًّا احترافيًّا يمكن ممارسته في نهاية يوم العمل ، بل محاولة لفهم الطبيعة الحقيقية للواقع باعتبارها مطلبًا داخليًّا روحيًّا . ويمكن القول إن ما يُطلِق عليهما الغربيون الدينَ والفلسفةَ يجتمعان في الهند في محاولات الأشخاص فهمَ معنى وتركيبة الحياة بالمعنى الأوسع . وتشبه هذه المحاولات طريقة سقراط أكثر مما تشبه الدين بصفته إيمانًا بالوحي ، وأكثر مما تشبه الفلسفة بصفتها مادة أكاديمية[٢] .

وتُعنى الفلسفة في الهند بالسعي إلى فهم طبيعة الحقيقة . علاوة على

١- أنظر : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مطصفى النشار ص٩٣

٢- الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار ص١٣ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢١١

ذلك ، فالهدف من القيام بذلك هو اعتقاد أنَّ فهم الحقيقة له أثرٌ عميقٌ على مصير الفرد . ويُعد هذا الهدف سوتريولوجيًّا على نحو مباشر بالنسبة للبعض، بينما يراه البعض الآخر غيرَ ذي صلةٍ بالسوتريولوجيا ، لكنه بالنسبة للجميع مهمة روحية ونشاطٌ مرتبط بالتراث الديني . وفي واقع الأمر ، فإن الفصل الذي نتحدَّث عنه بين الدين والفلسفة لم يكن مفهومًا في الهند حتى الفترات الأخيرة ، عندما بدأت الإرساليات الغربية وبدأ الأكاديميون الغربيون في الفصل الجبري بين السمات المختلفة للموروثات الهندية من أجل أن تصبح مقبولة على نحو أيسر ضمنَ إطارِ التصوُّرِ الغربي[١] .

ولذا مما ينبغي التأكيد عليه أنه عند تناوُل أصول وتطوُّر التراث الفلسفي الهندي ، يحتاج المرء إلى فهمِ دورِ الفلسفة بقدرٍ أكبر بمعناها التقليدي أو الأصلي ، كما ذكرنا في السابق ، بدلًا مما أصبح مفهومًا عنها في العصر الحديث .

١ـ الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار ص١٨ أن الفلسفة الهندية فلسفة روحية في المقام الأول وذلك رغم وجود الاتجاه المادي في هذه الفلسفة منذ ظهورها فيما يسمى بمرحلة الفيدا (بين عامي ٢٥٠٠ - و٦٠٠ ق . م) وخاصة في رج فيدا RIG VEDA الذي بدأ فيه الشك في وجود الالهة والنظر إلى المادة على أنها كل شيء ، فمنها وجدت كل الأشياء وإليها تعود ، إن الفلسفة الهندية تحاول التعرف على طبيعة الإنسان الروحية وتهتم بمصيره الروحي . ومن ثم فقد ارتبطت هذه الفلسفة في عمومها بالدين على اعتبار أن دافعهما واحد هو رسم الطريق الروحي للحياة وخلاص الإنسان في علاقته بالعالم والكون ، أنظر : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د.مصطفى النشار ص٩٣.

الفلسفة الهندية في تصورات الغرب

في العهد الذي كان المؤرخون فيه يفترضون أن التاريخ قد بدأ سَيْره باليونان، آمنت أوربا إيماناً اغتبطت له، بأن الهند قد كانت مباءة وحشية حتى هاجر إليها «الآريون» أبناء أعمام الأوربيين، هاجروا من شُطئان بحر قزوين ليحملوا معهم الفنون والعلوم إلى شبه جزيرة وحشية يكتنفها ظلام الليل، لكن الأبحاث الحديثة قد أفسدت هذه الصورة الممتعة - كما ستغير أبحاث المستقبل من الصورة التي نرسمها على هذه الصفحات، ففي الهند - كما سائر أقطار الأرض - بدايات المدنية دفينة تحت الثرى، ويستحيل على فؤوس البحث الأثري كلها أن تستخرجها جميعاً، فبقايا العصر الحجري القديم تملأ خزانات كثيرة في متاحف كلكتا ومِدْرَاسْ وبمباي، كما وجدت أشياء من العصر الحجري الحديث في كل دولة تقريباً، ومع ذلك فقد كانت هذه ثقافات لم تصبح بعد مدنية .

وفي سنة ١٩٢٤م ارتجت دنيا العلم الجديد مرة أخري بأنباء جاءتها من الهند، إذ أعلن «سير جون مارشال» أن أعوانه الهنود - وبصفة خاصة «ر. د. بانرجي» ـ قد اكتشفوا عند «موهنجو - دارو» على الضفة الغربية من السند الأدنى - آثاراً من مدنية يبدو أنها أقدم عهداً من أية مدنية أخري يعرفها المؤرخون، فهنالك - كما في «هارابا» على بعد بضع مئات من الأميال ناحية الشمال - أزيلت طبقة من الأرض عن أربع مدن أو خمس بعضها فوق بعض طبقات، فيها مئات من المنازل والدكاكين بنيت بالآجر بناء متيناً، واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً وحارات ضيقة حيناً آخر

، وترتفع حالات كثيرة عدة طبقات ، ولنترك « سير جون » يحدثنا عن تقديره لعمر هذه الآثار .

«تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية بالغة الرقي، في السند (وهو إقليم في «رئاسة بمباي» يقع في أعلى الشمال) والبنجاب خلال الألف الرابعة والثالثة من السنين قبل الميلاد ، ووجود آبار وحمامات ونظام دقيق للصرف في كثير من هذه المنازل ، يدل على حالة اجتماعية في حياة أهل تلك المدن تساوي على الأقل ما وجدناه في« سومر » ، وتفوق ما كان سائداً في العصر نفسه في بابل ومصر .. وحتى «أور» لا تضارع بمنازلها من حيث البناء ، منازل موهنجو- دارو»(١) .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص١٥ – ١٦ وتنهض الدلائل على أن «موهنجو- دارو» كانت في ذروتها حين شيد خوفو الهرم الأكبر ، وعلى أنها كانت تتصل مع سومر وبابل (١)بصلات تجارية ودينية وفنية، وأنها ظلت قائمة أكثر من ثلاثة آلاف عام، حتى كان القرن الثالث قبل الميلاد ، هذه الصلات يدل عليها ما وجدناه من أختام متشابهة في موهنجو- دارو وفي سومر (خصوصاً عند كيش) كما يدل عليها ظهور «الناجا» أي الثعبان ذي الغطاء، بين الآثار القديمة فيما بين النهرين ، وفي سنة ١٩٣٢ كشف الدكتور هنري فرانكفورت بين آثار وجدها في قرية «بابلية عيلامية» وهي ما يسمى الآن «بتل أسمر» (بالقرب من بغداد)، كشف عن أختام وخرزات خزفية هي في رأيه (ويوافقه سير جون مارشال) قد جاءتها من موهنجو- دارو حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. ويعتقد «ماكدونل» أن هذه المدنية العجيبة قد استمدت أصولها من سومر وأما «هول» فيرى أن السومريين قد نقلوا ثقافتهم عن الهند ، ورأي « وولي» هو أن الثقافتين السومرية والهندوسية القديمة قد جاءتا معاً من أصل مشترك وثقافة مشتركة في بلوخستان أو بالقرب منها ، وأما ول ديورانت يقول : «ولسنا نستطيع

ولذلك يُحدثنا هيغل بإن الأمر مختلف في الهند، فالهند كبلد كانت شهرته العريقة جداً قد وصلت إلى الإغريق وكان الاغارقة يعرفون الفلاسفة الهنادكة بوصفهم أرباب طرق صوفية نعني كطبقة من الناس الأطهار اذا كان يمكننا ان نسميهم بهذه التسمية - فهم معروف في الهند باسم الفقراء - لأن هؤلاء الأشخاص يكرسون انفسهم بحياة تأملية، فيبتعدون عن الحياة الخارجية ويعيشون حياة التشرد اما فرادى واما جماعات. انهم يشبهون اتباع المذهب الكلبي في اليونان والرهبان المتسولين في المسيحية. أنهم يتخلون عن الامور الخارجية، عن كافة الحاجات، وبوجه عام عن كل الشروط التي تجعل الإنسان يعود الى الواقع. إن هؤلاء الصوفيين كانوا معروفين اذن في اليونان[1].

وأما بشأن الفلسفة الهندية فيقول هيغل: «واذا جعلنا الفلسفة تمثل في هذا التجريد للعلاقات الخارجية، فقد كانوا فلاسفة بلا ريب. زد على ذلك أن هذا التجريد هو سمة اساسية يجب علينا إبرازها لدى الهنادكة. فإذا كان التجريد عند الصينيين قائماً فيما يتعدى ديانتهم تحديداً لأن صميم هذه الديانة فقير جداً، فإننا نصادف الحالة المعاكسة لدى الهنادكة. فمن جهة

الجزم برأي فيما إذا كانت «موهنجو-دارو» تمثل أقدم ما كشف عنه الإنسان من مدنيات، كما يعتقد «مارشال»، لكن إخراج ما تكنه الهند في جوفها قد بدأ أمس القريب، فالبحث الأثري لم ينتقل من مصر عبر الجزيرة إلى الهند، إلا في حياتنا، فلما نكنت تربة الهند كما فعلنا بتربة مصر، فربما نجد هناك مدنية أقدم من المدنية التي ازدهرت من غرين النيل». أنظر ص١٧ -١٨.

١ـ محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة خليل أحمد خليل ص٢٤٥-٢٤٦

هناك حقاً تعارض بين الدين والفلسفة من حيث الشكل ، ولكن من جهة ثانية للدين والفلسفة الهندوكيين الغاية نفسها ، فهما يبذلان جهودهما في سبيل المخرج ذاته . يتجلى لدى الهنادكة هذا الحال وهو أن الفلسفة تفصل التمثل وتكوين الخيال عن الدين ، وانها تسعى لفهم العبادة بالفكر ... وأجمالا نرى الفلسفة هنا متماهية مع الدين فليس لهما سوى اساس مشترك ...»[1] .

هكذا يصور لنا هيغل وغيره التراث الفلسفي الهندي ، فيوسمون لنا الفلسفة الهندية بسمة الدين ، ولم يقتصر ذلك الأمر على الفلسفة الهندية وحدها بل شمل الفلسفة العراقية والمصرية القديمتين - كما عرفت سابقا - ولآ بأس هنا أن نتعرف على أسباب ذلك ، ونرى السر في تسمية الفلسفة الشرقية بالفلسفة الدينية ولا سيما الهندية منها ؟

يرى بعض الباحثين أنه : ربما بسبب التداخل بين الفلسفة والدين في الهند يُوجد ميلٌ في الغرب إلى اعتبار الفكر الهندي « صوفيًا » بل « سحريًا »، على النقيض من « عقلانية » الغرب ، وهذا خطأ ؛ فهذه النظرة جاءت من إضفاء صورة خيالية على الأنظمة الفكرية التي نشأت في مكان آخر وقدَّمت نفسها على نحو مختلف ، فضلًا عن نعتِ كلِّ ما هو غيرُ مألوفٍ بالغرابة والشذوذ . ويُوجد في واقع الأمر تراثٌ قويٌّ من النقاش العقلاني في الهند ، وكان هذا التراث مهمًّا لمناصري الأنظمة الفكرية

١ـ محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة خليل أحمد خليل ص٢٤٦

المتعددة في الهند مثلما كان مهمًّا لفلاسفة الغرب الكبار[1] .

ولتوضيح هذه الفكرة المعارضة لتوجهات بعض المفكرين الغربيين نقول :

عندما يتناول الغربيُّون التراثَ الهنديَّ لأول مرة ، سواء أكان مقصدهم دينيًّا في الأساس أم فلسفيًّا ، فإنهم يواجهون مشكلتين متساويتين ومتناقضتين :

المشكلة الأولى : تتمثل الأولى في إيجادِ شيءٍ قابل للإدراك وسط هذه التعددية المحيرة على نحو واضح .

المشكلة الثانية : وتتمثل المشكلة الثانية في عدمِ فرضٍ مثلٍ هذا القيد على المادة بحيث نغفل جوانبَ مهمةً في هذه التعددية . والمثال التقليدي للمشكلة الثانية هو « الهندوسية » ؛ فبسبب هذا الاسم (الهندوسية) توقَّع الغربيون وجود فكرة موحدة مثلُها مثلُ بقيةِ « المعتقدات » الأخرى ، وظلُّوا في حيرة مما وجدوا ، إلى أن اكتشفوا أنَّ الهندوسية هي مصطلح أُطلق في القرن التاسع عشر على مجموعةِ أنظمةٍ فكرية معقدة ومتعددة للغاية ، وكان مَنْ أطلقه هو غيرهم من الغربيين الذين لم يُقدّروا ذلك التعقيد . فكّرْ في المنطقة التي تغطي أوروبا والشرق الأوسط في وقت بداية التقويم الميلادي ، وافترضْ أن غرباء أطلقوا مصطلحًا واحدًا على «دين» هذا الزمن وهذه المنطقة . هذا التصور سوف يعطي فكرة عمًّا حدث عندما أُطلق على «دين»

١ـ الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار ص١٨

الهند اسم الهندوسية ، وعدد الأمور اللازم تفسيرها كي نفهم هذا التراث وفقًا لمفاهيمه الخاصة .

وهكذا يواصل لنا صاحب هذه الفكرة قوله : لكنْ مثلما يتشارك الكثير من جوانبِ دينٍ وفكرِ أوروبا والشرق الأوسط في أصولٍ وموضوعاتٍ وأنظمةٍ معينة ، ومثلما تتشارك إلى حدّ كبير في رؤية العالم والإطار التصوري ؛ فإن الأمر نفسه ينطبق على الهندً ؛ ومِنْ ثَمَّ فما يجب على المرء فعله لفكّ هذا التعقيد وجعله قابلًا للإدراك هو العثور على تلك الأصول والموضوعات والأنظمة المشتركة ، وأن يألف رؤية العالم والإطار التصوري اللذين يدور في فلكهما الفكر الهندي . ولحسن الحظ فإن الهند لديها فترة تُعد نظيرة للفترة الإغريقية القديمة ، وتلك هي الفترة التي بدأ فيها التراث الفلسفي الهندي . وعلى الرغم من أن المفكرين الهنود القدماء كانوا يستعينون حتى بأفكار وتصوُّرات أكثر قدمًا ويطوّرُونها ، وبعض هذه الأفكار والتصورات معروفة لنا ، فإنه خلال القرن الخامس قبل الميلاد بدأت مدارسُ فكْريةٌ يمكن تحديدها على نحوٍ واضحٍ في اعتراف بعضها ببعض ، والتفاعل والجدل والسعي إلى تفنيد الرؤى ، والاندماج في بعض الأحيان . وبدايةً من هذه الفترة عاشت المناهج المختلفة جنبًا إلى جنب ، وظلّ بعضها داخلَ إطار التراث الذي أطلق عليه الغربيون بعد ما يقرب من ألفي سنة اسمَ «الهندوسية» ؛ اعتمادًا على فهمهم القديم له ، والبعض الآخر أسّس تعاليم أخرى مثل البوذية والجاينية[1] .

١ـ الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار ص١٨-١٩

وهكذا يتضح لنا سبب الميل الأول لدى الفلاسفة الغربيين في وسمهم الفلسفة الشرقية عموما والهندية خاصة بالفلسفة الدينية أو تداخل الدين والفلسفة في عملية التفكير ولعل هذا الأمر يؤكده قول هيغل نفسه : «زد على ذلك أن الهند لم تنكشف أمام الأوربيين إلا في هذه الأزمنة الأخيرة بوصفها ميدان وتمثلات أسطورية وديانات وعادات واخلاقيات وقصائد كثيرة وهندسة وفلك الخ . كل هذا عن مواضيع واسعة جداً بحد ذاتها . ومن المفيد أن نلاحظ عموماً أننا نجد فوراً لدى الهنود أيضاً فلسفات مجردة ومنطقاً شكلياً جداً ومتطوراً»[1] .

وعلى كل حال ، تَزْخَرُ الهند بتراث طويل وثَرِيٍّ ومتنوع من الفكر الفلسفي يمتدُّ لما يقرب من ألفيتين ونصف الألفية ، ويتضمَّن العديد من التقاليد الدينية الكبرى . ويحظى الدين في السياق الفلسفي بأهمية كبيرة ؛ لأن العادة في الهند جَرَت على اعتقاد أن دور الفلسفة — أو بالأحرى محاولة فهم طبيعة ما يركز المرء عليه — يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالمصير الشخصي للفرد؛ ومن ثَمَّ فإن الفلسفة لا تُعتبر نشاطًا فكريًّا احترافيًّا يمكن ممارسته في نهاية يوم العمل ، بل محاولة لفهم الطبيعة الحقيقية للواقع باعتبارها مطلبًا داخليًّا روحيًّا . ويمكن القول إن ما يُطلِق عليهما الغربيون الدينَ والفلسفةَ يجتمعان في الهند في محاولات الأشخاص فهمَ معنى وتركيبة الحياة بالمعنى الأوسع . وتشبه هذه المحاولات طريقة سقراط أكثر مما تشبه الدين بصفته إيمانًا بالوحي ، وأكثر مما تشبه الفلسفة بصفتها مادة

١ـ محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة خليل أحمد خليل ص٢٤٧

أكاديمية[١] .

بداية التفكير الفلسفي الهندي

يعود ظهور الفلسفة في الهند القديمة إلى أواسط الألف الأولى قبل الميلاد ، عندما بدأت تتشكل الدويلات في أراضي الهند الحالية ، وكان يتربع على رأس كل من هذه الدويلات (راجا) ، يعتمد في سلطته على دعم الارستقراطية العقارية (ملاك الأرض) والزعامة الدينية (البراهمانيون) وكانت بقايا النظام الأبوي لا تزال تحتفظ بمواقع هامة في العلاقات القائمة بين الطبقات المسيطرة وبين الجماهير الكادحة المضطهدة[٢] .

وقد شهدت الهند القديمة ، برغم سيطرة الآراء الدينية والغيبية والاسطورية التي تجلت في الفيدا والأوبانيشاد[٣] ، ظهور بدايات الفكر

١ـ الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار ص١٣

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة من الأساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٣ ويذهب كليارخوس السولي (أي من مدينة سوليس) – في مؤلفه (عن التربية والتعليم) – إلى أن (حكماء الهنود العراة) منحدرون من سلالة المجوس ، ويرى البعض كذلك أن اليهود منحدرون من نفس السلالة أنظر : حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص٣٥

٣ـ هو مجموعة من الاناشيد الدينية (حوالي (١٥٠٠ ق . م) ، يليه (البراهمانا) ، ويحتوي عدداً من الطقوس الدينية اعتمد عليها مذهب البراهمانية الذي بقى مسيطراً حتى ظهور البوذية . ويتضمن الجزء الثالث (آريناكا) قواعد خاصة بسلوك الزهاد والنساك . أما الجزء الأخير (اوبانيشادا) – فهو القسم الفلسفي من الديوان ، ويرجع ظهوره إلى بداية الألف الأولى قبل الميلاد .

الفلسفي . فهناك تشكلت المذاهب الفلسفية الأولى ، المثالية منها والمادية . وتميزت الفلسفة الهندية بأنها تطورات في إطار مدارس معينة ، وبأنها توزعت الى تيارين أساسيين : محافظ ، يعترف بقدسية الفيدا ، ومتحرر ينكر هذه القدسية . وكان معظم المدارس محافظاً ودينياً : الفيدانتا والميمامسا والسانخيا (السامخيا ، والسانكهيا) واليوغا والنيايا والفايشيشيكا . بيد أن ثمة نزعة مادية كانت تظهر من خلال الغطاء المثالي لهذه المذاهب . وبين الاتجاهات غير المحافظة برزت الجاينية والبوذية والتشارفاكا لوكاياتا[1] .

ولكن يبوّب الهنود مذاهبهم الفلسفية كلها في صنفين : المذاهب الأستيكية التي تُثبت ، والمذاهب الناستيكية التي تنفي[2] والمذاهب الناستيكية هي التي أخذ بها على وجه التخصيص أتباع (شارفاكا) وأنصار بوذا والجانتيون ؛ والعجيب أن هذه المذاهب إنما سميت (ناستيكا) أي الكافرة الهدامة ، لا لأنها شكت أو أنكرت وجود الله بل لأنها شكت وأنكرت أو تجاهلت أحكام الفيدات ؛ وكثير من مذاهب(آستيكا) شكت في وجود الله كذلك أو أنكرت وجوده ، لكنها مع ذلك سميت بالمذاهب المؤمنة بأصول الدين ، لأنها سلمت بصواب الكتب المقدسة صواباً لا يأتيه الباطل ، كما قبلت نظام الطبقات ؛ ولم يفكر أحد في تقييد الحرية الفكرية ، مهما بلغت من الإلحاد ، عند تلك المذاهب التي اعترفت بهذه الأسس

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة من الأساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٤

٢ـ آستي معناها موجود ، وناستي معناها معدوم .

الجوهرية التي تقوم عليها الجماعة الهندية الأصلية ؛ ولما كان تفسير الكتب المقدسة يفتح مجالاً واسعاً لاختلاف الرأي[١].

فإننا لن نجد بين بلاد العالمين بلداً اشتدت فيه الرغبة في الفلسفة شدتها في الهند ؛ فهي عند الهنود لا تقتصر على كونها حلية للإنسان أو تفكهة يسرّي بها عن نفسه ، بل هي جانب هام لا غني لنا عنه في تعليقنا بالحياة نفسها وفي معيشتنا لتلك الحياة ؛ وإنك لتجد حكماء الهند يتلقون من إمارات التكريم ما يتلقاه في الغرب رجال المال والأعمال ؛ فأي أمة سوى الأمة الهندية قد فكرت في الاحتفال بأعيادها بمناظرات ينازل فيها زعماء المدارس الفلسفية المتنافسة بعضهم بعضاً ؟ فتقرأ في اليوبانشاد كيف خصص ملك الفيديهيين يوما لمناقشة فلسفية باعتبارها جزءاً من الاحتفال الديني ، بين «ياجنافالكيا» و «أسفالا» و «أرتابهاجا» و «جارجي»؛ ووعد الملك أن يثيب الظافر منهم - وكان عند وعده - بمكافأة قدرها ألف بقرة

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٤٧ - ٢٤٨ بحيث استطاع مهرة المفسرين أن يجدوا في الفيدات أي مذهب شاءوا ، فقد أصبح الشرط الوحيد في واقع الأمر، الذي لا بد من تحققه إذا ما أراد الإنسان أن يكون ذا مكانة عقلية في نفوس الناس، هي أن يعترف بالطبقات؛ حتى لقد أصبح هذا النظام هو مصدر السلطان الحقيقي في البلاد؛ معارضته تعدّ خيانة كبرى، وقبوله يغفر عن كثير من السيئات؛ وإذن فالواقع هو أن فلاسفة الهند تمتعوا بحرية أكبر جداً مما أتيح لزملائهم في أوربا الوسيطة حين سادت الفلسفة الاسكولائية (أي المدرسية)، لكن ربما كان هؤلاء الهنود الفلاسفة أقل حرية من مفكري الدولة المسيحية في ظل البابوات المتنورين الذين سادوا أيام النهضة الأوربية .

ومائة قطعة من الذهب ، وكان المألوف للمعلم الفيلسوف في الهند أن يتحدث أكثر مما يكتب ؛ فبدل أن يهاجم معارضيه عن طريق المطبعة المأمون الجانب ، كانوا يطالبونه بملاقاتهم في مناظرة حية ، وبالذهاب إلى مقارّ المدارس الأخرى ليضع نفسه هناك تحت تصرف أتباعها في جداله وسؤاله ؛ ولقد أنفق أعلام الفلاسفة ، مثل «شانكارا» شطراً عظيماً من أعوامهم في أمثال تلك الرحلات الفكرية ؛ وكان الملوك أحياناً يسهمون في هذه المجادلات ، في تواضع يليق بالملك وهو في حضرة الفيلسوف - ذلك إن أخذنا بما يرويه لنا الفلاسفة أنفسهم عن ذلك ؛ وينزل الظافر في مناظرة هامة من تلك المناظرات ، منزلة عالية من البطولة في أعين الناس ، كهذه المنزلة التي يحتلها قائد عسكري عاد من انتصاراته الدامية في ميادين الحروب.

وترى في صورة راجبوتية من القرن الثامن عشر نموذجا «لمدرسة فلسفية» هندية - فالمعلم جالس على حصير تحت شجرة ، وتلاميذه جالسون القرفصاء أمامه على نجيل الأرض ؛ وكنت تستطيع أن ترى مثل هذا المنظر أينما سرت في الهند ، لأن معلمي الفلسفة هناك كانوا في كثرة التجار في بابل ، ولن تجد في بلد أخر غير الهند عدداً من المدارس الفكرية بمقدار ما تجده منها هناك ؛ ففي إحدى محاورات بوذا ما يدلنا على أنه قد كان في الهند في عصره اثنان وستون رأياً في النفس يأخذ بها الفلاسفة المختلفون ؛ يقول «الكونت كسرلنج» : «إن هذه الأمة الفلسفية قبل كل شيء ، لديها من الألفاظ السنسكريتية التي تعبر بها عن الفكر الفلسفي

والديني أكثر مما في اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعة»[١].

أسفار الفيدا

أقدم ديانة هندية فيما نعلم للآن هي: (الفادية) واسمها آتٍ من كتبها المقدسة المدعوة (فيداس)، أى العلم ويلوح لنا هذه الكتب لا ترجع إلى أبعد من القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وبتعبير ول ديورانت: «الظاهر أن أقدم ديانة نعرفها عن الهند، تلك الديانة التي وجدها الغزاة الآريون بين «الناجا» والتي لا تزال قائمة في الأجناس البشرية البدائية التي تراها هنا وهناك في ثنايا شبه جزيرة العظيمة، هي عبادة روحانية طموطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم. وكانت الثعابين والأفاعي مقدسات- إذ كانت آلهة تعبد ومثلاً عليا تنشد في قواها الجنسية العارمة»[٢].

وذكروا أن الفادية ديانة مشركة، تضيف لكل إله شأناً خاصاً في الطبيعة وصفات ليس كلها بالحميدة، وفيها شعائر تتناول ظروف الحياة جميعاً من المهد إلى اللحد، بل من قبل الولادة إلى ما بعد الوفاة. أهمها تتعلق بتكريم الموتى؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن السعادة الأخروية إنما تتوفر بالتقدمات يبذلها الأبناء عن الآباء، فيرعى الآباء أبناءهم من العالم الآخر

---

١. قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٤٦ - ٢٤٧

٢. قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٣٠، الهند القديمة حضاراتها ودياناتها د. محمد اسماعيل النداوي ص٦٧

(المقر النوراني) ، فكان الزواج واجباً ، لتحقيق السعادة الأخروية[١] .

أن الريج فيدا لا ترجع إلى عهد حديث مثل مجموعة الأفستا ، بل هي غارقة في العصر الهندي الأوربي السابق للتاريخ ، والأناشيد الفيدية ليست إلا توسلات مدحية موجهة إلى آلهة ؛ أما طبيعية وإما شعائرية . وبعضها يمتاز بالصفتين معاً مثل النار . ونجد فيها إشارات إلى الشعائر السائدة في الطبيعة والمتوسلة إلى الآلهة ؛ لكن الأدب المقدس الذي يحوى الأنظمة الشعائرية ، وهو أدب البراهماناس ، وجد فيه نظريات عن استعمال الأناشيد في عصر متأخر وفي أمكنة تختلف عن تلك التي وضعت فيها هذه الأناشيد ؛ ولا نجد في هذا الأدب تعليقات وشروحاً لا شك في صحتها ، وإن كان يعتبر مرجعاً للتقاليد الدينية المحافظة[٢] .

وبجانب ريج فيدا التي تحتوي الأوراد ، نجد (ساما فيدا) وهي مجموعة الأناشيد ، و (ياجور فافيدا) وهو كتاب القرابين ؛ ثم أخيراً كتاب التعاويذ السحرية ويسمى (اتار فافيدا) . إذن فما هي أسفار الفيدا التي نستمد منها جل علمنا بالهند في مرحلتها البدائية ؟

يُجيبنا ول ديورانت عن هذا التسأل بإن كلمة «فيدا» معناها معرفة ،

١ـ دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٧ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢١٧

٢ـ الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص١٠٨ - ١٠٩ ، حضارة الهند روميش تشاندردات ترجمة مجموعة أقرا ص٧١ إن كلمة الرج تطلق على الاشعار ، والفيدا على المعرفة . ويقصد بكلتا الكلمتين (أناشيد المعرفة الروحية) الهند القديمة حضاراتها ودياناتها د. محمد اسماعيل النداوي ص٩٩ .

وإذن فسفر الفيدا معناه الحرفي كتاب المعرفة ، و «والفيدات» يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم، وهي شبيهة بالإنجيل عندنا في أنها تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة الكتاب ، ولو حاولت تنظيم هذه المجموعة وتبوبيها لأحدثت خلطاً فظيعاً ، ولم يبق لنا من الفيدات الكثيرة التي شهدها الماضي إلا أربعة أسفار:

١- سفر رج ، أو معرفة ترانيم الثناء .

٢ - سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .

٣ - سفر باجور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .

٤ - سفر أتارفا ، أو معرفة الرقى السحرية .

وكل واحد من هذه الفيدات الأربعة ، ينقسم إلي أربعة أقسام :

١ـ إلى «مانترا» أو الترانيم .

٢ـ إلى «براهمانا» أو قواعد الطقوس والدعاء والرقي لهداية الكهنة في مهمتهم

٣ـ إلي «أرانياكا» أو نصوص الغابة ، وهي خاصة بالقديسين الرهبان.

٤ـ إلى «يوبانشاد» أو المحاورات السرية ، وهي تقصد إلى الفلاسفة[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٣٨ ليس هذا

فلسفة كهنة البراهمة

البراهمة أي المُصلين يؤلفون طبقة خاصة أولى الطبقات الهندية ، فيتوارثون المنصب ومزاياه ، وكانوا رجال علم ونظر ، فأدى التفكير بهم - أو ببعضهم - حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ، إلى آراء مغايرة للعقائد الموروثة تُكون مذهباً هو (البرهمية) جمعوا الآلهة في واحد[1] ، وقالوا : إنه

التقسيم إلا نوعاً واحداً من أنواع التقسيم التي يمكن تطبيقها على مادة هذه الأسفار ، وكان علماء الهندوس يضيفون عادة إلى الشروح «الموحى بها» في البراهمانا واليوبانشاد ، مجموعات كثيرة لشروح أقصر من تلك ، يصوغونها في عبارات موجزة ويطلقون عليها اسم «سترة» (ومعناها الحرفي خيوط) ، أضافوا هذه الشروح إلى الفيدات ، فاكتسبت على مر الزمن احتراماً تقليدياً يجعلها من مصادر الدين ، على الرغم من أنها ليست منزلة من السماء ؛ وكثير من هذه الشروح موجز إلى حد يتعسر معه فهم معناه ، لكنها كانت تختصر العقيدة اختصاراً يسهل معه نقلها ، أو قل كانت وسيلة تعين على حفظ الطلاب لها في عصر كانوا يعتمدون فيه على ذاكراتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة . أنظر : حضارة الهند روميش تشاندردات ترجمة مجموعة أقرا ص٧٢ . انظر : أيضا : الهند القديمة حضاراتها ودياناتها د. محمد اسماعيل النداوي ص٩٩ - ١٠٠

١- رد الآلهة إلى إله واحد هو مما نجده في أكثر من حضارة ، فمذهب منف اتخذ من الإله بتاح خالقاً ، ومذهب الأشمونيين الذي استبدل الثامون بالتاسوع وجعل الإله تحوت على رأس هذا الثامون هذا عند المصريين ، ونجده في اليونان عند هزيود إذ جرى على النسق المصري في ثيوغينياه . وإن كان هناك خلاف بين هزيود والمصريين في ترتيب الإلهة والكون إلا اننا نرصد من كل هذه المحاولات - مع المحاولة الهندية - فكرة واحدة مهيمنة هي عملية رد الآلهة إلى إله واحد . أنظر : أصل الفلسفة د. حسن

هو الذي أخرج العالم من ذاته ، وهو الذي يحفظه إلى أن يُهلكه ويرده إليه، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء : فهو (براهما) من حيث هو موجود ، و (فشنو) من حيث هو حافظ ، و (سيفا) من حيث هو مهلك .

في البدء كان الموجود واحداً لا ثاني له ، فأحس رغبة في التكثر فخلق النور ، وأحس النور رغبة مماثلة ؛ فخلق المياه ، وأحست المياه رغبة مماثلة ؛ فخلقت الأرض ، كل ذلك بإرادة براهما وقدرته ، فهو إذن الجوهر الكلي ، والحياة العالمية ، والموجود اللامتناهي ، ليست له شخصية ، فلا يُوصف ؛ لأن الصفة تُعين الموصوف وتحدُه ، وإنما هو الوجود في كل موجود ، أما الجزئيات المدركة بالحواس والعقل ؛ فإنما هي ظواهر وأوهام، هي مظاهر براهما[1] .

وهكذا وصل البراهمة إلى القول (بالحلول) ، أي وضع الله في العالم ، والخلط بينهما ، و (بالتصورية) ، أي اعتبار الموجودات صُوراً وأشباحاً دون حقيقة خاصة ، وما وصلوا إلى هذين القولين إلا بالتفكير في الوجود ، رأوا أن لا بُد للوجود من أصل ثابت وشامل يكون هو علة كل وجود ، فظنوا أن مثل هذه العلة لا يُمكن أن تكون وجوداً مُعيناً ، وأن التعيين يحدُها ، ويفصل بينها وبين ما ليس إياها ؛ فنفوا عنها كل صفة ، وظنوا أن ما عداها لا يُمكن أن يكون وجوداً حقيقياً ، فاعتبروه وهماً ومظهراً وفسروا الكثرة

طلب ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ص١٢٤-١٢٥ ، دلالة الفلسفة وسؤال النشأة الطيب بوعزة ، نما ، ص١٧٨-١٧٩ .

١. دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٨

الوهمية برغبة أصلية في الخروج من الوحدة ، وقالوا : إن هذا منشأ الشر والألم ، وإن وجود العالم الذي يخدعنا بالكثرة المتغيرة الزائلة ، ويجلب علينا الألم شر محض ، فكانوا مُتشائمين[1] .

ورتبوا على هذا المذهب حكمة عملية ترمي إلى التحرر من الألم والوهم ، وذلك بالتجرد من شخصيتنا الظاهرة الحادثة التي يخلقُها فينا التصديق بالجزئيات ، والوسيلة إلى تلك الغاية رياضات عدة ، أدناها : رياضات الفقراء ، وأرقاها : التأمل والاستغراق في براهما (الحقيقة بالذات)؛ فإن فعلنا أشبهنا براهما ، وعدنا إليه بعد الموت ، وفنينا فيه ؛ فخلصنا من الوجود الشخصي ، ومن الألم الملازم له .

أما النفس التي لا تبلغ إلى التجرد التام وتحتفظ بشخصيتها ؛ فإن شخصيتها تدفعها بعد الموت إلى أن تعود إلى العالم المُتعلقة به ، وتُولد ثانية في إنسان أو حيوان أو نبات ، ولا تزال تنتقل من مصير ما دامت لها شخصية ، وهذا هو (التناسخ أو التقمص) ، فالمسألة الكبرى هي النجاة من (الميلاد الثاني) ، وعلى ذلك : وقد رفع البراهمة الزُهد والفضائل الخُلقية فوق الزواج والفضائل والشعائر الدينية أيضاً ، وقالوا : (إن كُلا بأفعاله) ، وإنه لا علاقة جوهرية بين الابن وأبيه ، وأن الصلوات والقرابين لا يُمكن أن تُوفر للموتى سوى سعادة مؤقتة ، وأن (الميلاد الثاني) مدركُهم لا محالة إن لم يكونوا من الصالحين ، ورغبوا إلى رب البيت الذي أدى واجباته من حيث هو كذلك ، (وابيض شعره ، ورأى حفيده) أن يُغادر بيته ليعيش

١-دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٨

ناسكاً، ويتجرد من الجهل الذي يغشى عقول العامة دون الوجود الأوحد، فيرى براهما في الكائنات جميعاً، والكائنات جميعاً في براهما. فخُلاصة المذهب: أنه تصوف حلولي يرمي إلى فناء الذات في وجود لا ذات له[1].

على أن الهند عرفت مدارس أخرى خرجت من البراهمية، ونظرت إلى الوجود نظرة عقلية مستقلة عن الدين، نذكر منها:

١- مدرسة أسسها كابيلا حوالي القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد. وذهب كابيلا مذهب أفلاطون، فقال: إن النفس والجسم جوهران متمايزان في الماهية والوجود، ووصف المادة بأنها شر بالذات، وفسر الألم باتصال النفس بالجسم وهي تجهل طبيعته الشريرة وسُوء تأثيره.

٢- مدرسة أسسها كانادا حوالي القرن الرابع قبل الميلاد فيما يُظن. وقد قسم كانادا الموجودات والمعقولات إلى بضع طوائف رئيسية أو مقولات هي: (الجوهر، والكيفية، والفعل، والكلية، والجزئية والإضافة)، وفسر العناصر الأربعة: (النار، والهواء، والماء، والتراب) بأنها مُؤلفة من ذرات غير منقسمة ولا مندثرة.

٣- مدرسة ثالثة أسسها غوتاما، وكان منطقياً حاول أن يؤلف نظرية في الاستدلال والبرهان، ولكنه لم يُوفق إلا في أقوال غامضة ناقصة جداً - كما يرى بعض الباحثين - ويقول أيضا بهذا الصدد: هذه المدارس وغيرها محاولات في النظر الفلسفي، ولكنها لم تصل إلى نتائج جلية، ولم تفلح الهند في إقامة علم عقلي مستقل تام بين الحدود واضح المناهج كالذي

١ـ دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٨-٢٩

نسميه المنطق[١].

لكن هذا القول - وكما عرفت سابقاً - يعتبر مجحفاً جداً في تقدير الحضارة الهندية فيما يخص الجانب الفلسفي والمنطقي فمثلاً يشير ألكسندر ماكوفلسكي الذي عمل زهاء عشرين عاماً على كتابه (تاريخ المنطق) حيث أكد ليس فقط على وجود الفلسفة الهندية، حتى في المعنى اليوناني للكلمة، بل كذلك وجود منطق هندي لا يقل أصالة وعقلانية عن المنطق الأورسطي، كما لا يقل عنه قابلية للتعريف بأنه (علم وفكر) و (علم قوانين العقل) و (علم نظرية المعرفة)[٢].

وعلى كل حال فقد آلت السيادة لستة من المذاهب «الأصيلة» - المؤمنة بأصول الفيدات - أو (الدارشانات) ومعناها البراهين، حتى لقد أصبح لزاماً على كل مفكر هندي ممن يعترفون بسلطان البراهمة، أن يعتنق هذا المذهب أو ذاك من تلك المذاهب الستة؛ وهي كلها مجمعة على طائفة معينة من الآراء تعتبر ركائز التفكير الهندي: وهي أن الفيدات قد هبط بها الوحي، وأن التدليل العقلي أقل جدارة بالركون إليه في هدايتنا إلى الحقيقة والصواب، من إدراك الفرد وشعوره المباشرين إذا ما أعد الفرد إعداداً صحيحاً لاستقبال العوامل الروحية وأرهفت نفسه إرهافاً باصطناع الزهد والتزام الطاعة مدى أعوام لمن يقومون على تهذيب نفسه؛

١ـ دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٣١

٢ـ نظرية العقل جورج طرابيشي دار الساقي، الطبعة الأولى، ص١٠٣، دلالة الفلسفة ونشأة السؤال د. الطيب بوعزة ص١٩٢-١٩٣. دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور حاشية رقم (٢)

وأن الغاية من المعرفة ومن الفلسفة ليست هي السيطرة على العالم بقدر ما هي الخلاص منه ؛ وأن هدف الفكر هو التماس الحرية من الألم المصاحب لخيبة الشهوات في أن تجد إشباعها ، وذلك بالتحرر من الشهوات نفسها ؛ تلك هي الفلسفات التي ينتهي إليها الناس إذا ما أتعب نفوسهم الطموح والكفاح والثراء و « التقدم » و « النجاح » [١] .

الفلسفة البراهمية ومذاهبها الستة

من الصعوبة بمكان استجلاء الصورة الحقيقة للمذاهب الفلسفية الهندية القديمة ، ويعزوا بعض الباحثين تلك الصعوبة إلى ضياع معظم مؤلفات أصحابها ، ولاسيما الماديون منهم ، كما أن ما نقله الكتاب المتأخرون من أخبارها جاء مشوهاً إلى حد كبير [٢] ، ولنتحدث هنا الفلسفة البراهمية ومذاهبها الستة ، أي المذاهب الاستيكية المثبتة التي سلمت بأصول الكتب المقدسة الهندية ، وقبلت نظام الطبقات ، رغم أنها شككت في وجود الله أو انكرت الوجود .

مذهب النيايا

أول المذاهب « البرهمية » بالترتيب المنطقي للتفكير الهندي ، يقول ول ديورانت : «لأننا لا ندري في يقين ترتيبه الزمني ، وكل المذاهب في أجزائها الجوهرية متعاصرة» مجموعة من النظريات المنطقية تمتد إلى ألفي

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٠

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٧

عام ؛ فكلمة (نيايا) معناها تدليل ، أو طريقة لهداية العقل حتى ينتهي إلى نتيجة ، وأهم نصوصه هو النص المسمى (سوترا نيايا) الذي يعزى في غير تأكيد الواثق إلى رجل يسمى (جوتاما) عاش في زمن يختلف فيه المؤرخون ، وتتراوح تقديراتهم بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن الأول بعده[(١)] .

والنيايا مذهب في المعرفة . ولاسيما الاستدلال المنطقي ، يستند إلى رؤية مادية للوجود . ولكن فلسفة الوجود هنا لا ترمى إلى هدف نظري ، بل تتوخى هدفاً عملياً هو تحرير الإنسان من ألوان العذاب . وتعنى النيايا بدراسة مصادر المعرفة وطرائقها ، وبتصنيف موضوعاتها ، التي هي الواقع ذاته . والمعرفة الحقيقية ، عندها ، تأتي أما من خلال الادراك (الحسي) أو من الاستدلال المنطقي ، أو ما رواه الثقات ، أو بالمقارنة . والادراك يقوم على الحواس ، ويتوقف عليها ، ولذا فهو يقدم معرفة مباشرة عن الأشياء . أما الاستدلال المنطقي فيتطلب فرز إحدى السمات ، التي تنفصل عن موضوع المعرفة (إلا في الذهن)[(٢)] .

١- يرى بعض الباحثين أن غوتاما أسس مذهب النيايا الحكيم غوتاما ، الذي لا نعرف عنه إلا حكايا أسطورية . وتعود أفكار نصوصه إلى القرن الثالث قبل الميلاد . أنظر موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٠

٢- موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٠ مما ينبغي الإشارة إليه أن هؤلاء الأساتذة قد عدو هذا المذهب مضافا إلى غيره من المذاهب الهندية كمذهب اللوكايتكا واليماسا والسانخيا وغير ذلك في ضمن المذاهب المادية .

ويفصح جوتاما عن الغاية من مؤلفه فيقول - كما يقول كل مفكري الهنود - إنها تحقيق النرفانا، أو الخلاص من طغيان الشهوات، وإنما تتحقق هذه الغاية في مجال المنطق بالتفكير الواضح المتسق؛ لكنا نشك في أن غايته المباشرة كانت هداية الحائرين في الصراع الذي كان يقوم به المتناظرين من فلاسفة الهنود؛ فهو يصوغ لهم مبادئ الحِجَاج، ويعرض عليهم أحابيل النقاش، ويحصر المغالطات الشائعة في التفكير؛ وتراه - كأنما هو أرسطو آخر - يلتمس بناء التدليل العقلي في طريقة القياس، ويجد عقدة كل تدليل في الحد الأوسط من حدود القياس.إذ يلاحظ أن القياس في «نيايا» قوامه خمس قضايا : النظرية، والعلة، والمقدمة الكبرى، والمقدمة الصغرى، والنتيجة، مثال ذلك : (١) سقراط فان؛ (٢) لأنه إنسان ؛ (٣) وكل إنسان فان؛ (٤) وسقراط فان؛ (٥) وإذن فسقراط فان.

وكذلك تراه - كأنما هو جيمس آخر أو ديوى آخر، يعتبر المعرفة والفكر أداتين عمليتين ووسيلتين فعالتين يستخدمها الإنسان في إشباع حاجاته وقضاء إرادته، ومقياس صحتهما هو قدرتهما على الوصول إلى فعل ناجح فهو واقعي، ولا شأن له قط بالفكرة السامية التي تزعم أن العالم ينعدم وجوده إذا لم يعد هناك من يدركه، والظاهر أن أسلاف جوتاما في مذهب نيايا كانوا ملاحدة، وأما أتباعه فقد شغلوا أنفسهم بنظرية المعرفة وكانت مهمته أن يقدم للهند دستوراً جديداً للبحث والتفكير، وقاموساً غنياً بالألفاظ الفلسفية[١].

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٠ - ٢٥١

وفلسفة النيايا مادية ساذجة عموماً . فهي تربط يقينية المعرفة ومضمونها بالطبيعة والواقع للأشياء المدروسة ، وتؤكد أن هذه الأشياء موجودة قبل أن تكون موضوعات لنشاطنا المعرفي ولكن فيما بعد شابت هذا التوجه المادي الأساسي بعض عناصر الرؤية الدينية والسيكولوجية المثالية[١] .

مذهب الفايشيشيكا

وكما أن جوتاما هو في الهند بمثابة أرسطو ، فكذلك «كانادا» هناك بمثابة ديمقريطس ؛ وأن اسمه الذي معناه «آكل الذرات» ليدل بعض الدلالة على احتمال أن يكون شخصاً أسطورياً خلقه خيال المؤرخين ؛ ولم يتحدد بالدقة تاريخ صياغة هذا المذهب الفايشيشيكي ، فيقال أنه لم تتم صياغته قبل سنة ٣٠٠ ق. م ولا بعد سنة ٨٠٠ م[٢] ، بينما يرى أخرون ان الفايشيشيكا ظهرت حوالي القرنين السادس والخامس قبل الميلاد . ويعتبر كانادا مؤسس هذه المدرسة . وقد جاءت الفايشيشيكا ، أول الأمر ، رؤية مادية للوجود ونظرية ذرية ، ثم توسعت دائرة اهتماماتها ، فشملت قضايا المنطق . ويعتقد بول ما سون أن الفايشيشيكا مذهب يشير الى محاولة تحويل طبيعة الفلسفة الدينية البراهمانية الى نظرية عقلية[٣] .

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٠

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥١

٣ـ الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون – أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص١٢٣

وكانت الفايشيشيكا من أنضج المدراس المادية الهندية . وتأتي تسميتها من كلمة (فايشيشا) ومعناها (ميزة) أو (فارق) ، وتدل على أن هذا المذهب يركز في تفسيره للواقع ، على التمايز بين الجواهر والذرات والأرواح ، إلخ .

وذكر البعض أن اسم هذا المذهب مشتق من كلمة «فيشيشا» ومعناها «الجزئية» فالعالم في مذهب «كانادا» مليء بطائفة من الأشياء ، لكنها جميعاً لا تزيد على كونها تركيبات مختلفة من الذرات ، صيغت في هذا القالب أو ذاك ، وتتغير القوالب ، لكن الذرات يستحيل عليها الفناء[(١)]

وتنطلق الفايشيشيكا ، شأن النيايا ، من أن هدف الحكمة هو تخليص (الأنا) البشرية من العذاب والتبعية . وبما أن الجهل هو العلة الأخيرة لكل شقاء وعذاب ، فإن الطريق إلى الخلاص يمر عبر المعرفة اليقينية ، عبر الادراك الحقيقي للواقع . ولكن مثل هذه المعرفة تقتضي دراسة مقولات الواقع ، أي أجناس الوجود العليا ، وهكذا لا تعتبر المقولات عند أنصار هذا المذاهب . مفاهيم عقلية ، وإنما هي ، في المقام الأول أشياء يرمز لها بألفاظ. وبذا يتفق تصنيف المقولات مع تصنيف الأشياء (أو الموضوعات)[(٢)] .

والجوهر هو الحامل المادي لكيفيات الأشياء وميزاتها وأفعالها ، فضلاً عن كونه علة كل تركيب وتأليف ومن بين الجواهر يأتي التراب

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥١

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣١

والماء والنور والأثير لتمثل العناصر الطبيعية التي تتألف، هي نفسها. من ذرات سرمدية، لا تقبل التجزئة أو الأنقسام، والذرات لا تدرك بالحواس، فما نعرفه عنها إنما يأتي عن طريق الاستدلال المنطقي وحده. ويتسم المذهب الذري في فلسفة الفايشيشيكا بالقول بالتمايز الكيفي بين الذرات. والكيفية، بخلاف الصفة، تعتبر عندها شيئاً جوهرياً وأولياً. والحركة ليست كيفية، بل صفة، لأنها تنتقل من مادة إلى أخرى. أما في الجواهر المفارقة (غير الجسمية) - الأثير والمكان والزمان والروح - فلا حركة ولا فعل[1].

وتولي الفايشيشيكا عناية خاصة لمقولتي العام والخاص في عملية المعرفة. فالأشياء ذات الطبيعة الواحدة، تعرف بأسم مشترك، عام، والعام واقعي، موجود في أشياء الصنف المعني ذاتها ولكنه لا يتطابق مع خواصها الجزئية، بل هو ماهية الأشياء الفردية. ولكن مقولة العام لا تكفي لوحدها، وإلا تعذرت التفرقة بين جوهر وآخر. فكل جوهر يحتوي على جانب ما، يخصه وحده دون غيره. وهذا الجانب هو ما تسميه الفايشيشيكا (ميزة). وسرمدية الجواهر تستلزم سرمدية ميزاتها[2].

وبمرور الزمن راح مفكرو الفايشيشيكا يردون مختلف أفعال الذرات إلى إرادة كائن علوي، توجه الناس جميعاً إلى الطهر الأخلاقي، ويذهبون إلى أن العالم المحدث ذو روح كونية، وان جميع المعذبين فيه سوف

١-موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣١
٢-موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣١

يتخلصون من آلامهم بعد انقضاء حقبة زمنية معينة . أما شرط هذا الخلاص فهو خراب العالم وانحلال الذرات المؤلفة له . ثم صارت صبغة المذهب الدينية أكثر فأكثر جلاءً . وجاء اعلامه المتأخرون ليصوروا الذرات مجرد علة مادية للعالم وليقولوا بالإله علة فاعلة له[١] .

لذلك يذهب «كانادا» - على أتم شبه بديمقريطس فيما يذهب إليه - يذهب إلى أنه ليس في العالم إلا «ذرات وفراغ» وأن الذرات لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، بل بدافع من قوة غير مشخصة ، هي القانون - أو «أدرشتا» ومعناها «الخفي» ولما كان الثائر في تفكيره لا ينسل إلا خَلَفَاً جامداً ، فكذلك كان الأنصار المتأخرون لمذهب فايشيشيكا يعجبون كيف يمكن لقوة عمياء أن تخلع على الكون نظاماً ووحدة ، فوضعوا عالماً من أنفس دقيقة جنباً إلى جنب مع عالم الذرات ، ثم جعلوا فوق العالمين إله عاقل وهكذا ترى نظرية ليبنتز في «التناسق الأزلي» موغلة في القدم[٢] .

لما لا نقول إن الصبغة الدينية التي جاء بها أعلام الفايشيشيكا المتأخرون لأصول المذهب كانت نتيجة الاشكالات التي تعترض حركة الذرات والقوة المحركة لها ، وكيفية الانتظام والتناسق فيما بينها لتشكيل العالم ، وبالتالي لابد من القول بقوة فاعلة مجردة لها ، وأن العلم الحديث يؤكد مادية تلك الذرات .

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣١ -٣٢
٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥١

مذهب السانخيا

من أقدم المذاهب الفلسفية في الهند، أسسها الحكيم كابيلا، الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد. يقول مؤرخ هندي عن هذا المذهب: إنه أبعد المذاهب الفلسفية التي أنتجتها الهند دلالة» ولقد وجد الأستاذ «جارْب» الذي كرّس شطراً كبيراً من حياته لدراسة سانخيا، عزاء لنفسه إذ وجد أن «مذهب كابيلا قد اشتمل لأول مرة في تاريخ العالم استقلال العقل الإنساني وحريته الكاملتين، وثقته التامة بقدراته» وهو أقدم المذاهب الستة ولعله أقدم مذهب فلسفي ولسنا ندري شيئاً عن «كابيلا» نفسه، سوى أن الرواية الهندية تزعم - في استهتار بدقة التواريخ كالذي تراه عند التلميذ الناشئ - تمجيداً له، أنه مؤسس فلسفة سانخيا في القرن السادس قبل الميلاد[1].

تنطلق السانخيا[2] من القول بمدأين (أو أصلين): مادي وروحي. المبدأ المادي علة جميع الأشياء والظواهر، بما فيها النفسية. ولكن هذه العلة الأولى، المادية بطبيعتها، يجب أن تكون، في الوقت ذاته، لطيفة وشفافة للغاية، بحيث يمكن لها أن تولد ألطف الأشياء، كالعقل مثلا،

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ٢٥٢

٢ـ هناك تفسيران للتسمية ١- (الاحصائية)، وسميت كذلك لأن هدفها هو المعرفة الصحيحة للواقع عن طريق احصاء وتقصي الموضوعات الأساسية للمعرفة وأدواتها الرئيسية؛ ٢ - المعرفة الكاملة، أنظر موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٩ كلمة المعرب.

وليست العلة الأولى معلولة لغيرها ، فهي علة ذاتها ، وهي موجودة منذ الأزل ، سرمدية ، تقوم في صلب العالم كله .

وبوسع الأشياء جميعها أن تفعل في حواسنا ، فتثير فينا مشاعر البهجة أو الألم أو اللامبالاة ، وهذه الحالات الثلاث تعود إلى عناصر أو قوى جوهرية ثلاثة ، غير محسوسة ، تتألف الأشياء منها - (هون) . ومن ائتلاف هذه العناصر لا يتكون الجوهر الأول - (براكريتي) - فحسب ، بل وأشياء العالم كلها . والبراكريتي علة وجود الأجسام وأعضاء الحس والفعل ، علة الشعور بـ (الأنا) والذهن والعقل .

وبالإضافة إلى هذا كله هناك الوعي (بوروشا) ، الذي هو من طبيعة مفارقة ، غير مادية ، وأرفع من كل تغير . وتتكون أشياء العالم نتيجة لتماس البراكريتي والبوروشا . ولكن العقل ، رغم صدوره عن البراكريتي ، ليس خالداً مثلها ، وإنما هو ذات ، تنشأ وتفنى بمرور الزمن[1] .

ومن هذه النظرة إلى الوجود تخلص السانخيا لبسط آرائها في المعرفة . وهي تضع ، إلى جانب الادراك الحسي والاستدلال العقلي ، مصدراً ثالثاً للمعرفة ، يتمثل في تعاليم الكتب المقدسة . ويرى أنصارها أن المعرفة تكون يقينية وحقة عندما تعكس في الذهن الوعي ذاته ، أو (الأنا) لا الأشياء الخارجية المادية .

وفي الميدان الأخلاقي تؤكد السانخيا على شمولية الشقاء ، وتذهب ،

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٩

شأن عدد من المدارس الفلسفية الهندية ، إلى أن مهمة الحكمة هي إنارة السبيل الذي يؤدي إلى تخليص الانسان من العذاب والألم[١] .

إذ يجمع «كابيلا» في شخصه الواقعية والاسكلائية ، وهو يبدأ كلامه بما يكاد يشبه أقوال الأطباء ، إذ يضع قاعدة في أول حكمه يسوقها ، وهي «أن انعدام الألم انعداماً تاماً ... هو أكمل غاية ينشدها الإنسان» ، وهو يرفض الاكتفاء بمحاولة الإنسان اجتناب الألم بوسائل جسمانية ، ويدحض بشعوذة منطقية آراء الباحثين في الموضوع واحداً واحداً ؛ ثم يأخذ بعد ذلك في تكوين مذهبه الميتافيزيقي الخاص به ، في سلسلة من «السوترات» [٢] المقتضبة الغامضة ؛ وهو يسرد في سانخيا أنواع الحقائق وهي خمس وعشرون ، ومن هذا السرد للأنواع جاءت كلمة (سانخيا) لأن معناها السرد[٣] .

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٩

٢ـ لما كان الفكر الهندي قد انتقل بالحديث الشفوي أكثر منه بالكتابة ، فأقدم صورة هبطت إلينا عن مذاهب المدارس المختلفة ، هي الحِكَم ويسمونها «سُترات» ومعناها - «خيوط» - يكتبها المعلم أو الطالب ، لا لتكون وسيلة لشرح رأيه لغيره بل لتعينه على وعيها في ذاكرته ؛ وهذه السُترات ترجع إلى عصور مختلفة فبعضها قديم يرجع تاريخه إلى سنة ٢٠٠ م ، وبعضها حديث يرجع إلى سنة ١٤٠٠م ؛ وهي جميعاً على كل حال أحدث جداً من التراث الفكري الذي تلخصه ، والذي تناقلته العصور بالشفاه ، ذلك لأن نشأة هذه المدارس الفلسفية قديمة قدم بوذا ، بل لعل بعضها - مثل السانخْيا - كان قد ثبت أساسه عندما ولد بوذا .

٣ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٢ يسمي لنا كابيلا هذه الحقائق (تاتوات) (أي الذلكات جمع ذلك) ومنها يتألف العالم في رأي «كابيلا» ؛ وهو يرتب هذه الحقائق في علاقة مركبة تربط بعضها ببعض

وإن هذا ليبدو في أوله مذهباً مادياً خالصاً ، فعالم العقل والنفس ، مثل عالم الجسم والمادة ، عبارة - فيما يظهر - عن حركة تطورية تتأثر بالعوامل الطبيعية ، ومعنى ذلك أنه يسير في حركة مستمرة التكوين والفساد، بادئاً من أدنى الدرجات ومنتهياً إلى أعلاها ، ثم يعود إلى أدناها من جديد ، كل ذلك والعالم هو هو من حيث عناصره في وحدتها واستمرارها ؛ فكأنما كان «كابيلا» يشق الطريق أمام «لامارك» حين يقول إن حاجة الكائن العضوي (النفس) تولد الوظيفة (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) ثم تنتج الوظيفة عضوها (العين والأذن والأنف واللسان والجلد) .

يقول ول ديورانت : «وليس في هذا المذهب فجوة ، بل ليس في أية فلسفة هندية تمييز بين اللاعضوي والعضوي من الكائنات ، أو بين عالم النبات وعالم الحيوان ، أو بين الحيوان وبين الإنسان ؛ فهذه كلها حلقات من سلسلة الحياة الواحدة ، أو قل إنها قضبان عجلة التطور والانحلال ، أي عجلة الولادة والموت ثم الولادة من جديد ؛ وإنما يتحدد مجرى التطور اعتباطاً بتأثير الخصائص أو القوى (الجونات) الثلاث الفاعلة في «العنصر» : ألا وهي الطهر والفاعلية والجهل الأعمى ، وليست هذه القوى بذات هوى نحو التقدم مناهضة للانحلال ، بل إنها تنتج الواحد في إثر الآخر على دورات لا تنتهي ، مثلها مثل ساحر عابث يظل يخرج أشياء لا تنتهي صنوفها من قبعة ، ثم يعيد وضعها في القبعة ، ماضياً في هذه العملية إلى الأبد ؛ كما يقول هربرت سبنسر في عصر متأخر هو أن كل مرحلة من مراحل التطور تحتوي في ذاته ميلاً إلى الانحلال باعتباره مكملاً لها ونهاية

لا محيص عنه» [١].

وكان «كابيلا» شبيها بلابلاس حين لم يجد ضرورة لفرض قوة إلهية يقسر بها الخلق أو التطور ؛ وليس من الغرابة في شئ أن تجد ديانات أو فلسفات بغير إله في هذه الأمة التي هي أكثر الأمم إمعاناً في الدين والفلسفة ؛ وإنك لتجد في كثير من نصوص «سانخيا» إنكاراً صريحاً لوجود خالق مشخص ، والخلق عندهم شئ لا يمكن للعقل أن يتصوره لأن «الشيء لا يخرج من لا شئ » والخالق والمخلوق جانبان لشيء واحد ، وترى «كابيلا» يكفيه اطمئنانا أن يكتب (كأنه «عمانوئيل كانت» على وجه الدقة) بأن الخالق المشخص يستحيل أن يقيم عليه الدليل عقل بشري ، لأن كل ما هو موجود - في رأي هذا الشكاك الدقيق - لا يخرج على أحد فرضيتين ، فإما أن يكون مقيداً أو حراً ، ولا يمكن لله أن يكون هذا أو ذاك ولو كان الله كاملاً لما مست به الحاجة إلى خلق العالم ، ثم لو كان ناقصاً لما كان إلهاً ؛ ولو كان الله خيراً وله قدرات إلهية ، لما أمكن قط أن يخلق عالماً على هذا النقص الذي نراه في العالم القائم ، الذي يغص بكثرة ما فيه من آلام ، ولا يأخذه التردد في الموت [٢].

وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه المذاهب الستة ورغم إننا نجد في بعض كلمات مؤسسيها أنكار صريح لوجود خالق لهذا الكون أو لا أقل التشكيك في أصل وجوده إلا أنها كانت في أطار التفكير البراهيمي ولم تجد لها

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٤ - ٢٥٥

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٥

معارضة من كهنة البراهمة ، بل عدت من ضمن المذاهب المثبتة في الفلسفة البراهيمية .

وإنه لمما يفيدنا أن نرى كيف يناقش مفكرو الهنود هذه المسائل في هدوء ، وقل أن يلجئوا فيها إلى اضطهاد أو إهانة ، فقد كانوا يرتفعون بالنقاش إلى مستوى لا يسمو إليه في عصرنا الحاضر إلا ما يدور بين أنضج العلماء من جدل ؛ وإنما ضمن «كابيلا» الوقاية لنفسه من الأذى باعترافه بصحة الفيدات ، وهو يقول «إن الفيدات مرجع صحيح ما دام مؤلفها كان يعرف الحقيقة الثابتة» وبعد أن أرسل هذا القول إرسالاً راح يفكر كما يشاء دون أن يأبه بالفيدات في شيء .

لكنه ليس بالفيلسوف المادي ، بل عكس ذلك هو الصحيح ، لأنه مثالي وروحي على طريقته الخاصة به ، فهو يجعل إدراكنا الحسي مصدراً للعالم الواقع كله ، فما لدينا من أعضاء الحس ومن تفكير يخلع على العالم حقيقته وصورته ومغزاه ، ويستحيل عليه أن تكون له حقيقة أو صورة أو مغزى بالنسبة لنا إلا هذه ؛ أما ماذا يمكن للعالم أن يكون في حقيقته بغض النظر عن حواسنا وأفكارنا فسؤال أخرق ليس له معنى ولا يمكن أن يكون له جواب[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٥٦

مذهب اليوغا

مذهب وثيق الصلة بالسانخيا من وجوه عديدة. ويعتبر الحكيم باتانجالي مؤسس هذا المذهب أما كلمة (يوغا) نفسها فيرجح أنها تعني (التركيز على الذات)، أو (تأمل الذات). ترى اليوغا في الايمان بالإله عنصراً أساسياً للعقيدة النظرية وشرطاً ضرورياً للنجاح السلوك العملي، الرامي إلى تخليص الإنسان من الشقاء والعذاب. أما وسائل هذا الخلاص فتتمثل بين ممارسات التنسك وبين المبادئ الأخلاقية القائمة على التعاطف مع جميع أشكال الحياة وصورها[1].

ويصف لنا ول ديورانت أتباع هذا المذهب بما لفظه: «على سُلَّم المستحمين، ترى «القديسين» جالسين هنا وهناك، يحيط بهم هنود ينظرون إليهم نظرة الإجلال، ومسلمون ينظرون في عدم اكتراث، وسائحون يحدقون بالأبصار؛ ويسمى هؤلاء القديسون باليوجيين؛ وهم بمثابة المعبّر عن الديانة الهندية والفلسفة الهندية تعبيراً ليس بعد وضوحه وغرابته وضوح أو غرابة؛ ثم تراهم كذلك في عدد أقل، في الغابات وعلى جنبات الطرق، لا يتحركون ويستغرقون في تفكيرهم؛ منهم الكهول ومنهم الشباب، منهم من يلبس خرقة بالية على كتفيه ومنهم من يضع

١-موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٠،
الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص ١١٥

قماشاً على ردفيه ، ومنهم من لا يستره إلا تراب الرماد ينثره على جسده وخلال شعره المزركش ؛ تراهم جالسين القرفصاء وقد لفوا ساقاً على ساق، لا يتحركون ، ويركزون أبصارهم في أنوفهم أو سُرَرِهم ، بعضهم يحدقون في الشمس ساعات متواليات بل أياماً متعاقبة ، فيفقدوا إبصارهم شيئاً فشيئاً ، وبعضهم يحيطون أنفسهم بألسنة حامية من اللهب في قيظ النهار ، وبعضهم يمشون حفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رؤوسهم ؛ وبعضهم يرقدون عرايا الأجساد مدى خمسة وثلاثين عاماً على أسرّة من حراب الحديد وبعضهم يدحرجون أجسامهم على الأرض آلاف الأميال حتى يصلون مكاناً يحجون إليه وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال في جذوع الشجر ، أو يزجون بأنفسهم في أقفاص مغلقة حتى يأتيهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم في الأرض حتى الأعناق ويظلون على هذا النحو أعواماً طوالاً ، أو طول الحياة ، وبعضهم يُنْفِذون سلكاً خلال الأصداغ ، حتى يمر من الصدغين ؛ فيستحيل عليهم فتح الفكين ، وبهذا يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظفارهم من ظهور أكفهم وبعضهم يرفعون ذراعاً أو ساقاً حتى تذبل وتموت ؛ وكثير منهم يجلسون صامتين في وضع واحد ، وربما ظلوا في وضعهم أعواماً ، يأكلون أوراق الشجر وأنواع البندق التي يأتيهم بها الناس ؛ وهم في ذلك كله يتعمدون قتل إحساسهم ويركزون كل تفكيرهم بغية أن يزدادوا علماً ؛ وأغلبهم يجتنبون هذه الطرائق التي تستوقف الأنظار ، ويبحثون عن الحقيقة في سكينة ديارهم[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص ٢٦٠ – ٢٦١

وفيما يعتقد البعض أن باتانجالي هو مؤسس مذهب اليوجيين يرى أخرون أن جذور هذا المذهب الهندي تمتد على مدى ألفين وخمسمائة عام ، وإنما جمع «باتانجالي» أجزاء المذهب من أقوال وأفعال في كتابه المشهور «قواعد اليوجا» الذي لا يزال يتخذ مرجعاً في جماعات اليوجيين من بنارس إلى لوس أنجلس ، ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ حين كانوا للقبائل الهمجية - كما يظن هؤلاء - بمثابة الأولياء وهذه الطريقة في التأمل الزاهد التي تعرف باسم «يوجا» كانت موجودة أيام «الفيدات» و «يوبانشاد» و «الماهابهاراتا» كلاهما اعترفتا بهذه الطريقة التي ازدهرت في عصر بوذا[1] .

وقد كانت اليوغا في بادئ الأمر حركات رياضية تنفسية خاضعة للنفثات الحيوية (برانا) ، ثم أصبحت تنظيماً للتفكير مع اعتبار التقشف تعليماً أولياً لها . فيتعين القدرة على وقف نشاط الفكر وامتصاص الوظائف الحساسة في الروح التجريبية (ما ناس) أو في القلب ، بدلا من توجيهها نحو

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص ٢٦٢ حتى الإسكندر قد استوقف انتباهه قدرة هؤلاء الناس على رياضة أنفسهم في تحمل الألم صامتين ، فوقف يفكر في أمرهم ، ثم دعا أحدهم أن يصحبه ليعيش معه، لكن (اليوجي) رفض في عزم وثبات ، وحكيم آخر صحب الإسكندر إلى فارس، وهو (كالأنس) (سنة ٣٢٦ ق. م) فمرض هناك ، واستأذن الإسكندر في أن يموت ، قائلاً إنه يؤثر الموت على المرض ؛ وصعد على كومة من حطب مشتعل ، هادئاً ، واحترق لم يبعث صوتاً ، فأدهش اليونان الذين لم يكونوا قد رأوا قط هذا الضرب من الشجاعة التي تقذف بالنفس في الموت دون أن يكون في الأمر عنصر الاغتيال الإجرامي .

الإحساس الخارجي كما هي طبيعتها ؛ ويتعين أيضاً توسيع وإنماء تركيز الملاحظة على هذه النقطة أو تلك من الجسم ، حتى يتولى الفكر إدارة الوظائف التي أصبحت آلية . ويفخر المتخصصون في هذا التدريب بأنهم استطاعوا أن يوحدوا مجموع مظاهر النشاط الحيوي ويسيطروا عليه ، ويلقوا بمقدرتهم في الإدراك خارج الجسم بعيداً في المسافة وبعيداً في الزمن الحاضر أو المستقبل . وقد ضُم اليُوجيين إلى جميع قواه التكوينية فأصبح ممتلكاً لنفسه ؛ وعندما أصبح هذا المذهب موحداً زعموا أن اليُوجيين يستطيع إنقاذ روحه بإخراجها من الجسد عن طريق قمة الجمجمة ويضمها إلى الذات الإلهية ، لكن هذا معنى آخر ثانوي لكلمة يوجا[١] .

وقد صاغت اليوغا عدداً من القواعد (الرياضية) ، التي تساعد الإنسان على (تطهير) ذهنه (أدران) العالم الخارجي ، وتوجيهه إلى أعماق الذات ، ليدرك الفرق بين (الأنا) وبين العالم فيتحرر من قيوده (أوضاع الجلوس المختلفة ، ضبط التنفس ، وغيرها) ومن بين هذه القواعد أثبتت التجربة صحته ونفعه ، كالأرشادات الخاصة بالتنفس والتغذية . ومنها عبادة الإله ، التي هي الفارق الهام بين إيمانية اليوغا والحاد السانخيا[٢] .

ولنتعرف على مراحل اليوغا الثمان التي يجب على المريد أن يخطوها لبلوغ غايته خطوة خطوة ، فلا سبيل الى بلوغ اليوجا إلى إلا بعد

١ـ الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون - أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص١١٥ - ١١٦ ، الهند القديمة حضاراتها ودياناتها د. محمد اسماعيل النداوي ص١٠٨

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٠ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٢٥-٢٢٦

درس ورياضة للنفس :

١- ياما «أو موت الشهوة ، وهاهنا ترضى النفس بقيود «أشما» و«براهما كاريا» وتمتنع عن كل سعي وراء مصالحها وتحرر نفسها من كل رغباتها وجهادها الماديين ، وتتمنى الخير للكائنات جميعاً .

٢- «نياما» وهي اتبّاع أمين لبعض القواعد المبدئية للوصول إلى اليوجا ، كالنظافة والقناعة والتطهر والدراسة والتقوى .

٣- «أسانا» ومعناها وضع معين للجسد ، والغرض منه إيقاف كل إحساس؛ وأفضل «أسانا» لهذه الغاية هي أن تضع القدم اليمنى على الفخذ اليسرى ، والقدم اليسرى على الفخذ اليمنى ، وأن يتصالب الذراعان وأن تمسك بالإصبعين الكبريين في القدمين ، وأن تحني الذقن على الصدر وتوجه النظر إلى طرف الأنف .

٤- «براناياما» ومعناها تنظيم التنفس ، فهذه الرياضة قد تعين صاحبها على نسيان كل شئ ما عدا حركة التنفس ، وبهذا يفرغ عقله من شواغله استعداداً للخلاء القابل الذي يجب أن يسبق استغراق تفكيره في تأملاته ؛ وفي الوقت نفسه قد يتعلم الإنسان بهذه الرياضة طريقة الحياة على الحد الأدنى من الهواء فيستطيع أن يدفن نفسه في التراب أيام كثيرة دون أن يختنق .

٥- «براتياكارا» ومعناها التجريد ، وهاهنا يسيطر العقل على جميع الحواس ويباعد بين نفسه وبين كل المُحَسَّات .

٦ - «ذارانا» أو التركيز ، وهو أن يملأ العقل والحواس بفكرة واحدة

أو موضوع واحد بحيث يصرف النظر عن كل ما عداه فتركيز الانتباه في موضوع واحد كائناً ما كان مدة كافية من شأنه أن يحرر النفس من كل إحساس ، وكل تفكير في موضوع معين وكل شهوة أنانية ، ما دام العقل قد تجرد عن الأشياء فقد يصبح حراً بحيث يحس الجوهر الروحي للوجود على حقيقته .

٧- «ذيانا» أو التأمل ، وهي حالة تكاد تكون تنويماً مغناطيسياً تنتج عن «ذارانا» ، ويقول «باتانجالي» إنها يمكن استحداثها من الدأب على تكرار المقطع المقدس «أوم» ؛ وأخيراً يصل الزاهد إلى المرحلة التالية التي تعد خاتمة المطاف في سبيل اليوجا .

٨- «ساماذي» أو تأمل الغيبوبة ؛ فهاهنا يمحى من الذهن كل تفكير ، فإذا ما فرغ العقل من مكنونه ، فقد الشعور بنفسه على أنه كائن مستقل بذاته وينغمس في مجموعة الوجود ، ويجمع كل الأشياء في كائن واحد ، وهو تصوّرٌ إلهيّ مبارك ؛ ويستحيل وصف هذه الحالة بكلمات لمن لم يمارسها ، وليس في وسع الذكاء الإنساني أو التدليل المنطقي أن يجد لها صيغة تعبر عنها «فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق اليوجا»[1] .

وقد كانت «اليوجا» في أيام «اليوبانشاد» صوفية خالصة - أعني محاولة تحقيق اتحاد الروح بالله ؛ وتروي الأساطير الهندية أنه في سالف الأيام قد أتيح «لحكماء سبعة» واسمهم (أرشاء) أن يظفروا بالتوبة والتأمل بمعرفة تامة بكافة الأشياء ؛ ثم اختلطت «اليوجا» بالسحر حتى أفسدها في

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٦٣ - ٢٦٥

العهود المتأخرة من تاريخ الهند ؛ وأخذت تشغل نفسها بالتفكير بالمعجزات أكثر مما تفكر في سكينة المعرفة ؛ ويعتقد «اليوجي» أنه بوساطة «اليوجا» يستطيع أن يخدر أي جزء من أجزاء جسده بتركيز فكري فيه وبذلك يجعله تحت سلطانه فيمكنه إن أراد أن يخفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة مهما كان الدافع إليها أو أن يمر في أية لحظة شاء أو من أي جزء شاء من أجزاء الأرض جميعاً ، أو أن يحيى من العمر ما شاء أن يحيا ، أو أن يعرف الماضي أو المستقبل كما يعرف أبعد النجوم[١] .

١ـ ومع ذلك فليس ما ينشده «اليوجيُّ» هو الله أو الاتحاد بالله ؛ ففي فلسفة اليوجا ليس الله «واسمه إشفارا» هو خالق الكون أو حافظه ، وليس هو من يثيب الناس أو يعاقبهم ؛ بل هو لا يزيد على كونه فكرة من فكرات كثيرة مما يجوز لنفس أن تركز فيها تأملها وتتخذها وسيلة لمعرفة الحقيقة ؛ الغاية المنشودة في صراحة هي فصل العقل عن الجسد ، هي إزاحة كل العوائق المادية عن الروح ، حتى يتسنى لها - في مذهب اليوجا - أن تكسب إدراكاً وقدرة خارقتين للطبيعة لأنه إذا نفضت عن الروح كل آثار خضوعه للجسد واشتباكها فيه ، فإنها لا تتحد مع براهما وكفى ، بل تصبح براهما نفسه ؛ إذ أن براهما ليس إلا ذلك الأساس الروحي الخبئ ، ذلك الروح اللامادي الذي لا يتفرد بنفس ، والذي يبقى بعد أن تطرد بالرياضة كل أعلاق الحواس ؛ فإذا الحد الذي تستطيع عنده الروح أن تحرر نفسها من بيئتها وسجنها الماديين ، إلى هذا الحد تستطيع أن تكون براهما بحيث تمارس ذكاء برهمياً وقوة برهمية ؛ وهنا يظهر الأساس السحري للدين من جديد ، حتى ليكاد يتهدد الدين نفسه بالخطر - هو عبادة القوى التي هي أسمى من الإنسان ، أنظر : قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٦٥ - ٢٦٦ .

مذهب بيرفا - ميمانسا

عرفت الهند القديمة عدداً من المذاهب الفكرية التي تعتمد الفيدا كتاباً مقدساً، ومرجعاً حقاً، لا يمسه الباطل، تماماً كالانجيل عند المسيحيين والقرآن عند المسلمين، منها - الميماسا والفيدانتا.

فإن انتقالنا من «اليوجا» إلى «بيرفا- ميمانسا» هو انتقال من أشهر المذاهب الستة للفلسفة البرهمية إلى أقلها شهرة وأهمية؛ وكما أن «اليوجا» أدخلت في السحر والتصوف منها في الفلسفة، فكذلك هذا المذهب أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة، بل هو بمثابة رد الفعل من جانب المتمسكين بأصل الدين لينهضوا به مذاهب الزندقة التي قال بها الفلاسفة؛ فصاحب هذا المذهب، وهو «جيميني» يحتج على «كابيلا» و «كانادا» في إنكارهما لحجة الفيدات، مع اعترافهما بهذه الكتب المقدسة، ويقول «جيميني» إن العقل الإنساني أضعف من أن يحل مشكلات الميتافيزيقا واللاهوت فالعقل مستهتر يقدم نفسه لخدمة الأهواء كائنة ما كانت فهو لا يعطينا «علماً» و «حقيقة» بل يكتفي بصبغ ميولنا الحسية وزهونا بصبغة المنطق؛ إن الطريق إلى الحكمة والسلام لا يمتد في المنطق والتواءاته الفارغة، بل تراه في التسليم المتواضع بما جاء عن طريق الوحي ونقله الخلف عن السلف، وفي الأداء المتواضع للشعائر كما فصّلتها الكتب المقدسة، وهذه وجهة من النظر لا تعدم وجهاً للدفاع[1].

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٦٧

بينما يصف لنا أخرون تعاليم الميمانسا بأنها كانت تهدف إلى دعم تعاليم الفيدا ، بالتركيز على المسائل المعرفية والمنطقية . وهي ترى أن الأنطباعات الحسية اصل من أصول المعرفة ، وأن الأشياء موجودة موضوعياً ، وأن لها خواص موضوعية متنوعة ومتباينة . وثمة مصادر أخرى للمعرفة ، منها الاستدلال المنطقي ، والمقارنة ، وتعاليم الكتب المقدسة والثقات ، والتسليم بيقينية بعض المسلمات المتعذرة على الحس[1] .

مذهب الأفيدانتا

كلمة «فيدانتا» معناها في الأصل ختام الفيدات - أعني اليوبانشاد ؛ أما اليوم فيطلقها الهنود على المذهب الفلسفي الذي حاول أن يدعم بالمنطق بناء الفكرة الأساسية التي وردت في كتب اليوبانشاد - تلك الفكرة التي تسود نغمتها جوانب الفكر الهندي بأسره - وهي أن الله (براهما) والروح (أتمان) شيء واحد ؛ وأقدم صورة وصلتنا لهذه الفلسفة التي هي أوسع الفلسفات الهندية شيوعاً ، هي كتاب «براهما- سوترا» لصاحبه «بادارايانا» حوالي ٢٠٠ ق. م وقوام الكتاب خمسمائة وخمسة وخمسون حكمة ، تعلن أولاها الغاية من الكتاب كله ، وهي «لنفرغ الآن إلى الرغبة في معرفة براهما» ؛ وكادت تمضي بعد ذلك ألف عام ، حين كتب «جودايادا» تعليقا على هذه «السوترات» (أي الحكم) ثم علم «جوفندا» أسرار المذهب ، وهذا بدوره لقّنها لشانكارا ، الذي ألف أشهر ما كتب عن

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٨

الفيدانتا من شروح ، وكان بما ألف أعظم الفلاسفة الهنود جميعاً[١] .

وكان الفيلسوف باداريانا (أو بدارايانا) أول من صاغ الفيدانتا مذهباً متسقاً ومتكاملا . ولكن أنصار هذا المذهب سرعان ما توزعوا إلى شيع وتيارات ، تختلف فيما بينها تبعاً للاختلاف في فهم العلاقة القائمة بين الروح والآله . وقد برز بينها تياران أساسيان ، يقول أولهما بان الروح والآله ماهيتان مختلفتان تماماً . وكان الفيلسوف مادهفا على رأس هذا التيار . أما التيار الثاني ، الذي تزعمه شانكارا ، فيذهب إلى أن هاتين الماهيتين واحد لا يتجزأ[٢] .

بينما استطاع «شانكارا» في حياته القصيرة البالغة اثنين وثلاثين عاماً ، أن يحقق الاتحاد بين شخصيتي الحكيم والقديس ، بين صفتي الحكمة والرحمة ، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبته الهند من صنوف الإنسان ؛ ولد بين جماعة نشيطة في البحث العقلي من براهمة ملبار ، وهم المعروفون باسم البراهمة النمبرديين ، وزهد في ترف الدنيا ، وانخرط في سلك «السامياناسيين» وهو لم يزل يافعاً ، يعبد الآلهة الهندية على اختلافها دون أن يزعم لنفسه القدرة على فهمها على الرغم من أنه كان مغموراً في موجة من التصوف تكشف له عن فكرة «براهما» الواحد الذي يضم الآلهة جميعاً ؛ وخُيّل إليه أنه ما ورد في كتب اليوبانشاد ، هو أعمق الدين واعمق الفلسفة في آن معاً ؛ فهو يستطيع أن يعفوا عن عامة الناس في عبادتهم لآلهة

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٦٨

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٨

متعددة، لكنه لا يجد ما يغفر به عن الإلحاد في «سانخيا» أو عن لا أدرية «بوذا» ؛ سافر إلى الشمال ليمثل الجنوب فيه فاكتسب هناك شهرة في جامعة بنارس ، حدت بالجامعة أن تخلع عليه أسمى ما عندها من أسباب التكريم ، وبعثت به مصحوباً بطائفة كبيرة من الأتباع ، ليذود عن البرهمية في كل ساحات المناظرة في الهند ؛ ولعله كتب وهو في بنارس شرحه المشهور لليوبانشاد ، وألف «بهاجافاد - جيتا» الذي هاجم فيه بحماسة دينية ودقة اسكولائية طوائف الزنادقة في الهند ، وأعاد للبرهمية زعامتها الفكرية التي سلبها إياها «بوذا» و «كابيلا»[(١)] .

ويملي مذهب الفيدانتا على اتباعه ومريديه انصياعاً تاماً وخضوعاً مطلقاً للمعلم ، العارف بحكمة الفيدانتا ، ويوصيهم بتمرين الذهن وشحذه ، وذلك عن طريق التأمل الدائم لتعاليم الفيدانتا ، حتى يتسنى لهم ، أخيراً ، الوقوف على الحقيقة وقوفاً مباشراً وراسخاً .

ويرى الفيدانتيون أن الروح مقيدة بالبدن ، تواقة أبداً إلى الملذات الحسية ، ويذهبون إلى أنها تنتقل من بدن إلى آخر . والسبيل الوحيد لتذليل الجهل الذي يسترق الروح هو الانكباب على دراسة الكتب الفيدانتية . وقد أفضت الفيدانتا ، بوصفها مذهباً مثالياً موضوعياً ، إلى الصوفية والغيبية ، والتوكل والخنوع ، واخضاع الفلسفة للدين[(٢)] .

ولكن ما الله في نظر شانكارا ؟ إنه كما في النفس نفسان: الذات

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٦٨-٢٦٩

٢ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٨

و «أتمان» ، والعالم عالمان : عالم الظواهر وعالم الحقائق فكذلك الرب ربان : إشفارا ، أي الخالق ، وهو الذي تعبده عامة الناس لما يتبدى لهم من مكان وزمان وسببية وتغير ، وبراهما أي الكائن الخالص ، وهو الذي يعبده المتدينون المتفلسفون الذين يبحثون - ويجدون- حقيقة واحدة عامة وراء الأشياء والنفوس المستقل بعضها عن بعض ؛ وتلك الحقيقة الواحدة لا تتغير وسط هذه التغيرات كلها ، ولا تتجزأ رغم هذه الانقسامات كلها . أبدية رغم تغير الأشياء في صورها ورغم كل ما نشاهده من ولادة وموت ؛ فتعدد الآلهة - بل العقيدة في وجود الله نفسها - نتيجة تتفرع عن عالم «المايا» و «الأفيديا» ؛ وهي صور تعبدية تقابل صور الإدراك الحسي والتفكير ؛ وهي ضرورية لحياتنا الخلقية على نحو ما يكون المكان والزمان والسببية عناصر ضرورية لحياتنا الفكرية ، لكن حقيقتها ليست مطلقة ، وليس لها صدق موضوعي في واقع الوجود .

وليس وجود الله معضلة في رأي شانكارا ، لأنه يعرّف الله بالوجود ، ويجعل الكون الحقيقي كله والله شيئاً واحداً بعينه ؛ أما عن وجود إله مشخص ، يكون خالقاً ومُخَلّصاً ، فقد يكون هناك - في رأيه - موضع للشك ؛ مثل هذا الإله في مذهب هذا المفكر الذي سبق «كانت» في تفكيره ، لا تمكن البرهنة عليه بالعقل ، وكل ما نستطيعه إزاءه هو أن نفرض وجوده فرضاً باعتباره ضرورة عملية يهب الطمأنينة لعقولنا القاصرة والتشجيع لأخلاقنا المتهافتة[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢٧٢ - ٢٧٣

الفلسفة في أسفار الأوبانيشاد

وربما يكون خير تعبير عن الفلسفة الهندية قد ورد في (الأوبانيشاد) أهم الكتب المقدسة في الفلسفة الهندية . والأوبانيشاد هي الأجزاء الختامية للفيدا وأساس فلسفة الفيدا وهي على حد تعبير ماكس موللر M. Muller منهاج وصل فيه التأمل الفلسفي الإنساني قمته العليا[1] . وقال شوبنهور: « إنك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو دراسة أسفار يوبانشاد ، لقد كانت سلواي في حياتي - وستكون سلاوي في موتي» .

فلو استثنيت النتف التي خلفها لنا «فتاح حوتب» المصري (في الأخلاق) ، كانت أسفار اليوبانشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر ، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دؤوب ، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولاً أن يفهم العقل وأن يفهم العالم وما بينهما من علاقة ، إن أسفار اليوبانشاد قديمة قدم هومر ، ولكنها كذلك حديثة حداثة «كانت»[2] .

وقد سيطرت الأوبانيشاد على فلسفة وديانة الهند لمدة ثلاث آلاف

١ـ انظر المقدمة الأضافية التي كتبها ماكس موللر لترجمته للأوبانيشاد في The Upanisads : Translated in two Parts by F. Max Muller Dover Publications , Inc New York,١٩٦٢ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٩٣

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٣ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٢١

سنة تقريباً . وأصل كلمة أوبانيشاد من (أوبا) التي تعنى قريب و (تي) التي تعنى أسفل و (شاد) التي تعنى يجلس ، إذ كانت جماعات التلاميذ يجلسون قرب معلمهم ليتعلموا عنه الحقيقة التي تقضى على الجهل . فالكلمة مؤلفة من مقطعين «يوبا» ومعناها «بالقرب» و «شاد» ومعناها «يجلس» ، ومن «الجلوس بالقرب» من المعلم، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الملغز الذي كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه واجهتم إليه .

وفي الأسفار مائة وثمان محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه ، ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامي ٨٠٠ و ٥٠٠ ق. م ، وهي لا تحتوي على مذهب فلسفي متسق الأجزاء ، بل تحتوي على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم ما يزاولان موضوعاً واحداً ، وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا ما فهموا أنفسهم بها توحيداً يحوطه إجلال الورع ، وهذه الأسفار كذلك مليئة بالسخافات والمتناقصات ، وهي في بعض مواضعها هنا وهناك تتسلف الاتجاه الذي سار فيه «هجل» فيما بعد بكل ما قاله من لغو الحديث ، وأحياناً فيها عبارات غريبة غرابة الصيغ التي يستعملها «توم سوير» في معالجته للزوائد الجلدية عند مرضاه ، ولكنها أحياناً أخرى تعرض عليك ما قد تظنه أعمق ما ورد في تاريخ الفلسفة من ضروب التفكير[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٣-٤٤ إننا نعلم

والحقيقة أنه لا توجد أوبانيشاد واحدة بل يوجد ما لا يقل عن مائتين منها ، وإن كان عدد أشهرها عشرة فقط ، علق عليها واهتم بها سامكارا وهو أعظم فيلسوف فيدانتي ويصعب تحديد تاريخ الأوبانيشاد وأن كان يرجح أن أقدمها يعود إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد[١] .

ترتكز تعاليم الأوبانيشاد على تأكيد وجود الإله الواحد الذي تعتبر جميع آلهة الفيدا مظهراً له ، لأننا نخاف ممن تحترق النار لأجله ، ومن تشع الشمس لأجله ، ونخاف ممن تقوم الرياح والغيوم والموت بواجباتها لأجله[٢] .

أن هذا الإله هو الكائن الأعلى وهو الحقيقة الوحيدة القائمة بذاتها وهو لا يحد ولا يوصف بالرموز العضوية أو بالأوصاف المنطقية فهو «الذي

أسماء مؤلفي هذه الأسفار لكننا لا نعلم من حياتهم شيئاً إلا ما يكشفون لنا عنه حيناً بعد حين في ثنايا تعاليمهم ، وأبرز شخصيتين بين هؤلاء هما «ياجنافالكيا» الرجل و « جارجي» المرأة التي لها شرف الانخراط في سلك أقدم الفلاسفة ، وقد كان « ياجنافالكيا» أحد لساناً من زميلته ، ونظر إليه زملاؤه نظرهم إلي مجدد خطر ، ثم جاء الخلف فاتخذ مذهبه أساساً للعقيدة السليمة التي لا يأتيها الباطل ، وهو يحدثنا كيف حاول أن يترك زوجتيه ليكون حكيماً راهباً ، وأننا لنلمس في رجاء زوجته «ميتريي» له أن يأذن لها بصحبته ، كم كان شغف الهند مدى قرون طوال بمتابعة التفكير في الفلسفة والدين .

١- الفكر الفلسفي الهندي راداكراشنا ص٧١-٧٢ ، فكر الهند ألبيرشويتزر ترجمة يوسف شلبي الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ١٩٩٤ م ، ص٣٥-٧٣

٢- الفكر الفلسفي الهندي راداكراشنا ص٩٣

لا يرى ولا يوضع في اليد ، وهو بدون عائلة وبدون قبيلة ، بدون نظر أو سمع بدون يد أو قدم ، هو أبدي موجود في كل مكان ، حاضر في كل زمان ، كثير الذكاء ، هو الذي لا يفنى ، الذي يدركه الحكيم ويعلم أنه أصل الموجودات»[١] .

فإن موضوع أسفار اليوبانشاد هو كل السر في هذا العالم الذي عز على الإنسان فهمه «فمن أين جئنا ، وأين نقيم ، والى أين نحن ذاهبون ؟ أيا من يعرف «براهمان» نبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن هاهنا أحياء .. أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجو ، ذلك الذي كان سبباً في وجودنا ، أم السبب هو من يسمي «بوروشا» ـ الروح الأعلى ؟ ، لقد ظفرت الهند بأكثر من نصيبها العادل من الرجال الذين لا يريدون من هذه الحياة «ما لا يعد بألوف الألوف ، وإنما يريدون أن يجدوا الجواب عما يسألون ، فتقرأ في سفر «ميتريى» من أسفار يوبانشاد عن ملك خلف ملكه وضرب في الغابة متقشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفوا ليفهم ، فيجد حلاً للغز هذا الوجود ، وبعد أن قضى الملك في كفارته ألف يوم ، جاءه حكيم «عالم بالروح» ، فقال له الملك «أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية ، فهلا أنبأتنا عنها ؟» فقال الحكيم منذراً: «اختر لنفسك مآرب أخرى» لكن الملك يلح ، ويعبر في فقرة- لابد أن تكون قد لاءمت روح شوبنهور وهو يقرؤها

١ـ انظر : أوبانيشاد مونداكا ص٩٣ وتميز الأوبانيشاد بين هذا الإله الذي هو براهمان بذاته الذي يتعالى على الظهور والإدراك ، وبين براهمان في الكون الذي يتحقق في الكون وفينا .

- عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ، ذلك الخوف الذي تمتد جذوره في كل ما تطرب به رءوس الهندوس من خواطر وأفكار[١] .

وأول درس سيعلمه حكماء اليوبانشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل ، إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذي تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع في أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ، الذي ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى ذلك أن العقل لا خير فيه ، بل إن له لمكانه متواضعة ، وهو يؤدي لنا أكبر النفع إذا ما عالج الأشياء المحسوسة وما بينها من علاقات ، أما إذا ما حاول فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية ، أو الحقيقة في ذاتها ، فما أعجزه من أداة ! فإزاء هذه الحقيقة الصامتة التي تكمن وراء الظواهر كلها دعامة لها ، والتي تتجلى أمام الإنسان في وعيه ، لابد لنا من عضو آخر ندرك به ونفهم ، غير هذه الحواس وهذا العقل «فلسنا ندرك» أتمان «أي روح العالم (بالتحصيل) ، لسنا نبلغه بالنبوغ وبالاطلاع الواسع على الكتب ... فليطرح البرهمي العلم ليجعل من نفسه طفلاً ... لا يبحثن البرهمي عن كلمات كثيرة ، لأنها ليست سوى عناء يشق به اللسان ، فأعلى درجات الفهم - كما كان سبينوزا يقول - هو الإدراك المباشر ، أو نفاذ الرأي إلى صميم الأمر بغير درجات وسطى ، إنه - كما كان الرأي عند برجسون - هو البصيرة ، التي هي بصر باطني للعقل الذي أغلق - متعمداً - كل أبواب الحس الخارجي ما استطاع إلى ذلك من سبيل أن «براهمان» الواضح بذاته ، قد تخلل فتحات الحواس من داخل حتى لقد

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٥

استدارت هذه الفتحات إلى الخارج ، ومن ثم كان الإنسان ينظر في الخارج ، ولا ينظر إلى نفسه في داخل نفسه ، أما الحكيم الذي يغلق عينيه ويلتمس لنفسه الخلود ، فيرى النفس في دخيلته[١]

وبالنسبة للحياة الأخلاقية للإنسان تشدد الأوبانيشاد على التمييز بين الطريقة الأنانية الضيقة والجاهلة التي يهتم الإنسان فيها بتحقيق الكفاية المؤقتة ، وبين طريق الحكمة التي تقود إلى الحكمة الابدية ، أن «الفضيلة واللذة تأتيان إلى الإنسان وإذ يعالجهما فإن الحكيم يميز بينهما والإنسان الحكيم يختار الفضيلة ، أما الجاهل فإنه يختار اللذة» ، «أن اللذة والفضيلة متباعدتان وكذلك الجهل والمعرفة» والحكيم يرغب في المعرفة ولا يهتم كثيراً بالرغبات[٢] .

أما الطريق الذي ترسمه الأوبانيشاد أمام الفرد للوصول إلى الحقيقة فهو طريق طويل يبدأ بالتهيوء الأخلاقي اللازم إذ «لا يستطيع أحد أن يصل إلى الروح بدون جلد ونظام» وعلى الإنسان حتى يرى الروح أن يصبح «هادئاً مسيطراً على نفسه ، ساكناً ، ويتحمل بصبر ، وقانعاً»[٣] .

أن الهدف من هذا التهيوء الأخلاقي الذي جوهره هجران الأنانية الفردية والصلاة للإله وتقديم القرابين له ، إنما هو الوصول إلى حالة سماوية من الغبطة والسرور أو ولادة جديدة في عالم جديد .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٦

٢ـ أوبانيشاد كاثا قصة ناسيكتاس (الموت) ٢،٤ ص٨٣

٣ـ الفكر الفلسفي الهندي راداكرشنا وشارلز مور ص٧٤

إن الإنسان إذا ما تحرر من الوجود المادي (كارما)[1]، استطاع أن يصل إلى الخلاص (موسكا)، ونجح في الاتحاد بالكائن الأعلى ذلك الذي

١- يقول الهندي إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود النفس تعاني العذاب أو تتمتع بالثواب، جزاء وفاقاً لما وقع من النفس في حياة ماضية من رذيلة أو فضيلة؛ إذ يستحيل على فعل صغير أو كبير، خير أو شرير، أن يمضي بغير أثر؛ إن كل شئ لا بد له من أثر يظهر ذات يوم، ذلك هو قانون «كارما» - ومعناه قانون الفعل - أو قانون السببية في دنيا الروح، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها؛ فإذا أقام إنسان العدل، وكان رحيماً دون أن يقترف خطيئة، فيستحيل أن يجيء جزاؤه في مرحلة واحدة فانية من مراحل الحياة، بل يمتد نطاقه إلى حيوات أخرى يولد فيها ليكون ذا مكانة أعلى وحظ أوفر، لو ظل على فضيلته الأولى؛ أما إن عاش حياته عيش الرذيلة، أعيدت ولادته في حياة تالية منبوذاً أو ابن عِرْس أو كلباً. وقانون «كارما» هذا - مثل قانون القَدَر عند اليونان - هو فوق الآلهة والبشر معاً لأن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون تغيير سننه التي يطّرد فعله ا؛ أو إن شئت فقل ما قاله رجال اللاهوت، وهو أن «كارما» وإرادة الآلهة أو فعلها، شيء واحد بذاته، لكن ليس «كارما» و «القدر» بشيء واحد، لأن «القدر» يتضمن عجز الإنسان عن تقرير مصير نفسه، أما «كارما» فتجعل الإنسان (إذا أخذنا كل حيواته جملة واحدة) خالق مصير نفسه؛ وليست الجنة والجحيم بخاتمة ينتهي عندها فعل «كارما»، وهو سلسلة الولادات والميتات؛ نعم إن الروح بعد موت جسدها، يجوز أن ترسل إلى الجحيم لتلقى عذابها على جرم بعينه، أو أن ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة بذاتها لكن يستحيل على روح أن تقيم في الجحيم، وقليل من الأرواح هي التي يسمح لها بالإقامة في الجنة إلى الأبد؛ ذلك لأن الروح لا بد لها بعد فترة تقضيها في الجنة أو الجحيم، أن تعود إلى الأرض من جديد، لتنفذ بحياة جديدة ما يقضي به عليها «كارما». أنظر قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثالث من المجلد الأول ص٢١٥ -٢١٦.

لا يدرك ولا يعرف إلا من خلال اليقظة الروحية الكاملة ، فعندما تتحرر كل الرغبات التي تسكن قلب الإنسان ، يصبح الفاني خالداً ، عندئذ يصل إلى براهمان ، و عندما تقطع كل عقد القلب هنا على الأرض يصبح الفاني خالداً ... أننا لا ندركه أبداً بالكلام أو بالعقل أو بالنظر . وكيف يمكن إدراكه إلا بقولنا «إنه موجود»[١] .

إن المعرفة بالإله لا تكون اذن إلا لأصحاب الرؤى الكاملة الذين أخذوا أنفسهم منذ البداية بالصبر والزهد والورع ، «فالروح لا تتحقق عند من يعوزه الصبر ولا عند من لا هدف له ، ولا من خلال التفكير الخاطئ للتقشف ، بل يصل أصحاب الرؤى الذي يقتنعون بالمعرفة كسبيل . الذين هم ذوات كاملة أحرار من الإنفعال وهادئون . ويصل إليه ، هؤلاء الحكماء ذوو النفوس الورعة ويدخلون إلى الكل ذاته»[٢] .

تلك إذن هي الخطوة الأولى في «المذهب السري» وهي أن جوهر النفس فينا ليس هو الجسم ، ولا هو العقل ، ولا هو الذات الفردية ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له ، الكامن في دخيله أنفسنا ، هو «أتمان» ؛ وأما الخطوة الثانية فهي «براهمان»[٣] وهو جوهر العالم الواحد

١ـ أوبانيشاد كاتا ص٩١

٢ـ أوبانيشاد مونداكا ص٩٨

٣ـ براهمان معناها هنا روح العالم غير المشخصة ، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذي هو أكثر منها تشخصاً، وهو أحد الثالوث الإلهي (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من لفظة «برهمي» التي تدل على العضو في طبقة الكهنة ، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليتين بملحوظ دائماً فقد تجد براهما بمعنى براهمان

الشامل الذي لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى غير المشخص في صفاته، المحتوي لكل شيء والكامن في كل شيء، الذي لا تدركه الحواس، هو «حقيقة الحقيقة» هو الروح الذي لم يولد ولا يتحلل ولا يموت، أن «أتمان» الذي هو روح الأشياء كلها، هو روح الأرواح كلها، هو القوة الواحدة التي هي وراء جميع القوى وجميع الآلهة، وتحت جميع القوى وجميع الآلهة، وفوق جميع القوى وجميع الآلهة[1].

والخطوة الثالثة من أهم الخطوات جميعاً «أتمان» و «براهمان» إن هما إلا إله واحد بعينه، إن الروح (اللافردية) أو القوة الكائنة فينا هي هي بعينها روح العالم غير المشخص، إن أسفار يوبانشاد لا تدخر وسعاً في تركيز هذا المذهب في عقل طالب العقيدة، فما تزال تكرره وتعيده لا تمل له تكراراً وإعادة وإن قل ذلك السامعون، فعلى الرغم من كل هذه الصور الكثيرة وهذه الأقنعة الكثيرة، فإن هو ذاتي وموضوعي شئ واحد، الإنسان في حقيقته التي تتجرد من الفردية، هو هو بعينه الله باعتباره جوهراً للكائنات جميعاً، يوضح ذلك معلم في تشبيه مشهور:

هات لي تينة من ذلك التين

هذه هي يا مولاي

اقسمها نصفين

ها أنذا قد قسمتها يا مولاي

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٧ - ٤٨

ماذا ترى هناك ؟

أرى هذه الحبيبات الدِقّاق يا مولاي

تفضل فاقسم حُبيبة منها نصفين

ها أنذا قد قسمتها يا مولاي

ماذا ترى هناك ؟

لست أرى شيئا على الإطلاق يا مولاي

حقاً يا ولدي العزيز ، إن هذا الجوهر الذي هو أدق الجواهر والذي لا تستطيع رؤيته

حقاً إنه من هذا الجوهر الذي هو أدق الجواهر قد نبتت هذه الشجرة العظيمة ،

فصدقني يا ولدي العزيز ، إن روح العالم هو هذا الجوهر الذي ليس في دقته جوهر سواه

هذا هو الحق في ذاته

هذا هو «أتمان»، هذا هو أنت يا شاوناكيتو

هل لك أن تزيدني بالأمر علماً يا مولاي ؟

ليكن لك يا ولدي العزيز ....

هذا التقابل بين «أتمان» و «براهمان» وما ينشأ عن تلاقيهما في حقيقة واحدة - الذي يكاد يكون تطبيقاً للتقابل الديالكتيكي عند هجل - هو

صميم أسفار اليوبانشاد، وكثير غير هذا من الدروس نصادفه في هذه الأسفار، لكنها دروس فرعية بالقياس إلى ذلك، ففي هذه المحادثات نرى عقيدة تناسخ الأرواح قد تم تكوينها، كما نرى الشقوق إلى الخلاص من هذه الدورات التناسخية الفادحة، فهذا هو «جاناكا» ملك «الفيديها» يتوسل إلى «ياجنافالكيا» أن ينبئه كيف يمكن التخلص من العودة إلى الولادة من جديد، ويجيب «ياجنافالكيا» بشرح «(اليوجا) أي رياضة النفس فيقول: إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه، لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئياً قائماً بذاته، وأمكنه أن يتحد في نعيم أسمي مع روح العالم، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد، وهنا قال له الملك الذي غلبته حكمه الحكيم على أمره، قال «أي سيدي الكريم، إني سأعطيك شعب الفيديها وسأعطيك نفسي، لنكون لك عبيداً» وإنها لجنّة صارمة تلك التي يعدها «ياجنافالكيا» ذلك الملك المتبتل، لأن الفرد هناك لن يشعر بفرديته، بل كل ما سيتم هنالك هو امتصاص الفرد في الوجود، هو عودة الجزء إلى الاتحاد بالكل الذي انفصل عنه حيناً من الدهر، «فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحر، وتفقد أسماءها وأشكالها، فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله، يفنى في الشخص القدسي الذي هو فوق الجميع»[1].

هذه الفلسفة التي وردت في اليوبانشاد - هذا اللاهوت التوحيدي،

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثالث من المجلد الأول ص٤٨ - ٥٠

هذا الخلود الهندي من بوذا إلى غاندي ، ومن ياجنافالكيا إلى طاغور ، فأسفار اليوبانشاد قد ظلت للهند إلى يومنا هذا بمنزلة العهد الجديد للأقطار المسيحية - مذهباً دينياً سامياً - يمارسه الناس أحياناً ، لكنهم يجلّونه بصفة عامة ، بل إن هذه الفلسفة اللاهوتية الطموحة لتجد حتى في أوربا وأمريكا ملايين بعد ملايين من الأتباع ، من نساء مللن العزلة ورجال أرهقهم التعب ، إلى شوبنهور وإمرسن ، فمن ذا كان يظن أن الفيلسوف الأمريكي العظيم الذي دعا إلى الفردية سيجري قلمه بتعبير كامل للعقيدة الهندية بأن الفردية وهم من الأوهام ؟[1] .

ولنكتفي بهذا القدر من فلسفة أسفار الاوبانيشاد ، لنتعرف معاً على أبرز الفلسفات الهندية القديمة وأهم أنماط التفكير الهندي الناستيكي ، فإن واقع الحياة في الهند القديمة ، كان يتمثل بظهور طبقة الملاحدة والماديين والصراع بينهم من جهة ، وبين كهنة البراهمة وفلاسفة اسفار الاوبانيشاد ، من جهة أخرى كما في المذهب اللوكايتكي ، الذي يعرفنا على طبيعة البيئة الدينية والمادية التي نشأت فيها أهم مذهبين هنديين هما المذهب الجانتي والمذهب البوذي .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الثالث من المجلد الأول ص٥١

مذهب اللوكايتكا

كان مذهب (اللوكايتكا) أو (التشارفاكا) أقدم المدارس الفلسفية المادية في الهند . ومن المرجح أن ظهوره يعود إلى العصر الذي شهدت فيه الهند الانتقال من النظام القبلي إلى الدولة ، وتعزز مكانة فئة التجار جنباً إلى جنب مع الطائفتين القديمتين - الجند والكهنة (البراهمانيين) ، وبدايات تمايز الفلاحين الأحرار والحرفيين من بين العاملين في الزراعة .

وقيل في نشأت هذا المذهب المادي ، أنه جاء على أساس القواعد التي أذاعها «بريهاسباتي» فقد نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها ، وهو «شارفاكا» وكان أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأي القائل : أن أسفار الفيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ، وقالوا في حجاجهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلي لا يعتمد في صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيجيء على غرار الماضي ؛ واليقين في مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان «هيوم» ليقول في الموضوع عندئذ ؛ قال فريق «الشارفاكا» إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ، وإذن فالروح وهم من الأوهام والإله «أتمان» أبطولة من الأباطيل ؛ أننا لا نصادف في تجاربنا ولا في تجارب السالفين ، إذ نستبطن أنفسنا، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة في العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ،

ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج ؛ والمادة هي وحدها الحقيقة التي لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض وما العقل إلا مادة تفكر ؛ والجسم - لا الروح - هو الذي يشعر ويرى ويسمع ويفكر «من ذا الذي رأى روحاً موجودة في استقلال عن الجسم ؟» فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ؛ وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً في شرح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا لأنهم تعوّدوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ، ويشعرون كأنهم في خلاء لا تطمئن له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية[1] .

لذلك تنكر اللوكايتا وجود أي عالم آخر ، غير عالمنا المادي ، وترى أن عالمنا مركب من عناصر مادية أولية ، فليس ثمة موجود إلا هذه العناصر وقوانين أئتلافها . ومن هنا يبطل الايمان بالآلهة والأوراح والحياة الأخروية . وتتألف أشياء الطبيعة من الهواء (أو الريح) والنار (أو النور) والماء والتراب . وبعد موت الكائن الحي ينحلل إلى هذه العناصر الأولية . والوعي موجود واقعياً ، ومتاح للمعرفة البشرية . أنه ليس سمة لماهية روحية ، غير مادية ، بل هو خاصية الجسم المادي الحي . فمن المتعذر فصل شخصية الانسان عن بدنه .

وعلى أساس هذه النظرة إلى الوجود يبني اللوكاياتيون مذهبهم الأخلاقي . الانسان يفرح حيناً ، ويحزن حيناً آخر ، وليس بالامكان

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٥٦-٥٧

الخلاص من العذاب خلاصاً نهائياً، بل يمكنه تحقيقه إلى حد ... وزيادة السرور إلى الحد الأقصى. أما مفاهيم العصمة والخطيئة، الفضيلة والرذيلة، فلا تتعدى كونها من تلفيقات واضعي (الكتب المقدسة)، شأنها في ذلك شأن الطقوس والقرابين، والجحيم والنعيم، وغيرها من الأمور الباطلة، وقد شابت اللوكاياتا، فيما بعد، بعض عناصر من الريبية، تجلت في التوقف عن الحكم في المسائل التي تحتمل إجابات متناقضة[١].

فإن الأخلاق عند التشارفاكا أمر طبيعي؛ فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع، وليست بالأمر الصادر من الله؛ والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر، لفضيلة أو رذيلة، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر؛ ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس؛ الفضيلة غلطة من الغلطات، وغاية الحياة هي أن تعيش، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً[٢].

كانت الفلسفة الثائرة التي أخذ بها فريق «الشارفاكا» ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار اليوبانشاد؛ وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندي، وتركت في المجتمع الهندوسي فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً؛ لكن أنصار المذهب المادي هؤلاء كانوا قد

١- موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٧-٢٨

٢- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٥٧

أجادوا أداء مهمتهم إجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل العقيدة الفيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبديتين بغير إله - ولو أن هذا القول قد يبدو للقارئ تناقضاً - فكلتا الديانتين الجديدتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاهما لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من «الكشاترية» أي طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس الكهنوتية ؛ وبظهور هاتين الديانتين ، وهما الجانتية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندي عصراً جديداً.

المذهب الجايني (الجاينية)

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ولد صبي لرجل ثري من أشراف قبيلة «لِشَّافي» في ضاحية من ضواحي مدينة «فابشالي» في الإقليم الذي يسمى الآن بالإقليم «بهار» [1] وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادي والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فأطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، وخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب في أرجاء الإقليم الغربي من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعلماً ، وبعد

١- يروي الرواة أن ماهافيرا عاش بين سنتي (٥٩٩ - ٥٢٧ ق. م) لكن جاكوبي يعتقد أن (٥٤٩ - ٤٧٧ ق. م) أقرب إلى الصواب.

أن قضى في إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه «جنا» أي قاهر ؛ ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر - هكذا كانوا يعتقدون - أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسماً جديداً هو «ماهافيرا» أو «البطل العظيم» واتخذوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم ، فأطلقوا على أنفسهم اسم «الجانتيين» ونظم «ماهافيرا» طائفة من رجاله يكونون رهباناً عزاباً ، وطائفة من النساء يكن راهبات عانسات ؛ فلما أن جاءته منيته وهو في الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من أشياع مذهبه[1] .

وهكذا ظهرت الجاينية كحصيلة لتطوير تعاليم (حكماء الهند) القدامى . وقد سميت كذلك نسبة إلى مؤسسها فاردهمانا (القرن السادس قبل الميلاد) ، آخر هؤلاء الحكماء ، الذي لقب بالمنتصر (جاين) ، وعرف اتباعه بالجاينيين . وتشكل الآراء الأخلاقية محور هذه الفلسفة . وهي تهدف إلى تبيان سبل (انعتاق) الروح البشرية من أسر كافة النزوات والشهوات . وقد أصبحت هذه الأفكار الأخلاقية ، فيما بعد ، تقليداً أصيلاً عند عدد من المذاهب الهندية اللاحقة .

(الاستنارة الالهية) - هدف الفلسفة الجاينية كلها . وهي نمط خاص من السلوك ، ويتم بواسطته الانعتاق المذكور ، ولم تكن الجاينية تعتبر الاله

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٥٨ - ٥٩

مصدراً للحكمة ، فالحكمة ، عندها ، إنما تأتي من أولئك القديسين ، الذين بلغوا درجة رفيعة من القوة والسعادة بفضل كمال معارفهم واستقامة سلوكهم النابع من هذه المعرفة .

وتستند الجاينية - كمذهب أخلاقي - إلى رأي خاص في الوجود ، يذهب إلى وجود مجموعة أشياء ، واقعية وثابتة وجوهرية ، وأخرى - عرضية وزائلة . وبين الجواهر (تاتفا) غير الحية تحتل المادة (بودغالا) مكانة متميزة . وتكون المادة اما مجزأة إلى عناصر لا تنقسم (ذرات) ، أو مركبة على شكل ائتلاف لهذه الذرات . ومن الجواهر الأخرى غير الحية هناك المكان والزمان والحركة والسكون[١] .

ويشكل الوعي القرينة الأساية للنفس ، ولكن درجات الوعي تختلف من نفس إلى أخرى . والنفس كاملة بطبعها ، فلا حدود لقدراتها وامكانياتها . فالمعرفة الكاملة والجبروت الكلي والسعادة اللامحدودة مفتوحة امام النفس . غير أن النفس تنزع للاتحاد بالجسد ؛ وهي ، في كل لحظة ، حصيلة مجمل حياتها الماضية - مجمل تصرفاتها وأحاسيسها وأفكارها . وإن السبب الرئيسي في تبعية النفس هو انقيادها للرغبات والشهوات ، مما يعود إلى الجهل بالحياة . ولذا تقع على عاتق المعرفة مهمة تحرير النفس من أسر المادة . أما شرط المعرفة الحقة فيقوم لا في الثقة بشخص المعلم فحسب ، بل وفي السلوك القويم القويم أيضاً . ثم أن (الانعتاق) ، الذي يشكل الهدف الأساسي للتعاليم الجاينية ، يجب أن يؤدي

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٤

إلى فصل النفس عن المادة فصلا تاماً ، وذلك عبر الزهد والتنسك[1] .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعي ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبي الذي يقع في الزمان ؛ فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلاً ؛ وكان يلذ لهم دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن على أن الفيل مروحة ضخمة لذر الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال أن الفيل عمود مستدير كبير ، فالأحكام كلها - إذن - محدود بحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذي يظهرون على فترات منتظمة ، أو طائفة «الجنا» كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الفيدا لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال في التدليل على ذلك أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون أنه ليس من الضروري أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض بقوله إن الخالق الذي لم ُيخْلَق أو السبب الذي لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة على الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التي لانهاية لها ترجع إلى قوى كامنة في الطبيعة ، من

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٥

أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله[١].

والطريق المؤدية إلى الخلاص في رأي الجانتيين، هي توبة تقشفية، واصطناع «أهْمِساً» موفورة كاملة، و«أهمسا» معناها الامتناع عن إيذاء أي كائن حي؛ ولزام على كل متقشف جانتي أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة؛ ألا يقتل كائناً حياً، وألا يكذب، وألا يأخذ ما لم يعطه، وأن يصون عفته، وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها؛ وفي رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً؛ والمثل الأعلى هو ألا تأبه للذة أو ألم وأن تستغني استغناءً تاماً عن الأشياء الخارجية كلها؛ فالزراعة حرام على الجانتي لأنها تمزق التربة وتسحق الحشرات والديدان؛ والجانتي الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل، ويصفى الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات؛ ويغطى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة في الهواء فيقتلها، ويحيط مصباحه بستار حتى يقي الحشرات لذع النار، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشي خوفاً من ن تدوس قدمه الحافية على كائن حي فترديه؛ ولا يجوز للجانتي أبداً أن يذبح حيواناً أو يضحي به؛ ولو كان «جانتياً» صميماً أقام المستشفيات والمصحات - كما ترى في احمد أباد - للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى؛ والحياة التي يجوز له أن يزهقها هي حياته دون غيرها؛ فالعقيدة الجانتية تجيز الانتحار ولا تقيم في سبيله العقبات، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء؛ ولقد مات

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ...

جانتيون كثيرون على هذا النحو، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا - حتى في عصرنا هذا - بتجويع أنفسهم حتى الموت[1].

المذهب البوذي (البوذية)

تشكلت الديانة البوذية في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. وقد جاءت هذه الديانة مناوئة للديانة البراهمانية القديمة، وانتشرت، أول الأمر، في الأوساط المدينية الفقيرة، حيث بلغت التناقضات أوج وحدتها.

وبعد مقاومة اعترفت الطابقات الحاكمة بالبوذية وأيدتها، فقد رأت فيها أداة للحفاظ على مصالحها الطبقية. صحيح أن البراهمانية كانت تدافع عن سلطة الكهنة خاصة بينما تميزت البوذية بنزعة قوية معادية لهم، ولكن البوذية لم تكن تشكل خطراً حقيقياً على الفئات السائدة، فقد كانت، هي الأخرى، دين خضوع واستسلام[2].

والبوذية ديانة عالمية، شأنها في ذلك شأن المسيحية والاسلام، وهي تقوم على اسطورة الأمير سد هاربا، أو غاوناما بوذا (أي المستنير)، نبي

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص ٦١ ولقد كان غاندي شديد التأثر بالمذهب الجانتي، واصطنع «أهمسا» - ومعناها الامتناع عن إيذاء الكائنات الحية على اختلافها - أساساً لسياسته وحياته، ورضي من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفيه، ولم يكن يستحيل عليه أن يزهق نفسه جوعاً؛ ومن يدري؟ فلعل الجانتيين يسلكونه في طائفة «الجنا»، فيعدونه تجسّداً جديداً للروح العظمى التي تتقمص جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلص العالم.

٢- موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص ٢٥

هذه الديانة . ومن المرجح أن بوذا هذا قد عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، في حين ظهرت المؤلفات البوذية في وقت متأخر . وكانت (التريبيتاكا) (سلات الحكمة الثلاث) المحاولة الأولى لصباغة البوذية مذهباً متسقاً ومتكاملا . ويدور الجزء الثالث منها حول المسائل الفلسفية . وقد انتشرت البوذية في شرق الهند وجنوبها ، وفي سيلان وبورما وسيام ، وامتد فرع منها إلى مناطق التبيت والصين واليابان[1] .

لقد اعتنق بوذا - أشهر فلاسفة الهند وزعيم واحدة من أكبر الديانات العالمية منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى الآن - بعض الأفكار التي وردت في الأوبانيشاد وأكسبها روحاً جديدة تتفق مع الأحوال الجديدة للحياة وللفكر الذي ارتضاه لنفسه ولأتباعه .

وكان لظهور طبقة الملاحدة والشكاكين في الأوساط الفكرية الهندية أثراً على في تفكير بوذا والتصدي لهم ، فإننا نجد في أسفار اليوبانشاد نفسها تدل على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى في أيام اليوبانشاد ؛ فقد كان الحكماء أحيانا يسخرون من الكهنة ، مثال ذلك في سفر «شاندوجيا» من أسفار اليوبانشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين في تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها ذيل سابقه ، وهو يقول في ورع : «أم دعونا نأكل ، أم دعونا نشرب» ، وفي سفر «سواسانفد» من أسفار اليوبانشاد تصريح بأنه لا إله ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وإن أسفار الفيدا واليوبانشاد ليست إلا تأليفاً من عند

١- موجز تاريخ الفلسفة تاليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٢٥

جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأفكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد، و «بالقديسين» .

والحق - كما ينقل لنا ول ديورانت - أنه كلما كشف لنا البحث العلمي عن شخصيات لم تكن في المنزلة العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين في تأملاتهم عن إلههم «براهما» ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشكت في الآلهة ، وسميت - دون أن ترتاع لهذا الاسم - سميت بطائفة «اللا أدريين» و «العدميين» ؛ فمثلاً رفض «سانجايا» اللا أدري أن يثبت أو أن ينفي الحياة بعد الموت ، وتشكك في إمكان حصول الإنسان على العلم اليقيني ، وحصر الفلسفة في محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أبى «بورانا كاشيابا» أن يعترف بالفوارق الخلقية ، وعلم الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دفعاً ؛ وذهب «ماسكارين جوسالا» إلى أن القدر قد خط في لوحه كل شئ يصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد «أجيتا كاسا كامبالين» الإنسان إلى عناصر هي التراب والماء والنار والهواء ، وقال : «إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت» ، ولقد صور لنا مؤلف «رامايانا» صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا «جابالي» الذي جعل يسخر من راما «لأنه رفض مملكة ليفي بوعد تعهد بالوفاء به» [(١)] .

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٥٣ ، حضارة الهند روميش تشاندردات ترجمة مجموعة أقرا ص٨٣.

مضافا إلى ذلك كان لأفراغ الجانتيين السماء من إلهها ، وتعميرها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين وراحوا يعبدونهم مخلصين لهم العبادة ويقيمون لهم الشعائر فكانت العقيدة الجانتية ، قائمة على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان ذلك هو واقع الحياة الدينية ، والصراع الفلسفي والفكري في وقت مجيء بوذا .

فإنه لما شب رجلاً ، وجد القيعان والشوارع بل وجد الغابات في شمال الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفي ، كان في جملته ينحو نحواً إلحاديا مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من «يوبانشاد»، كما ترى أقدم الأسفار البوذية ملئاً بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين - ويسمونهم باريباجاكا أو المتجولين - تنفق أحسن أيام السنة في الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين في البحث الفلسفي ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذي تستطيع به أن تبرهن على أي شئ ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم «من يشققون الشعرة» أو «من يتلون تلوي ثعابين الماء»؛ وآخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والمناقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحيانا يكافئون الظافرين في أمثال هذه الحلبات الفكرية ؛ حقاً لقد كان عصراً يدهشك بحرية فكره ، وبألوان التجارب التي أجراها أهله في عالم الفلسفة .

عاش بوذا فيما بين عامى ٥٦٠ أو ٥٦٧ أو ٤٨٠ قبل الميلاد تقريباً[١] عاش حياة تتشابه ملامحها كثيراً مع ملامح حياة زعماء الديانات الكبرى في العالم ، فقد صورت حياته بصورة أسطورية فيها من الخيال الكثير بلا شك ، لكنها على أية حال حياة مفكر مصلح وقف بعد طفولته وشبابه موقفاً فلسفياً جديراً بالإعتبار حيث يتساءل بعد أن هجر حياة الرغد والرفاهية إلى حياة التقشف والزهد عن حقيقة الوجود . وتحولت حياته بعد ذلك تحولاً تاماً حيث أكتشف أن حقيقة الوجود إنما تكمن في الألم فكل وجود في حقيقته إنما هو ألم ، وأن من المهم في أي حياة إنما هو التخلص من الألم ، وهذا التخلص من الألم لا يكون إلا بسلوك طريق المعرفة والإستنارة[٢] .

ولادة بوذا وحياته

يذكر لنا سفر من أسفار «جاتاكا» أنه في ذلك الوقت :

«في مدينة كابيلافاستو» أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة «مايا» قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكتفية بما أغرقت به ولائمها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفي اليوم السابع - يوم اكتمال البدر - استيقظت مبكرة واستحمت في ماء عبق بالعطر ، وأحسنت للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد ؛ ولما أخذت زخرفها وازينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ،

١- فلاسفة إنسانيون كارل ياسبرز ترجمة عادل العواء ص٥٨

٢- أنظر : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص١٠٠-١٠١ ، الفلسفات الكبرى بيير دوكاسيه ترجمة جورج يونس ص١٧

وقطعت على نفسها عهود «أبوساذا»[1] ثم دخلت مخدعها الرسمي المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها في سريرها ويأخذونها إلى جبال الهمالايا ويضعونها على هضبة مانوسيلا ... ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتانا ، ويغمسنها في الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزينها بالزهور القدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلاً من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ؛ وهاهنا انقلب «بوذيساتاوا»[2] فيلاً أبيض ؛ وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب ، فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفي جعبته التي أشبهت حبلاً من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعدئذ نفخ في الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر لها

١ـ هي عهود تقال في أربعة أيام مقدسة من كل شهر ، وهي أيام البدر والهلال واليوم الثامن بعد كل منهما.

٢ـ شخص أراد له القدر أن يكون بوذا، ومعناها هنا «بوذا» نفسه، ومعنى كلمة بوذا «المستنير» وهي بين كثير من الألقاب التي تخلع على «السيد» الذي كان اسمه الشخصي «سدذارتا» واسم عشيرته «جواتاما» ؛ كذلك كان يسمى «شاكيا- موني» ومعناها «حكيم جماعة شاكيا» كما كان يسمى أيضا «تاذاجاتا» ومعناها «الرجل الذي ظفر بالحق» ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب أبداً فيما نعلم. انظر : قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٦٥

كأنه يدخل رحمها ؛ وبهذا تلقى ... حياة جديدة .

واستيقظت الملكة في اليوم التالي وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، وخلع عليهم خلع التكريم وأشبعهم طعاماً فاخراً وقدم إليهم الهدايا ؛ فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذائذ كلها ، أمر بالحلم أن تقص عليهم قصته ، واستفسرهم ما يكنه الغيب ، فقال البراهمة : لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ، وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح بوذا ، وسيكون في هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) .

وحملت الملكة «مايا» «بوذيساتاوا» عشرة أشهر كأنه الزيت في القدح ، ولما أن جاءها أو أنها رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب إلى الملك «شدذوذانا» قائلة: «أريد أيها الملك أن أذهب إلى «ديفاداذا» مدينة أسرتي فوافق الملك وأمر بالطريق من «كابيلا فاستو» إلى «ديفاداذا» أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها في هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها في حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حرج يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح فيه الناس يتألف من أشجار «الملح» ويسمى «حرج لمبيني»، وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذي يغطي الأشجار من جذورها إلى رؤوسها ... فلما رأته الملكة رغبت في أن تمرح في الحرج ، وذهبت إلى جذع شجرة كبيرة من أشجار «الملح» وأرادت أن

تمسك بغصن من غصونها، فانحنى الغصن حتى بات في متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ، ومدت يدها وتناولته ، وفي هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لها الحاشية ستاراً يسترها ، وأبعدت عنها ، فوضعت وليدها وهي لم تزل واقفة ممسكة بغصن الشجرة في يدها ؛ ولم ينزل «بوذيساتاوا» ـ كما ينزل سائر الأطفال من أجواق أمهاتهم ـ ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل «بوذيساتاوا» كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لا يلوثه القذر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسي ، هكذا هبط من جوف أمه .

وفوق ذلك ينبغي أن تعلم أن عند مولد بوذا ظهر في السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها لتمد له أيدي المعونة ، وأقبل الملوك من نائي البلاد يرحبون بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صورة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهانئ في ثلاثة قصور «كأنه إله»، وكان أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوي ، شر الاتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ، عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمي إلى طبقة «الكشاترية» - أي المقاتلين - أحسن تدريبه في الفنون العسكرية ، ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية كلها التي كانت شائعة في عصره ؛ وتزوج

وأصبح والداً سعيداً بحياته ، وعاش في ثراء ودعة وطيب أحدوثة[1].

ويروى الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس ، وهنالك رأى شيخاً كهلاً ؛ وخرج يوماً ثانياً فرأى رجلاً مريضاً ؛ وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروي القصة بنفسه - كما نقلها عنه أتباعه في الكتب المقدسة - يرويها فيحرك في نفسك كامن الشعور :

«وبعدئذ أيها الرهبان جرت خواطري على النحو الآتي - فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة - قلت لنفسي : إن رجلاً جاهلاً من سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحي وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل ، لأنه يتصور نفسه في مثل حالته ؛ إنني كذلك قابل للشيخوخة ، ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغي لي - وأنا القابل للشيخوخة - إذا ما رأيت

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٦٥ - ٦٧ ، البوذية مقدمة قصيرة جدا تأليف داميان كيون ترجمة صفية مختار ص٢٩ - ٣٠ يذكر لنا بعض الباحثين أن بوذا كان اسمه الشخصي هو سيدهاتا (سدهارتا في اللغة السنسكريتية) واسم عائلته غوتاما عاش في شمالي الهند في القرن السادس ق . م أبوه سودهودانا كان يحكم مملكة ساكيا في نيبال الحالية . وامه هي الملكة مايا . وبحسب العادة في عصره تزوج صغير السن جداً في السادسة عشر من عمره من أميرة صغيرة السن جميلة وموهوبة اسمها ياسودهارا ... أنظر : بوذا والبولا راهولا ترجمة يوسف شلب ص٧، وانظر أيضا : حضارة الهند روميش تشاندردات ترجمة مجموعة أقرا ص٨٥ .

شيخاً كهلاً ، أن أضطرب وأن أستحي وأن تعاف نفسي ؟ لم أر ذلك مما يليق ؛ ولما طاف برأسي هذا الخاطر ، ذهب عني بغتة كل تيه بشبابي

وهكذا أيها الرهبان ، قبل أن أهتدي سواء السبيل ، لما وجدتني ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت في طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ؛ ولما وجدتني ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت في طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسي : مادمت أنا نفسي ممن تجوز عليهم الولادة ، فماذا لو بحثت في طبيعتها ... فلما رأيت ما في طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ؛ هذه النظرات كانت بداية «التنوير» عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه في لحظة ، كذلك حدث لبوذا أن صمم فجأة أن يترك أباه[1] وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب في الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه «راهولا» نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، ففي فقرة يقدسها اتباع «جوتاما» جميعاً ، أنه في هذه اللحظة عينها :

«كان مصباح يضيء بزيت عبق ، وكانت أم «راهولا» نائمة على سرير مليء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر «بوذيساتاوا» - بوذا المنتظر - وقدماه عند الباب ، وقال

١ـ ماتت أمه في ولادته .

لنفسه :

«لو أزحت يد الملكة لآخذ ابني ، فستستيقظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلاً دون فراري ؛ إنني إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه» ونزل من القصر .

وفي ظلمة الصباح الباكر خلف المدينة على ظهر جواده «كانثاكا» يصحبه سائق عربته «شونا» وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له «مارا» أمير الشر ، وأغواه بمُلك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض فوثب من شاطئه إلى شاطئه بوثبة واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه اللفتة ليرى ؛ ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى وراء .

ووقف عند مكان اسمه «يوروفيلا» يقول: «قلت لنفسي إن هذا المكان رائع ، وإن هذه لغابة جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث في النفس السرور ، وكل ما حولي مروج وقرى» وهاهنا في هذا الموضوع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب «اليوجا» - رياض النفس - التي كانت قد ظهرت قبل ذاك في ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان

يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزاً؛ وكثيراً ما كان يرتاد مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش ، فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اسمع له مرة أخرى يروي لك قصته :

«قلت لنفسي : ماذا لو زممت الآن أسناني ، وضغطت لساني إلى لهاتي ، وألجمت عقلي وسحقته وأحرقته بعقلي (وهكذا فعلت) ونضح العرق من إبطي ... ثم قلت لنفسي : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفي وفمي ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذني ... وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجت الرياح العنيفة رأسي ... ثم قلت لنفسي : ماذا لو قللت من طعامي ، فلا آكل اكثر مما تسع راحتي من عصير الفول أو العدس أو البسلة أو الحمص ... فضمر جسدي ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست ، في هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتي إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفاً من رؤوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عيني تبرقان عميقتين وطيئتين في محجريهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيئاً في بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسي كما تتشقق وتذوي القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهي فجة ، بفعل الشمس والمطر ؛ ولما كنت أمد يدي لأمس جلدة بطني ، كنت أجدني في حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهري ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أني إذا ما

أردت برازاً وجدتني انبطح على الأرض سطيحاً، وكان من أثر تقليل الطعام أني إذا أردت راحة لجسمي وأخذت أدلكه بكفي، كانت الشعرات الذاوية تساقط منه»

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهي أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد؛ وربما كان في ذلك اليوم أشد جوعاً منه في سائر الأيام، أو ربما ثارت في نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال؛ ذلك أنه لم يلحظ تنويراً جديداً يأتيه من هذه الحياة القاسية بزهدها؛ «إنني بمثل هذه القسوة لا أراني أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية»؛ بل الأمر على نقيض ذلك، إن تعذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور الزهو بنفسه مما يفسد أي نوع من أنواع التقديس التي كان من الجائز أن تفيض من نفسه؛ فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل وجلس هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها، مصمماً ألا يبرح ذاك المكان حتى يأتيه التنوير؛ وسأل نفسه: ما مصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان في مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهي؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة؛ وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد وخيبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد. وهكذا.

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ... ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة؛ وبنظرة قدسية مطهرة إلهية، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دنية أو سنية، خيرة أو شريرة، سعيدة

أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيتلقى كل فعل خير ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، في هذه الحياة، أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر.

بوذا والفلسفة البوذية

يقول ول ديورانت : «إن رؤية بوذا لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفي على الرائي ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هي التي جعلته يزدري الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها لا تقف فيه عند حد ، أنها ماضية إلى الأبد في طريقها تعيد إلى مجرى الأحزان البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة ... لماذا لا نقفها ؟ لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح ، لكي يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور في حيواتها الماضيات ؛ وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدي خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهي - عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيض معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التي هي أولى أوهام الإنسانية وأسوأها آثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيالها من سكينة تحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ! - وهل ترى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو ، قد عرف إلى

السكينة سبيلاً ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هي ممكنة في هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هي ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم أنصار كثير من الديانات ، أما ما يمكن أن نظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذي نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضاها متأملاً ، أدرك «النبي المستنير» سبب ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو «المدينة المقدسة» مدينة بنارس ، وهناك في روضة الغزلان عند «سارنات» طفق يبشر الناس بالنرفانا[1] .

وهذا ما أخذه بوذا على عاتقه ونقله إلى تلاميذه ومريديه ، أنها الفلسفة البوذية الإنسانية التي تقوم على إدراك حقيقة الوجود في كلمة واحدة هي (الألم) فبوذا يرى أن الولادة ألم ، الشيخوخة ألم ، المرض ألم ، الاتحاد بما لا نحب ألم ، الانفصال عما نحب ألم . وعدم الوصول إلى ما نرغب ألم .

أما حقيقة الألم فهي الظمأ الذي يقود إلى ولادة جديدة ، متصلة بالفرح وبالرغبة ، ظمأ للذة ، ظما للصيرورة ، ظمأ للزائل . وإذا ما أردنا أن نتجاوز الألم وأن نتخلص منه ، فليس أمامنا إلا أن نتجاوز ذلك الظمأ بإبادة كل اشتهاء ابادة تامة ، مما يفسح المجال أمام هذا الظمأ بأن يتركنا ويمضى في سبيله وينصرف عنا ، فنتجرد منه .

والطريق الصحيح الذي يقودنا إلى تجاوز الألم هو طريق طويل ذو

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٧١-٧٢

ثمانية مسالك أو شعب هي : الاعتقاد الصحيح ، القرار الصحيح ، الكلام الصحيح ، الأفعال الصحيحة ، الحياة الصحيحة ، التطبيق الصحيح ، الأفكار الصحيحة ، التأمل الصحيح[١] .

إن تلك المبادئ كانت أول ما توصل إليه بوذا من تأملاته ولقنه لأول تلاميذه وحوارييه حينما قال لهم : «أيها الرهبان حدان متناقضان يجب أن يبتعد عنهما الذين تخلو عن الحياة الدنيا الأول هو الإنسياق في الملذات وهذا أمر سافل وعقيم ، والثاني هو طريق التقشف واماتة الجسد وهذا أمر مؤلم وعقيم أيضاً .

ودون أن أترك لنفسي العنان وراء أي من هذين الطريقين ، فقد وجدت بعد تفكير طويل طريقاً وسطاً يفتح العيون ويوقد العقل للراحة والمعرفة والإشراق والنرفانا إنه طريق طويل بثمانية مسالك هي : عقل مستقيم ، وحزم ، وقول ، وعمل ، وحياة ، وجهد ، وتفكير ، وتأمل»[٢] .

إن من يبلغ المعرفة عبر هذا الطريق يتحرر من الألم وفي ذات الوقت يتحرر من الولادت المتكررة على هذه الأرض (أي من التناسخ) ، ويعيش حياة السكينة الدائمة (النرفانا) .

وحينما سئل بوذا عن الحيوات السابقة (التناسخ) فقال : إن الإنسان مركب من جسم وروح ، يفنى الجسم فقط بينما تبقى النفس ويطول عمرها

١ـ فلاسفة إنسانيون كارل ياسبرز ص٧٦ ، دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٢٩ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٧٥-٧٦

٢ـ الفلسفات الهندية علي زيعور ص٢٠٦

وتعيش في كثير من الاجساد متعذبة هائمة على الأرض حتى صفو وتنقى وعندئذ ترتفع إلى النرفانا. وحينما سئل عن النرفانا؟ قال: «لا يهم معرفة ما هي. إن مهمة الإنسان هي بلوغ الكمال حتى تتخلص روحه من حياة الأرض وتكون قادرة على اجتيازعتبة النرفانا»[1].

ورغم أن بوذا لم يجب بصراحة عما هي النرفانا، إلا أنها ببساطة هي فقدان الأحساس بالأنا والأخر، هي فقدان الثنائية، وهي ليست كوناً ولا فساداً، وهي مما يتعذر معرفته في العالم بوسائل العالم. ولذلك فليست موضوع بحث بل هي موضوع اليقين الأخير عند بوذا إذ «يوجد خارج الولادة والصيرورة وخارج الأشكال، شيء بدونه لا يوجد أي مخرج، هناك محل ليس فيه أرض ولا ماء، ولا هواء ولا نور ولا مكان، ولا عقل ولا أي شيء من الأشياء ... ليس فيه أساس ولا توقف ولا تقدم ... أنه نهاية العذاب»[2].

ولكن لنا أن نتسائل ما «النرفانا»؟ أنه من العسير أن تجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً، لأن الزعيم - كما عرفت - قد ترك الموضوع غامضاً، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير؛ فالكلمة في السنسكريتية بصفة إجمالية معناها «منطفئ» كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان :

١ـ الفلسفات الهندية علي زيعور ص٢٠٧

٢ـ فلاسفة إنسانيون كارل ياسبرز ص٨٦-٨٧

١ـ حالة من السعادة يبلغها الإنسان في هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً .

٢ـ تحرير الفرد من عودته إلى الحياة .

٣ـ انعدام شعور الفرد بفرديته .

٤ـ اتحاد الفرد بإلهه .

٥ـ فردوس من السعادة بعد الموت .

أما الكلمة في تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك الإنكار للذات من ثواب وأعني به الفرار من العودة إلى الحياة ؛ وأما في الأدب البوذي ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس في هذا الأدب مراراً بأنه اصطنع النرفانا في حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهي : السيطرة على النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس ؛ تلك هي مكنونات النرفانا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التي تسبب وجودها ، أما العامل المسبب لوجودها ، والمصدر الذي تنبثق عنه النرفانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ؛ وعلى ذلك تتخذ كلمة «نرفانا» في معظم النصوص معنى السكينة التي لا يشوبها ألم ، والتي يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خلقياً[١] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٨٤ – ٨٥، بوذا والبولا راهولا ترجمة يوسف شلب ص٢٧

إن حديث بوذا عن النرفانا والطريق إلى تحقيقها بوأد الألم والتخلص منه ومن مسبباته قد يلفت انتباهنا إلى أنه ركز في فلسفته على الإنسان وعلى رسم طريق الخلاص أمامه، وهذا حق، لأن البوذية كانت في واقع الأمر مع الإنسان ضد من يجعلونه ريشة في مهب الريح، فقد كان البراهمة في عصر بوذا نفسه يرون أن على الإنسان أن يلقى بأثقاله على عاتق القدر، وأن يستسلم له. ولكن بوذا حاول تحرير الإنسان من هذا الوهم قائلاً: إن رجل الشهوات هو عبد لشهواته» و «أن أعمالنا هي التي تنتج الخير والشر»[١].

كما صرح في مواقف عديدة بأن الإنسان يملك زمام نفسه ويستطيع العروج بها إلى أعلى مراتب الكمال ليمنحها مركزاً مرموقاً كما أنه يستطيع أن يهوى بها ليصبح شيطاناً أو حتى معلماً للشياطين، فالإنسان من هذا المنظور البوذي يستطيع أن يكتسب كل فضيلة وأن يخدم مجتمعه وأن يجعل من نفسه مستنيراً مرشداً خالداً شبه إله بل وإلها لها. وها هي التعاليم البوذية المقدسة تقول «من لا ينهض حتى يحين وقت نهوضه على رغم قوته وبأسه وشدته يمتلئ بالخمول، ومن يكون ضعيف الإرادة والفكر لا يجد طريق الحكمة لأنه خامل وكسول»[٢].

وتظهر القيمة الحقيقة التي يوليها بوذا للإنسان في رفضه للنظام الطبقي الصارم الذي كان سائداً من قبل لدى البراهمة فقد كانوا يرون أن

١ـ الفلسفات الهندية علي زيعور ص٢٣٦، انظر: الداماپادا كتاب بوذا المقدس ترجمة سعدي يوسف

٢ـ الفكر الفلسفي الهندي راداكرشنا وشارلز ص٤٠٤

الناس طبقات ثلاث هي : طبقة البراهمة وهم رجال الدين الذي خلقهم الإله من عينيه ، وطبقة الملوك والحكام والموظفين والتجار والأعيان والأثرياء (كشا تريا) وقد خلقوا من ثديي البراهما ، وطبقة المنبوذين (السودرا) وهم عامة الناس المخلوقين من قدمى براهما . أما بوذا فقد رفض هذا التقسيم الطبقي قائلاً : «ليس المنبوذ منبوذاً بالولادة وليس البراهمي براهمياً بالولادة بل بالأعمال»[١] .

لذا فإن رياضات الزهد ألطف عند بوذا منها عند البراهمة إلى حد كبير فقد كان هؤلاء يُغالون في إعنات الجسم وإيذائه ، أما هو فيوصي بقهره إلى الحد اللازم لتغليب الروح عليه والفراغ للتامل ، وهو يُنكر فائدة الشعائر الدينية للنجاة أنكاراً باتاً ، وقد كان البراهمة يعتقدون أن لها بعض الفوائد ويُصرح أن المفيد حقاً إنما هو الفعل الخلقي الذي هوفكر ونية .

وكما أنكر بوذا نظام الطبقات ، وأعلن المساواة التامة ، وأوصى بالتعاطف العام إلى حد أن حضر ذبح الحيوان للأكل ، وأوجب الاقتصار على النبات ، وأوجب الصدقة ، والتغاضي عن الأساءة ، وعدم مقاومة الشرير ؛ لأن الانتقام والمقاومة توكيد للشخصية وهو يسعى إلى محوها[٢] .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التي أرادت أن تستغني عن الكهنوت ،

١ـ الفلسفات الهندية علي زيعور ص٢٤١-٢٤٢ ، الفلسفة في الشرق تأليف بول ماسون أورسيل ترجمة محمد يوسف موسى ص١٢٠

٢ـ دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٣٠ ، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها د. أميرة حلمي مطر ص٢٧

كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التي كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ؛ ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغنى الشباب في بنارس والمدن المجاورة لها ؛ واصطنع هؤلاء الرهبان في حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يحيون بعضهم بعضاً ، كما يحيون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هي (السلام على الكائنات جميعاً) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ؛ وكان حتماً عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات «ناوتش» والملاهي والألعاب وأسباب الترف واللغو في الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يؤدوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، كان لا بد لهم أن يصونوا عفتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا في طهر كامل ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ،

وفي ذلك قال: «إذا لم نأذن يا «أناندا» للنساء بالدخول في طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء - بغير دخول النساء - ألف عام ؛ أما وقد أذن لهن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم

تشريعنا أكثر من خمسمائة عام» وكان في ذلك على صواب فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة وخرافات لا تقع تحت الحصر.

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها، راح أتباعه يؤلهونه، لم ينتظروا في ذلك موته، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك في صحة ما يقوله لهم، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه[1].

تلك بعض مبادئ الفلسفة البوذية التي تطورت فيما بعد وتحولت إلى ديانة تشعبت فيها الفرق وكثرت التفسيرات والتأويلات لدرجة أن تكونت أربع مدارس فلسفية دينية تجمعها (الهينايانا) و (المهايانا) أشهر التيارات البوذية منذ ما قبل الميلاد وحتى الآن.

---

١. قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الثالث من المجلد الأول ص٨٧ – ٨٨

الفصل الخامس

الفلسفة الصينية القديمة

- الفلسفة الصينية القديمة
- الفلاسفة قبل كونفشيوس
- ننج شي سقراط الصين
- لو - دزه والفلسفة الدوية
- الطبيعة في الفلسفة الدوية
- لاوتسي والفلسفة الطاوية
- فلسفة كونفشيوس
- ولادته وحياته
- معالم فلسفة كونفشيوس
- الفكر السياسي الكنفوشي
- تلامذة كونفشيوس

الفلسفة الصينية القديمة

تعتبر الحضارة الصينية القديمة واحدة من أعرق وأهم الحضارات الشرقية القديمة ، وتعود الفلسفة فيها - فيما يقول هيجل نقلا عن بعض المصادر - إلى أزمنة مغرقة في القدم . فهنالك تقاليد وموروثات مؤكدة تعود إلى حوالي ٢٧٠٠ قبل ميلاد المسيح(١) .

وقد قال فيهم ديدرو: «أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأي بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة» وقال فلتيرVoltaire : «لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو في أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم» .

١ـ اصول الفكر اليوناني جان بيار ص١٥-١٦ ، أنظر : الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٤٣

وذكروا أن أقدم ما نعرفه عن الصينيين أناشيد وتواريخ تدلُ على أن ديانتهم في العصر الذي يمتدُ من القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد كانت قائمة على الإيمان بإله أعلى يُسمونه السماء ؛ لأنه فوق الكُل ، ولأن السماء مكانه ، والإيمان بالخلود وتكريم الموتى ، وعلى الخصوص العظماء والصالحين منهم ، ولم يُصور قدماء الصينيين السماء ، ولم يُقيموا أصناماً ثم فسد التوحيد وشاع التشبيه(١) .

ويذكر بيير دوكاسيه أن الفكر الهندي متجهاً ، بطبيعته ، ناحية البحث النظري المطلق الذي يفوق قدرة الإنسان ، البحث في الوجود بمعناه الشامل، بينما نجد في الفكر الصيني عبقرية حقيقية لتكييف الإنسان ، متجهة ناحية الأخلاق ، وناحية تذوق واقعي للأشياء(٢) .

وقد تميز الفكر الفلسفي الصيني بنزعة انسانية واضحة ، وقد بدأت هذه النزعة الإنسانية تسود الفكر الصيني منذ بداية الوعى الفلسفي الحقيقى لدى الإنسان الصيني ، وتميزت هذه النزعة الإنسانية بالتركيز على وحدة الإنسان وعلى التكامل بين الإنسان والطبيعة . واعتبار الإنسان هو وسيلة تحقيق القيم المطلقة في العالم(٣) .

١ـ أنظر : الفلسفة الهندية السيد أبو نصر أحمد الحسيني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، بت ، ص٨ ، دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٣٢

٢ـ الفلسفات الكبرى بيير دوكاسيه ترجمة جورج يونس ص١٩

٣ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن بحث نشر بمجلة (ديوجين) العدد ٨٤ مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة ابريل ١٩٨٩م ص٢-٣ نقلا عن المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨١

أن الحكمة الصينية لا تنتهي إلى دناءة منفعية ، أن لها دائماً خلفية صوفية : فلاوتسو Lao- Tseu بطل الزهد والسائح نحو المطلق لا يغيب أبداً عن شعب كونفيشيوس . وقد عرف هذا الشعب كيف يحول الخرافة إلى حكمة اجتماعية وسياسية حقيقية ، وإلى سحر للطبيعة والأعداد . فالكل يتجه نحو تنوع الصفة ، فالين Yin واليانغ Yang رمزا التناقض والاشتراك بين الذكر والأنثى ، ينسقان كل شيء ازواجاً ، ويؤلفان هما الزوجين الاعليين ، ويرمزان ، بتشابكهما في الصور الكهانية ، إلى التاو Tao الذي هو بداهة النظام والكلية[1] .

وهكذا ، إن الحضارة الصينية هي كما قلنا حضارة عريقة جداً وتشف عن أصالة قوية ، وهي من الشرق الأقصى وتأريخه بمنزلة الحضارة اليونانية الرومانية من أوروبا وتاريخها . ولهذه الحضارة جذور عميقة في التاريخ . وقد انبثقت عن الديانة البدائية القديمة التي تنادي بعبادة السماء العليا التي اوجدت ما يقوم بين الاشياء من علاقات وربطتها برباط محكم من القانون والسببية والتي ترتبط بها أيضاً أرتباطاً وثيقاً عبادة الأرواح وبخاصة عبادة الأسلاف . وفي القرن السادس قبل الميلاد تقريباً جاء لاو - تسي (Lao Tzu) وهو حكيم غامض أسس مذهب الطاوية الفلسفية ، فجدد هذه الديانة وأدخل فيها أصطلاحات جمة ، وأعقبه بعد ذلك بقليل كنفوشيوس (Confucius) ، أو كونغ - تسي –Kong)(Tesu) (٥٥١- ٤٧٨ ق . م) فأعاد بناءها مرة أخرى هو وتلميذ له جاء بعده بزمن طويل

١- الفلسفات الكبرى بيير دوكاسييه ترجمة جورج يونس ص١٩-٢٠

اعتنق آراءه وانبرى للدفاع عنها اسمه مونشيوس (Mencius أو –Meng Tesu) (٣٧٢- ٢٨٨ ق . م) لكن مو تسي (أواخر القرن الخامس ق . م) هو وحده الذي ابدل عبادة السماء اللامتشخصة بعبادة الله القادر على كل شيء ، رب السموات العلي ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي يريد الخير لعباده ويحب العدل ويحنو على جميع خلقه[١] .

وهكذا تكون الصين قد خلقت ، كما خلقت الهند ، أشكالاً من الحكمة ، ومثلاً أعلى للعقل ، ولكن الأمر في الصين لا يتخلف عما هو عليه في شعوب الشرق القديم إذ يرى بعض الباحثين والمؤرخين ، إن تجارب الصينيين الحكمية واستنتاجاتهم العقلية لا ترتقي إلى مصاف النمط الإغريقي .

يقول بيير دوكاسيه : «أما المنهج العلمي العام فقد كان أمر خلقه منوطاً بالإغريق ، فهم وحدهم استطاعوا أن يدركوا ، وأرادوا أن يحققوا التوازان الكامل الذي ما زال مورداً لنا حتى الآن ، هذا التوازن بين عبقرية التجريد التي قدمت عنها الهند أمثلة عديدة ، وبين دقة الواقعية الملموسة والتشوق إلى معرفة الواقع اللذين تمثلهما دائماً حكمة الشعب الصيني»[٢] .

١ـ مع الفلسفة اليونانية د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص٧٠

٢ـ الفلسفات الكبرى بيير دوكاسيه ترجمة جورج يونس ص٢٠-٢١

الفلاسفة قبل كونفشيوس

يصف لنا ول ديورانت هذا العصر بإنه يمتاز بفلسفته . وليس يعيب الجنس البشري أن تشوفه كان في كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه . وها هو ذا يو - دزه في عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة القصيرة التي تعد من جوامع الكلم ، والتي طالما رددها الناس من قبله ، ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ اذ لا يزال الناس في حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء:

«من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الاحزان»

ألا ما اسعد الانسان الذي لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة فكما ان الهند أرقى بلاد العالم في الاديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها في الفلسفة الانسانية غير الدينية ، اذ لا يكاد يوجد في الادب الصيني كله كتاب ذو شأن في علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون ، وهي الوثيقة المعروفة بإسم إي - جنج ، أو «كتاب التغيرات» . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسي أسرة جو في سجنه ، وان أبسط مبادئه مستمدة من فوشي الذي عاش قبله بزمن طويل . وهم يقولون لنا ان هذا الامبراطور الاسطوري قد اخترع «الجوات» الثماني أو التثاليث الرمزية التي ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون أن

كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها متقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين[١] .

وكان الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتابا يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، ويعدونه أعظم تراثهم الأدبي ، ويقولون أن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمله بما علق عليه من الحواشي ، وكان يفضله على كل ما عداه من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاما يقضيها في دراسته .

ولا يتفق هذا السفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهي الروح الايجابية العملية ، وان كان يلائم غموض النفس الصينية ونحن نجد في الصين فلاسفة في أبعد الأزمان التي وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لو- دزه ، لا يعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد أسم من الاسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس في بلاد الصين ، كما شهدا في الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت في بلاد اليونان بعصر من «الاستنارة» العقلية .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٢٦ - ٢٧ وكذلك يمثل اليانج في هذه الثنائية الرمزية العنصر الايجابي الفعال ، المنتج ، السماوي عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبي المنفعل ، الأرضي ، عنصر الظلمة والبرودة والموت .

ننج شي سقراط الصين

لقد سبق هذه الاستنارة العقلية في الصين عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الانساب العريقة مسالك للرقي، وحفز أهل المدن على أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية. وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما في علوم الدين من ابهام وغموض، وما في الأداة الحكومية من نقص، وعرفوا أن المقاييس الاخلاقية مقاييس نسبية، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال المطلق. وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الامور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاججتهم. وتقول احدى الروايات الصينية ان كنفوشيوس نفسه، وهو وزير الجريمة في مقاطعة لو، حكم بالاعدام على موظف صيني متمرد بحجة أنه «كان في وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة ما يمكنها من الوقوف في وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس».

ويصدق زوما - تشين هذه القصة ولكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها؛ ويقول ول ديورانت بشأنها: «ونحن نرجو ألا تكون صحيحة»[1].

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٢٨ - ٢٩

ولنذكر أشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شي الذي أعدمه دوق جنج في شباب كنفوشيوس ، ويقول كتاب ليه - دزه : ان تنج هذا كان «يعلم النظريات القائلة ان الحق والباطل أمران نسبيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها» . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأيا ويثبت عكسه في غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الاجر ؛ وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا في المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس . ويروي عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التي كان يقيم فيها تنج في نهر واي ، وأخرج رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتيل مبلغا كبيرا من المال نظير إخراجها من النهر . وذهبت أسرة القتيل إلى تنج تستشيره في الأمر ، فأجابها السفسطائي بقوله: «تريثوا فلن تؤدي المال المطلوب أسرة غير أسرتكم» ، وعملت أسرة القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذي كانت الجثة في حوزته فجاء هو أيضا إلى تنج شي يستنصحه . فنصحه السفسطائي بما نصح به أهل القتيل إذ قال له: «تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلاّ منك» .

ووضع تنج شي قانونا للعقوبات تبين أنه أرقى مما تطبقه حكومة جنج . ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعا بالنشرات التي كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها في الأماكن العامة ، فما كان من تنج الا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت

بقطع رأسه[١] .

لو - دزه والفلسفة الدوية

كان لو - دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، أكثر حكمة من تنج شي ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك أنه عمر طويلا ، فأما لو - دزه، فوصف معناه «المعلم القديم» وأما أسمه الحقيقي فهو ، كما تقول الرواية ، لي - أي البرقوقة .

ويحدثنا المؤرخ الصيني زوماتشين أن لو - دزه عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله في أمانة مكتبة جو الملكية ، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل في الريف ، فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شي : إنك إذن تنشد العزلة ، وأنا أرجوك أن تكتب لي كتابا . فكتب له لو - دزه كتابا من جزأين في الدو والذي يشتمل على خمسة آلاف كلمة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات .

وقد شكك الباحثون والمؤرخون في وجوده وفي كتابه فقالوا : «لكن الروايات والاقاصيص ، التي لا تخفى عليها خافية ، تقول أنه عاش سبعة وثمانين عاما . ولم يبق لنا منه الا اسمه و كتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له . .. والكتاب الذي يعزى إليه مشكوك فيه شكا أثار كثيرا من الجدل العلمي حول أصله» .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٢٩

ويرى الأستاذ جيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب.م. وقد اختلسه مؤلفه من هان في الناقد وكاتب المقالات. أما الدكتور لج Dr Legge فيرى أن تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) في أقوال جوانج - دزه وأقوال زوماتشين يدل على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسبة ألدو- دي- جنج إلى مؤلفه[1]

ولكن الباحثين جميعا متفقون على أن الدو- ده- جنج - أي «كتاب الطريقة والفضيلة» هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدوية التي يقول العلماء الصينيون انها وجدت قبل لو- دزه بزمن طويل، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الاول، والتي صارت فيما بعد دينا تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا، وجملة القول أن مؤلف الدو- ده - جنج مسألة ذات أهمية ثانوية، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب في تاريخ الفكر الانساني.

ومعنى لفظ الدَّو هو الطريقة : وهي أحيانا طريقة الطبيعة، وأحيانا الطريقة الدوية للحياة الحكيمة. أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق. وهو في الاصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه الا للجدل والمحاجاة، يضر الحياة اكثر مما ينفعها. اما «الطريقة» فيمكن الوصول اليها بنبذ العقل وجميع مشاغله، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ في الطبيعة. وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة، بل ان السفلة قد زاد

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص ٣٠

عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك لأنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من «صاحب العقل» وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الاراء ، وفي ذلك يقول الكتاب :

ان المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... واذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب ... والحكيم يبقي الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، واذا وجد من لهم علم منعهم من الاقدام على العمل ... وان الاقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس بل ليجعلوهم سذجا جهلاء ... والصعوبة التي يواجهها الحكام انما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينكل بها ويفسد شئونها ، أما الذي لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة .

وانما كان صاحب الفكر خطرا على الدولة لأنه لا يفكر الا في الانظمة والقوانين ؛ فهو يرغب في اقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته انما تقضي على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما في أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذي يعرف من تجاربه ما في العمل الذي يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطرا على الامة اذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها . فهذا الرجل لا يضع للناس من الانظمة الا أقل قدر مستطاع ، واذا

تولى قيادة الامة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التي تسير فيها الحياة سيرا حكيما على النهج الطبيعي الحكيم الرتيب الخالي من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها في هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التي تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التي تفرضها الحكومات دفعت عجلة الحياة في مسيرها البسيط الصحيح . وفي هذه الحال تقل المخترعات التي لا تفيد الا في زيادة ثراء الاغنياء وقوة الاقوياء ؛ وتنمحي الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى الا التجارة القروية .

«إن كثرة النواهي والمحرمات في المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد عدد الأدوات التي تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطرابا ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء: «لن أفعل شيئا ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكنا فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالي بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئا من المطامع فيصل الناس من تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية...

وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث اذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الافراد عمل ؛ وسأجعل الناس فيها ، وان نظروا إلى الموت على أنه شيء

محزن يؤسف له ، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه) ؛ ومع أن لهم سفنا وعربات فإنهم لا يرون ما يدعوا إلى ركوبها ؛ ومع أن لهم ثيابا منتفخة وأسلحة حادة ، فإنهم لا يجدون ما يدعوا إلى لبس الاولى أو استخدام الثانية ، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة[١] .

وسيرون أن طعامهم الخشن (وملابسهم) البسيطة جميلة، ومساكنهم الحقيرة أمكنة للراحة ، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة ، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب ، فإني لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم» [٢] .

ترى ما هي هذه الطبيعة التي يرغب لَوْ- دزه ، في أن يتخذها مرشدا له وهاديا ؟ ان هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقا محددا واضح المعالم ، كما فعل روسو من بعده في عباراته الطنانة الرنانة التي يطلق عليها الناس اسم «التفكير الحديث» ؛ فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي ، وانسياب الحوادث العادية المألوفة ، وهي النظام العظيم الذي تتبعه الفصول وتتبعه السماء ؛ وهي الدو أو الطريقة الممثلة المجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم ؛ وهي قانون الاشياء العادل الذي لا يحفل بالاشخاص ، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون

١ـ طريقة في نقل الأفكار سابقة على الكتابة. ولفظ أجعل هنا بعيد بعض البعد عن الأسلوب الودزي.

٢ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٣١ - ٣٣

السلوك اذا اراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام . وقانون الاشياء هذا هو الدو أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدو أو طريقة الحياة . ويرى لو- دزه ، أن الدوين في واقع الامر دو واحد وأن الحياة في تناغمها الاساسي السليم ليست الا جزءا من تناغم الكون . وفي هذا الدو الكوني تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التي يقول بها اسبنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التي تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التي تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيجل Hegel الشاملة[١].

الطبيعة في الفلسفة الدوية

يقول لو إن طبيعة قد جعلت حياة الناس في الايام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئا سعيدا . ثم حصل الناس «المعرفة» فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالعاقل اذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضري وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفي بين أحضان الطبيعة ، بعيدا عن المدن والكتب ، والموظفين المرتشين ، والمصلحين المغترين . وسر الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ،

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٣٣ - ٣٤

وهي وحدها التي يجد فيها الانسان السعادة الابدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والشعور في ثقة واطمئنان ، والجري على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها في تواضع .

ولعلنا لا نجد في الأدب كله فقرة أكثر انطباقا على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

ان كل ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة ، وهي توجد وليس في حوزتها شيء ، تؤدي واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الاشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد ، واذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها إلى أصله ، وعودة الاشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلي ، ومعرفة هذا القانون هي الحكمة .

والخمود الذي هو نوع من التعطل الفلسفي وامتناع عن التدخل في سير الاشياء الطبيعي وهو ما يمتاز به الحكيم في جميع مناحي الحياة، فاذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يفعل بها ألا يحاول الانسان اصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، واذا ما لاقى الانسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى في سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، اذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما يناله بالعمل ، وفي هذا يحدثنا لو - دزه حديثا لا يكاد يختلف في لهجته عن

حديث المسيح !

«اذا لم تقاتل الناس فان أحدا على ظهر الارض لن يستطيع أن يقاتلك .. قابل الاساءة بالإحسان . أنا خير للأخيار ، وخير أيضا لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير الناس جميعا أخيارا ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضا لغير المخلصين وبذلك يصير الناس جميعا مخلصين .. وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها .. وليس في العالم شيء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية»[١] .

يقول ول ديورانت في وصف هذه الفلسفة بما نصه : «وتبلغ هذه الآراء غايتها في الصورة التي يتخيلها» لو «للرجل الحكيم . ولسنا نرى حاجة لبيان ما في هذه الآراء من اتفاق مع آراء جان جاك روسو وحسبنا أن نقول ان الرجلين قد صبا في قالب واحد مهما يكن بعد ما بينهما من الزمن ، وان فلسفتهما من نوع الفلسفة التي تظهر وتختفي ثم تعود إلى الظهور في فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس في كل جيل يملون ما في حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الامور . وما من شك في أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن اذا شاء أن

١ـ ويضيف إلى ذلك في شهادة طائشة : إن الأنثى تغلب الذكر على الدوام بسكونها. «أنظر : قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الرابع من المجلد الأول ص٣٤ - ٣٥

يكتب شعرا عن الريف «والطبيعة» لفظ طيع سهل على لسان كل باحث في الاخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة «لو - دزه» والمسيح المتعقلة الحلوة .

ثم يضيف قائلا : «على أن في هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئا من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضا حين تبدأ نيران عواطفنا في الخمود سنرى فيها غير قليل من الحكمة ؛ وسنرى فيها السلم المريح الذي ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . ان الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو - دزه ، وبين سقراط والمسيح»[1] .

لاؤتسى والفلسفة الطاوية

إن الاتفاق يكاد يكون تاماً بين المؤرخين على أن (لاؤتسي) أو (لاتزو) Lao Tzu هو صاحب أقدم المؤلفات الطاوية وهو كتاب تاو - تي - كنج أو الطريق و الفضيلة لكن هناك شك في وجود شخص باسم لاؤتسى فهذا الاسم لا يمكن ترجمته بالمعلم العتيق . ويقال انه يكاد يكون - لو سلمنا بوجوده أصلاً - أقدم معاصر لكونفشيوس ، وكان أمينا للمحفوظات في العاصمة والتقى به كونفشيوس هناك . لكن روايات أخرى تشكك في ذلك وترى استحالة هذا اللقاء وترجح أن يكون هذا الكتاب قد كتب في حوالي القرن الرابع قبل الميلاد . وإن كان هناك رواية ثالثة ترجح بأنه كتب جميعه في عصر متأخر نسبياً في حوالي القرن الثاني قبل

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٣٧

الميلاد[١].

والحقيقة أنه لا سبيل إلى تأكيد صحة رواية من هذه الروايات لا عن الكتاب ولا عن صاحبه . ومع ذلك فإن الأسلم الجرى على ما هو شائع ويكاد يكون متفقاً عليه بين غالبية المؤرخين ، فلاؤتسى على كل حال مفكر صيني قديم عاش فيما بين القرن السادس والرابع قبل الميلاد على أرجح التقديرات وترك لنا أثره الذى تناقلته الأجيال وأعنى به كتاب (الطريق والفضيلة) وفي هذا الكتاب معالم فلسفة صوفية غامضة تكاد تكون على طرفى نقيض من فلسفة كونفشيوس ، فإن كان كونفشيوس وأتباعه يجعلون من الإنسان الأصل والمركز في فلسفتهم فإن لاؤتسى وأتباع الطاوية ينطلقون من الايمان بمبدأ الطبيعة .

إنهم ينطلقون من (طاو) ذلك العنصر الأزلى الثابت الذي يكمن وراء عالم الظواهر وهاهو لاؤتسى يعرفه لنا بقوله : «قبل أن تكون السماء والأرض كان هناك كائن عديم الشكل ، بلا صوت ، وبلا مكان صامت مفارق ، وحيد لا يتغير ، ويدور دورة أبدية بغير أن يتعرض للخطر ، تستطيع أن تعده أم الأشياء جميعاً أنا لا أعرف اسمه ، وأخاطبه بقولى (الطريق) (الطاو) حتى يكون له اسم فإذا اجتهدت في تسميته قلت : العظيم[٢] .

١ـ الفكر الصينى من كنفوشيوس إلى ماوتسى تونج هـ . ج . كريل ترجمة عبد الحميد سليم ص١٤٤-١٤٥ ، جوزيف نيدهام ص١٥١ ، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٤٦

٢ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى ص٥٧ ، موجز تاريخ

فالطاو Tao إذن مجرد عن الاسم أي أنه عار عن الصفات، ومع ذلك فهو بداية كل الأشياء، فهو ليس شيئاً وإن كان هو مبدأ الأشياء كلها، ويعبر لاؤتسى عن ذلك بقوله: «الطاو (الطريق) أوجد الوحدة، الوحدة أوجدت الثنائية، الثنائية أوجدت التثليث، التثليث أوجد الكائنات العشرة الآف، الكائنات العشرة الآف تحمل (ين) المعتم على ظهورها، و (يانج) المضيء ذراعيها[1].

ولاشك أن كلمات لاؤتسى السابقة تعبر عن قصة الخلق من وجهة نظره، فمن الطاو ينشأ الواحد ومن الواحد الأثنان، ومن الأثنان الثلاثة ومن الثلاثة ينشأ الكون المخلوق. وبالطبع فإن ذلك لا يعنى كما عند الفيثاغوريين من فلاسفة اليونان أن العدد بعد (الطريق أو الطاو) هو أصل العالم، بل أننا أمام صورة رمزية فالواحد هو رمز الطاو، وعنه جاء الإثنان وهي تعبير عن مبدأين أحدهما مظلم بارد انثوي (الين) والآخر مضيء دافئ رجولى (اليانج) أو لعلها رمز للماء وللأرض وللإنسان أو لعلهما رمز لكثرة الكائنات التى تولد من مبدأى الذكورة والأنوثة فجاء منها الكائنات العشرة

الفلسفة تأليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٤

١ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى ص١١٥، يعتقد لاؤتسي أن كل شيء مركب من عنصرين؛ الأول (الطاو) وهو المبدأ الأول قبل السماء، والثاني: (كي) أو النفس الأول، وهو مادة لطيفة يتحد به الطاو فيتطوران إلى جميع صور الموجودات، حتى ينتهي التطور إلى الراحة القصوى، أو (نيبان)، وهوالنرفانا الصيني، ويعود كل شيء إلى المبدأ الأول. أنظر: دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ص٣٣

الآف .

والحقيقة في نظر روصن لم يكن نتاج طاو للعشرة الآف شيء عمل مقصود ومدرك حسياً ، بل كان بلا غرض وغير مدرك ، فبالنسبة لطاو : «لا يوجد عمل يؤدى وعلى ذلك فلا يوجد مالم يتم عمله أو بمعنى آخر أن طاو لا يتولى أي عمل لعدم وجود غرض ولكن في نفس الوقت لا يوجد شيء لم يعمل لأنه انتج كل الأشياء في الكون بصورة تلقائية[١] .

وإذا تساءلنا عن مكانة الإنسان عند لاؤتسى وأتباعه الطاويين لجاءت الأجابة في قوله : «أن الطاو عظيم ، وعظيمة هي السماء ، وعظيمة هي الأرض ، وعظيم هو الملك ، أولئك هم الأربعة الكبار في الكون ، والإنسان يتخذ الأرض قانوناً له ، والأرض تتخذ السماء قانوناً لها والسماء تتخذ الطاو قانوناً لها ، والطاويتخذ قانوناً من نفسه[٢] .

إن الإنسان إذن في نظر لاؤتسى مجرد من الطبيعة وهو أحد كائناتها وليس مركز الكون . ومن ثم فعليه أن يستسلم للطبيعة ويقلل من رغباته وطموحاته حتى يعيش في هدوء . وبقدر ما يقلل الإنسان من تلك الرغبات ويستسلم لكل ما هو طبيعي بقدر ما يكون سعيداً .

ومن هنا جاءت بعض آراء لاؤتسى الغريبة الغامضة حول ما يسميه (وي - واي We – Wei) أي عدم الفعل . فالطاويين يدعون الإنسان إلى

١ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن ص١٣

٢ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى ص٧٦

عدم الفعل فمعنى الاصطلاح السابق (لا تفعل شيئاً). وقبل أن نسيء فهم هذه الدعوة إلى عدم العمل، نسارع إلى القول بانها تعنى ببساطة لا تفعل شيئاً ليس طبيعياً، فالمقصود منها التوقف عن أى نشاط مخالف للطبيعة والإقلال من الجهد والنشاط الإنسانى الخارجي حتى يظل الإنسان متمتعاً بالصحة النفسية الجيدة وبقدر كبير من الهدوء والسكينة. إن على الإنسان أن يقلل من حديثه قدر الإمكان «فالإنسان الخير لا يجادل، والحكيم في غنى عن المعرفة والذى يعرف كثيراً ليس حكيماً»[1]. «وإننا إذا ما توقفنا عن العلم لا يواجهنا الكثير من المشاكل» وعلى وجه العموم، تخلوا عن الحكمة وتخلصوا من الفطنة وسيصبح الناس أحسن حالا مائة مرة[2].

إن لاؤتسى يطالب الحكيم الطاوى بأن يتخلى عن حكمته، فوجود الحكمة مضاد لطبيعته بصورة مطلقة، ولكن هذا التخلى لا يمكن أن يتم مباشرة بل لابد من المرور بمرحلة وسطى يكون فيها الحكيم حكيماً أى يمارس الحكمة أي يتعلمها ويعملها. إن الطاوية تعترف بدور الحكيم في العالم، فلا تنفيه قبل أن يكون، بل تنتظر كينونته لتنقله بعد ذلك إلى حالة اللاشيء المقرونة بحالة اللافعل.

إن الإنسان الطاوى ينبغي أن يكون بسيطاً في كل شيء، وهو الذي يعمل بلا فعل، أى أنه ينتج ما ينبغى أن ينتجه ويمضى في هدوء ودون

١- لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى ص٢٠١، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٨-٨٩

٢- لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى ص١٩-٢٠

ضوضاء أو ادعاء[١] .

إن الطاوية - رغم ما سبق - ليست فلسفة انسحابية كما يظن لاول وهلة ؛ فالإنسان المثالى الفعال لا يزال حياً وموجوداً في نظرهم ، كل ما هنالك أن عليه أن يتبع الفطرة ، وبذلك يشبع فطرته . وإذا ما عاد الإنسان إلى بساطته وفطرته سيصبح مثل الطفل وينسى وعيه بذاته ، وبهذه الطريقة يدخل في مجال الوحدة التي لا تتجزأ مع كل الخلائق ويحصل بذلك على الحرية الشخصية المطلقة[٢] .

فلسفة لاؤتسى السياسية

إن للطاوية أيضاً فلسفة سياسية تقوم على نفس المادئ السابقة فالحكم فن و «الممالك لا تحكم إلا بالحق لأن الاسلحة لا تشرع إلا بالباطل» إن لاؤتسى يطالب الحاكم بأن يقيم حكمه على العدل وليس اخضاع الناس بالأسلحة لأنه «كلما زاد في المملكة الحظر والتحريم ازداد الشعب فقراً ، وكلما زاد عدد الأسلحة الحادة بين الناس أزداد الاضطراب في بيت الحاكم وكلما زاد عدد القوانين والتعليمات زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق»[٣] .

إن فلسفة الحكم عند لاؤتسى تقوم على أن لا يفعل الحاكم شيئاً ،

١ـ انظر : كتاب التاو الترجمة العربية لهادى العلوى ص٣٦-٣٧

٢ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن ص١٣

٣ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة (٥٧) الترجمة العربية ص١٤٧-١٤٨

وفي هذه الحالة سيقوم أفراد الشعب بما يجب عليهم فيتحسن الحال من تلقاء نفسه ، إن على الحاكم أن يهدأ والشعب سيهتدى بنفسه إلى النظام . إن على الحاكم أن يكون قدوة فلا يمارس التجارة والجشع ولا يفرط في شهواته ، وسيصبح الشعب من تلقاء نفسه غنياً ويعود إلى الفطرة السليمة وإلى الاعتدال والنظام[١] .

إن لاؤتسى يحلم ببلد صغير المساحة يسكنه شعب قليل العدد يعتمد في تحصيل أرزاقه على أقل القليل من الأدوات . ويكتفى بالقليل من الرزق لأنه يعلم أن الموت آت . ولذلك فمن الخير أن يبقى الإنسان في بلده وأن لا يهاجر إلى بلاد أخرى رغم وجود وسائل الانتقال إلى تلك البلاد البعيدة. إن الحياة الجميلة قوامها الطعام البسيط الشهى ، والمساكن البسيطة الآمنة ، والثياب الجميلة . إن السعادة قوامها التمتع بكل ما هو جميل وبسيط فهذا هو ما يجلب الحياة السعيدة والفرح الاكيدة[٢] .

إن هذه إذن هي معالم المدينة المثالية عند لاؤتسى ، وبقدر ما فيها من البساطة بشكل يدعو إلى العجب ، بقدر ما فيها من دعوة محمودة إلى العودة إلى الطبيعة الأصلية للإنسان وهي دعوة سيتردد صداها دائماً وفي كل العصور عند الكلبيين والرواقيين من فلاسفة اليونان ، وعند روسو من فلاسفة القرن الثامن عشر ، بل عند بعض فلاسفة العصر الحاضر من الداعين

١ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة (٥٧) الترجمة العربية ص١٤٨

٢ـ لاؤتسى الطريق والفضيلة (٨٠) الترجمة العربية ص١٩٩-٢٠٠

إلى الحفاظ على الحياة والبيئة الطبيعية للإنسان[١] .

وقد تطورت الطاوية على أيدي انصارها من رواد (قصر علوم تزي)[٢] (سون تسيانغ ، اين وينغ ، وغيرهما) . فقد صار الجوهر المادي (تسي) ينقسم عندهم إلى نوعين : (لطيف) و (خشن) . تتآلف الجواهر اللطيفة فتشكل نفس الإنسان ، وتتآلف الجواهر (الخشنة) فتشكل بدنه ، وتلعب الجواهر اللطيفة الدور الرئيسي في العضوية البشرية ، وعليها تتوقف قدرات المرء الذهنية ، وبها ، - لا بالآلهة - ترتبط حكمته . وبموت الإنسان تهجر الجواهر اللطيفة بدنه لتؤلف ما اعتاد الناس على تسميته بالشيطان والإله .

وبلغت الطاوية أوجها في مذهب تشوانغ تزو (القرنان ٤ - ٣ ق . م) ، الذي ترسم خطى معلمه لاو تزو في فهمه للطاو قانوناً طبيعياً ، تتجدد الأشياء وفقاً له . وقال الفيلسوف بأن ثمة كائنات حية دقيقة ، تعيش في الماء ، هي (تسزي) ، تطورت فنشأ عنها الحيوان ، ومن الحيوانات جاء الإنسان ، والجوهر المادي (نسي) يملأ العالم الأرضي كله . «فولادة الإنسان تآلف لدقائق التسي» ، «تتكثف دقائق تسي فتظهر الحياة ، وتتناثر فيحل

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٩١

٢ـ أقيم القصر في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في مملكة تزي (في شرق ولاية شاندون بالصين المعاصرة) ، وكان مجمعاً علمياً ، يفد إليه العلماء من كل المذاهب والاتجاهات الفكرية ، وأن كان انصار الطاوية يشكلون الاتجاه الغالب فيه . أنظر : موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٤ (المعرب) .

الموت» ؛ «وبموت الإنسان تختفي روحه». والفكر البشري «مرآة الأشياء جميعاً». وقد تضمنت آراء الفيلسوف المادية الساذجة بعض الأفكار الديالكتيكية : «الشيء الخالي من التمايز سوف يغدو متمايزاً لا محالة» ؛ «والشيء يكون مطابقاً لنفسه ومغايراً لها في آن واحد»، فهو «يتغير مع كل حركة، ويتجدد في كل لحظة». ولكن تشوانغ نزو، الذي قال بديالكتيك الواقع، بالغ في الوحدة القائمة وراء التنوع في العالم، فدعا إلى (الفناء) في الطاو الخالد، ونادى باللامبالاة إزاء الحياة الدنيوية. وكانت موضوعته هذه إحدى مصادر الديانة الطاوية التي تشكلت على مشارف الميلاد[١].

فلسفة كونفشيوس

من المعروف أن كونفشيوس CONFUCIUS الذي عاش بين عامي ٥٥١ و ٤٧٩ قبل الميلاد[٢] هو المؤسس الحقيقي للفلسفة الصينية وكان أول من أقام نسقاً حقيقياً للفلسفة عن الإنسان[٣] اتسم بنزعة اجتماعية دنيوية تناضل من أجل بلوغ أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية يمكن تحقيقه في مجتمع اقطاعى بيروقراطى[٤]، وذلك على الرغم أنه استمر يحافظ على

١ـ موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٤ - ٣٥

٢ـ أنظر تفاصيل حياة كونفشيوس : كونفشيوس د. حسن شحاته مكتبة نهضة مصر القاهرة ص٣،

٣ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن ص٣

٤ـ موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين جوزيف نيدهام ترجمة محمد غريب جودة ص ١٣٥-١٣٦

الاعتقاد التقليدى في (السماء) باعتبارها الإله الأساسى عند الصينيين . وقد اعتبر نفسه مفوضاً من السماء برسالة مقدسة . لكن مفهومه عن (السماء) جاء مختلفاً عن المفهوم التقليدى ، فهو لم يعتبر السماوات مجسمة في صورة انسانية فحسب ، بل نظر إليها على أنها طبيعية من بعض الوجوه[١] .

وقد استنتج البعض أن كنفوشيوس كان يبتعد كثيراً عن مناقشة الأمور الدينية - رغم الفكرة السائدة بأنه كان رسولاً ونبياً - وقد استندوا في ذلك من فقرات عديدة من كتابه الهام (المقتطفات الأدبية) فقد ذكر أحد طلابه أنه لم يكن يناقش (الطاء) أي طريق السماء كما أنه رد على سؤال لأحد طلابه عن كيف يستطيع المرء خدمة الأرواح ، بقوله : اذا كنت عاجزاً بعد عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم الأرواح ! وحينما سأله أخر عن الموت ، أجابه : إذا كنت لم تفهم الحياة بعد ، فكيف تستطيع أن تفهم الموت[٢] .

من هذه الكلمات يتضح أن كونفشيوس كان يحجم عن الكلام فيما وراء الطبيعة ، وعن السماء (الإله) لصالح الاهتمام بالإنسان وبالحياة الإنسانية الطبيعية . لقد حول كونفشيوس أنظار الصينيين من التفكير في خوارق

١ـ موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين جوزيف نيدهام ترجمة محمد غريب جودة ص ٥ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٢، موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٢

٢ـ الفكر الصينى من كنفوشيوس إلى ماوتسى تونج ه . ج . كريل ترجمة عبد الحميد ص ٥٦-٥٧ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٢

الطبيعة إلى التفكير في الإنسان ذاته وهذا هو نفس ما فعله سقراط في الفلسفة الغربية بعد ذلك[١].

ولادته وحياته

ولد كونج - فو - دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج - تشيو يسمونه في عام ٥٥١ ق . م في مدينة تشو - فو إحدى البلاد التي كانت تُكوّن وقتئذ مملكة لو ، والتي تُكوّن الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية ، وهي التي لا تضارعها أقاصيص أخرى في خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي ، وكيف كانت الهولات تحرسها والأرواح الإناث تعطي لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم في سعة البحر .

وقد وصفه في أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال: «لقد تبينت في جونج - تي كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يفترق في هذين الوصفين عن هوانج - دي . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام صينية وست بوصات .. وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به، قوي الذاكرة لا ينسى ما يسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه

١ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن ص٦

حكيماً ناشئاً ؟

وكان والد كونج في السبعين من عمره حين ولد له ولده ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود في طفولته تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن ، والتي لازمته في كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نيتشه في أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة . وكانت الموارد التي يشملها برنامجه ثلاثاً : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله: «إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم» (أي آداب الحفلات والمجاملات) «وتعطرها الموسيقي» .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً قل أن يعبئوا به - وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم

. ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله في هذا المعنى: «إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى في هذا ؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً» وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه في صدره . وإذا ما عرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي» ، ولم يكن يشك في أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان لا يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله «وليس من السهل أن نجد إنسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً»[1] .

ولم يكن له في بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن وراء شفتي الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة ، فألتف الناس حوله حتى استطاع في آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة في العالم .

وكان بعض الطلبة - وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات سبعين

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٤٠ - ٤٢، أنظر: الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي د. جمال المرزوقي ص٢٤٤

طالباً - يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ في بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرّض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِي بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاي يوماً من الأيام أي تلاميذه أحبهم إلى المعلم فأجابه: «لقد كان أحبهم إلى العلم ين هُوِى ، لقد كان يحب أن يتعلم .. ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هُوِي).. لم يقدم لي هُوِي معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له .. وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له في هذا الوقت نظير .

وكان الطلبة الكسالى يتحاشون لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله : «ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله في شيء .. لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر - إن هذا الإنسان وباء»[1] .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هِي ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك جو في لو - يانج ، ولكنه

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٤٢ - ٤٣

ظل بعيداً بعض البعد عن موظفي البلاط، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو- دزه وهو على فراش الموت. فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق، فانتقل منها إلى ولاية تشي المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين في طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة. ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاماً أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً في الدولة.

وواتته الفرصة حين عُيّن في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة جونج - دو. وتقول الرواية الصينية إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة، فكان إذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد إلى صاحبه. ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة في الشئون الزراعية، ويقال أنه لما رقي بعدئذ وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة. وفي ذلك تقول السجلات الصينية: «لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاّ برأسيهما واختفيا، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء. وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب».

ويرى ول ديورانت إن في هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلاً. وما من شك في أن المجرمين قد أخذوا يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون

المكائد للإيقاع به[١].

ويقول المؤرخ الصيني : إن الولايات القريبة من «لو» دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة «لو» الناهضة. ودبّر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفرق بها بين دوق «لو» وكنفوشيوس، فأشار على دوق تشي بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان «الفتيات المغنيات» وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالاً. وأسرت البنات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالاً معيباً. وقال دزه - لو لكنفوشيوس : «أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل» واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره، وغادر لو، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاماً. وقال فيما بعد «إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال» والحق - كما يقول ول ديورانت - أن من أغلاط الطبيعة التي لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين.

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوباً عليهم في وطنهم، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم، يلقون في بعضها مجاملة وترحاباً، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى. وهاجمهم الرعاع مرتين، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تْزَه - لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٤٦

تليق بالإنسان الراقي وعرض دوق وى على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته ، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق .

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو - دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة . وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تْزَه -لو، على سيره في ركابه ، وقال له: «إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال ؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية ؟. وفكر كنفوشيوس في هذا اللوم طويلاً ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم.

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم ، ويدعونه أن يعود إلى موطنه . وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً ، وكثيرا ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفاً إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين . ولما سأل دوق شي تْزَه -لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله ، وبلغ ذلك

الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: «لِمَ لم تجبه بأنه ليس إلا رجلاً ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب، وتنسيه لذة طلبه أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه» وكان يسلي نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: «لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل، ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره.

وواراه تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوي عليه قلوبهم من حب له وجلال، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكي الأبناء آباءهم. وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعا أكواخهم إلاّ تْزَه - كونج، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً، فبقي بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم[١].

معالم فلسفة كونفشيوس

لقد كان كونفشيوس أول فيلسوف صيني يطرح سؤالا عن طبيعة الإنسان (هيسنج)، وقد جاءت أجابته بسيطة وعميقة في نفس الوقت، فقد

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٤٧ - ٤٩

قال : «إن الناس سواسية خيرين ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكتسبون من عادات» و «أن الطبيعة البشرية مستقيمة ، وإذا ما فقد الإنسان هذه الإستقامة افتقد معها السعادة»[1].

لقد كثر حديث كونفشيوس عما اسماه (جين JEN) أي الطبيعة الإنسانية للإنسان وهو لفظ يتضمن فى طياته المبدأ الأخلاقي الأسمى الذي ينبغي أن يحكم سلوك الإنسان في علاقته مع الآخرين ، (فجين) معناها أن تحب الإنسان وفوق ذلك أن تحب كل الناس ، وقد قال كونفشيوس في شرحه لمعنى الجين وفي توضيحه لجوهرها أن «على الإنسان ألا يصنع مع الآخرين ما لا يحب أن يصنعوه معه». إن (رجل الجين) المحب للإنسانية هو ذلك الذي يود أن يبنى خلقه وأن يبنى خلق الآخرين كذلك ، وأن تمنى أن يكون بارز الشأن متفوقاً بين أقرانه ، فهو يساعد الآخرين على أن يكونوا كذلك ، إن (الجين) عند كونفشيوس تقوم على «أن يقهر الإنسان نفسه ويعود إلى آداب اللياقة والإحتشام»[2].

أما الفضائل التي على الحكيم الكنفوشي أن يتحلى بها ويعيش وفقاً لها فهي أن يجمل نفسه بالعلم ليلا ونهاراً ويقدس الأمانة ، ويفضل الموت على الذلة والمسكنة وأن يعيش حياة بسيطة يمقت فيها الجشع والترف وأن يعيش مع المحدثين وفي نفس الوقت يدرس التراث القديم ، وإن عاش في

١ـ انظر : فلاسفة أيقضوا العالم د. مصطفى النشار ط٢ ص٤٩ ولاشك أن هذا التصور الكونفوشى للطبيعة الإنسانية الخيرة وللتوحيد بين حياة الاستقامة والسعادة شديد الشبه بتعاليم سقراط وأفلاطون الأخلاقية

٢ـ وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن ص٨-٩

خطر واضطراب فإن روحه تظل في أمن واطمئنان ولا ينسى أخوته في الإنسانية الذين يقاسمون الآلام وفي ذلك يكون شعوره بالمسئولية الإجتماعية[1].

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقي ، بل بتسليط عقله القوي تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ولكن كان في وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التي يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة في التفكير والتعبير ، وفي ذلك يقول: «كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما» وهو درس لا تذكره الفلسفة في جميع الأحوال» . فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه ؛ فأقرّ بأنك لا تعرفه - وذلك في حد ذاته معرفة «وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة في التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذي ليس أميراً بحق والذي لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان الأب الذي لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أباً ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ؛ إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون في «تزه-لو» ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التي طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس: «إن أمير ويه في انتظارك لكي تشترك معه في

١ـ فلاسفة أيقضوا العالم د. مصطفى النشار ط٢ ص٥٣

حكم البلاد فما هو في رأيك أول شيء ينبغي عمله ؟ فأجابه كنفوشيوس جوابا دهش له الأمير والتلميذ : «إن الذي لا بد منه أن تصحح الأسماء».

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هي تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكرالسماء والصلاة كانَ يرِدْ على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال في أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين. فلما أن سأله تزه - كونج ، مثلا : «هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم ؟ أبى أن يجيب جواباً صريحاً . ولما سأله كي -لو ، عن خدمة الأرواح (أرواح الموتى) أجابه : «إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟» وسأله كي - لو: «هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟» فأجابه: «إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت» ولما سأله فارشي عن «ماهية الحكمة» قال له : «إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمي هذه حكمة» [1] .

ومن يتأمل هذه الخصال التي يتحلى بها الحكيم الكنفوشي ويقارن

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٥٢ - ٥٣

بينها وبين ما ورد لدى فلاسفة اليونان سيجد أن الشبه قوى بين شخصية الحكيم الكنفوشى وشخصية الحكيم كما رسمها سقراط بأفعاله وسلوكه وكما صورها الرواقيون في فلسفتهم الأخلاقية عبر أجيالهم المتعددة منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادى[١].

ولكن لدى هيغل نظرة أخرى يرى أن الفلسفة الصينية لم تكن تقدم سوى أخلاقية فقيرة جداً. واضعها كونفوشيوس الذي كان وزيراً لدى الامبراطور لزمن معين ثم استبعد؛ عندئذ عاش في عزلة مع تلاميذه. ويوجد في كتبه كثير من الحس السليم وبوجه خاص اخلاقية شعبية؛ ولكنها لا تقدم شيئاً مرموقاً؛ فلا نجد فيها تنظيراً فلسفياً؛ زد على ذلك أن كونفوشيوس كان بالحري رجل دولة عملياً[٢].

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول، وكان يرى أن الفوضى التي تسود عصره فوضى خلقية، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السفسطائي في ماهية الصواب والخطأ. ولم يكن علاجها في رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة، وإنما علاجها هو البحث الجدي عن معرفة أتم من المعرفة السابقة وتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم. والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفي الكنفوشي.

«إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٢

٢ـ محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة د. خليل أحمد خليل ص١٨٦

الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم ، تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة»[1] .

وإذن فالحكمة تبدأ في البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم في الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته في أن الرُقيّ الذاتي أساس الرُقيّ الاجتماعي ؛ ولما سأله تزه - لو ما الذي يكون الرجل الأعلى؟ أجابه بقوله : «أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام».

يقول ول ديورانت : «ونحن نراه في مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالي كما يراه هو جزءاً جزءاً - والرجل المثالي في

١- قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الرابع من المجلد الأول ص٥٤ - ٥٥

اعتقاده هو الذي تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى في رأي كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونيتشه والمسيح يرى الكمال كل الكمال في كل واحدة منها بمفردها ؛ وتلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفي ذلك يقول: «الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر .. وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة .. وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شئ غير صحيح»[1] .

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ترجمة محمد بدران الجزء الرابع من المجلد الأول ص٥٦ - ٥٧

الفكر السياسي الكنفوشي

ولم تقتصر فلسفة كونفشيوس الإنسانية على الجانب الاخلاقي وحده ، بل قدم فكراً سياسياً جديراً بالاعتبار والإشادة ، إذ على الرغم من أنه لم يصلنا أي بيان جامع عن فلسفته السياسية ، إلا أنه يمكن من خلال ما توفر لدينا من معلومات اعادة بناء معالم واضحة لها[١] ، فقد كان يؤمن بأن الأخلاق القويمة هي المبدأ الأساسى لأى نظام سياسى مستقر ، إذ لا يستطيع أي حاكم أن يقيم نظاماً أجتماعياً كاملا إلا إذا عمل على الإرتقاء باخلاق الأفراد .

وفي المقابل فإنه كان يؤمن بأن الحكومة الصالحة يجب أن يكون هدفها رفاهية الناس أجمعين وسعادتهم . وأن هذا لا يتحقق إلا إذا تولى الحكم أعظم الرجال كفاية في البلاد . وهذه الكفاية لا علاقة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة وإنماهي خاصة بالخلق والمعرفة وهي ثمرة التربية الحقة . ولذلك فقد طالب بأن تكون التربية منتشرة انتشاراً واسعاً في البلاد حتى يمكن اعداد أكثر الرجال موهبة لمهمة الحكم ، ويجب أن يتسلموا الحكومة بعد ذلك بغض النظر عن أصلهم[٢] .

١ـ الفكر الصينى من كنفوشيوس إلى ماوتسى تونج ٥٠ ج . كريل ترجمة عبد الحميد سليم ص ٦٤

٢ـ الفكر الصينى من كنفوشيوس إلى ماوتسى تونج ٥٠ ج . كريل ترجمة عبد الحميد سليم ص ٦٤

وسأل تزه - كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : «لا بد للحكومة من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربي ، ومن الثقة بحكامهم» فقال تزه - كونج : «فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأي هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولاً؟ فأجاب المعلم: «العتاد الحربي» وسأله تزه - كونج مرة أخرى: «وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه؟ فأجاب المعلم : «فلنتخل عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) (فلا بقاء) للدولة».

ولقد أقام كونفشيوس تصوره للدولة والحكومة المثالية على أرض الواقع حينما تولى منصب كبير الوزراء في ولا ية (لو LU) فقد طبق تلك المبادئ التي آمن بها . وبدأ بتطبيق سياسة حازمة فأعدم بعض السابقين من الوزراء ورجال السياسة الذين كان يعتقد أنهم سر الشغب وسبب الفساد والإضطراب في البلاد ، ولم تمض شهور على توليه الوزارة حتى أضحت ولاية (لو) نموذجاً للولايات ذات التنظيم المثالى فاختفى اللصوص وزالت السرقات ، وأصبح التجار يبيعون تجارتهم بأمانة ونزاهة ، كما أصبحت (لو) كعبة الزائرين من السياح الأجانب وأهل الولايات الأخرى الذين أصبحوا يعتبرونها كوطنهم الأصلى ، وقد دفع هذا خصوم كونفشيوس ومن أضيروا من السمعة الطيبة التي حققها فى ولايته أن يدبروا مؤامرة ضد حاكم الولاية

حتى يشغلوه عن تدبير أمورها فتضعف ويتطرق إليها الفساد[١] .

وبالطبع فإن هذا التصوير لدولة مثالية يسودها الحاكم العادل والحياة الاجتماعية والاخلاقية المثالية إنما هو تصور سبق به كونفشيوس أفلاطون فيلسوف اليونان الكبير . ويبقى أن كونفشيوس قد تمكن كما فعل اخناتون فى التراث المصرى القديم من تطبيق وتجربة حلمه المثالى على أرض الواقع بينما لم يتحقق ذلك لأفلاطون .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحكم هو نفس المبدأ الأول الذي تقوم عليه الأخلاق - ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هي القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المثل الأعلى في السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية: «استمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوج» .

وعلى الحكومة أن تُعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها . وآداب اللياقة هي التي تكون على الأقل المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا[٢] .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضا أحلامه ومثله العليا في

١ـ المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٥، وقد تقدمت حكاية المؤامرة.

٢ـ انظر : قصة الحضارة ول وايل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٦٢ - ٦٣

الحكومات والدول . فقد كان يعطف بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت «الأمر الأعلى» أي «أمر السماء» ، قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكي يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق في آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

«إذا ساد (المبدأ الأعظم)مبدأ التماثل الأعظم أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوي المواهب والفضائل والكفايات ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشامل . وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى وعديمي الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يتعدى عليها[١] .

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن كونفشيين من أتباع كونفشيوس قد طوروا فكرة له حول النفس فيما أسموه سلم النفوس وهي فكرة تشبه نفس فكرة أرسطو عن قوى النفس وتمييزه بين النفوس الغاذية في النبات والنفس الحساسة في الحيوانات والنفس العاقلة لدى الإنسان[٢] ، وقد

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٦٣ ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب في هذا الجيل - أمثال هـ ج. ولز - من إنشاء حكومة عالمية. (المترجم)

٢ـ أنظر : كتاب النفس أرسطو ك٢ ك٣ الترجمة العربية الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تبلورت هذه الفكرة عند الصينيين من تلاميذ كونفشيوس على يد هسون تسو - الذي ظهر بعد أرسطو بحوالى قرن - إذ نجده يقول في أحد نصوصه : «للماء والنار جهيان GHHI (أي روحان) رقيقان ، لكن ليس لهما شينج SHENG (حياة) وللنباتات والأشجار شينج (أي حياة) لكن ليس لهما جيه CHIH (أي أدراك) ، وللطيور والحيوانات جيه لكن ليس لها (آي I) أي ادراك للعدل . أما الإنسان فله (جهى) و (شينج) و (جيه) بالإضافة إلى (آي) . لذلك الإنسان أنبل الكائنات الأرضية»[1] .

تلامذة كونفشيوس

ان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملاً . لقد كان يضرب في فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها.

وإذ كان رجال الأدب في كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التي أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلاً إلى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية بأجمعها . وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلم الناس

ومراجعة الاب جورج قنواتى ص٤١ وما بعدها .

١ـ أنظر : موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين جوزيف نيدهام ترجمة محمد غريب جودة ص١٤٣ ، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية د. مصطفى النشار ص٨٦

فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها مِنْشِيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية في الصين فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعي في العصور المظلمة التي تلت سقوط رومة[١] .

وقد كان لكونفشيوس تلامذة وأتباع كثيرون ، برز منهم هينغ تزو (٣٧٢ - ٢٨٩ ق . م) . يرى هذا الفيلسوف أن الحياة البشرية تخضع لـ (الإرادة السماوية) ، التي تتجسد في الوالي الحكيم (وابن السماء) . والإنسان خير بطبيعته ، تلازمه منذ الولادة خصال أربع : التألم لآلام الآخرين (كأساس لمحبة البشر) ، والشعور بالخجل والندم (كأساس للعدالة) ، والتواضع والاحترام (كأساس للطقوس) ، والقدرة على التميز بين الحق والباطل (كأساس للمعرفة) .

ولكن التأثير السيء للمجتمع سرعان ما يفسد هذه الخصال ويموحها . ويقول مينغ تزو بمعرف فطرية : تغرسها في الإنسان (الروح الإلهية اللانهائية) . ولذا فإن على الإنسان أن يفتش في قرارة نفسه عن هذه المعارف ، لكي يجد الحل للمسائل التي تطرحها الحياة ، ويعرف أسباب أخفاقاته وويلاته ، ويتذرع بالصبر إزاء الظلم القائم في المجتمع ، ويتعلم

١ـ قصة الحضارة ول وايرل ديورانت الجزء الرابع من المجلد الأول ص٦٤ - ٦٥

ألا يضمر الحقد لمن آذاه[1] .

وهكذا ، فإن كان لابد من البحث عن نقطة البداية (المعجزة) فهي لن تكون إلا عند من بدأوا التفكير في كل شيء على غير مثال سابق ، وهؤلاء لن يكونوا أبداً لا من اليونانيين ولا من الغربيين عموما ، بل هم أبناء الحضارات الشرقية القديمة التي يعود تاريخها المكتوب إلى حوالي القرن الأربعين قبل الميلاد .

الحمد لله رب العالمين

١-موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الاساتذة السوفيات ترجمة توفيق سلوم ص٣٣

المصادر والمراجع

القران الكريم

١. الطب المصري القديم الدكتور نجيب رياض القاهرة ١٩٥٩

٢. أصول الفكر اليوناني جان بيار فرنان ترجمة د. سليم حداد ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت

٣. أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية إعداد الدكتور خليل عبد الرحمن ، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م ، روافد للثقافة والفنون

٤. احيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم أنيس فريحة ، بيروت ١٩٦٢م ، منشورات كلية العلوم والأداب

٥. الاصول الشرقية للعلم اليوناني د.محمود محمد علي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م

٦. الأصول الزنجية شيخ انتاديوب ترجمة حليم طوسون دار العالم الثالث القاهرة ١٩٩٥م

٧. الاصول الشرقية للعلم اليوناني د.محمود محمد علي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م

٨ البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسط الآسيوي القديم يوسف الحوراني بيروت ١٩٧٩

٩. البوذية مقدمة قصيرة جدا تأليف داميان كيون ترجمة صفية مختار، مراجعة هاني فتحي سليمان، الطبعة الأولى ٢٠١٦م

١٠. التراث المسروق الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة جورج جي. أم. جيمس ترجمة شوقي جلال ، المجلس الأعلى للثقافة

١١. الجمهورية أفلاطون ترجمة فؤاد زكريا القاهرة ١٩٨٥

١٢. الحضارة المصرية جون ويلسون ترجمة الدكتور احمد فخري، مكتبة النهضة المصرية القاهرة

١٣. الحضارة المصرية (صراع الأسطورة والتاريخ) الدكتور شوقي جلال دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦

١٤. الحضارة المصرية جوستاف لوبون ت صادق رستم المطبعة العصرية

١٥. الحكم والأمثال في الأدب الفرعوني د. سيد كريم الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧

١٦. الحكماء الثلاثة أحمد الشنتناوي، دار المعارف للطباعة والنشر،١٩٥٣م

١٧. الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان د. علي حسين جابر ، دار الكتاب الثقافي، الأردن - إربد، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

١٨. الحياة اليومية للآلهة الفرعونية ديمتري ميكس - كريستين ترجمة فاطمة عبد الله محمود راجعه : د. محمود ماهر طه الألف كتاب الثاني

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠

١٩.الدامابادا كتاب بوذا المقدس ترجمة سعدي يوسف

٢٠.الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم الدكتور حسام الألوسي

٢١.السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية جان كلود مارغون ترجمة سالم سليمان العيسى ، دار علاء الدين

٢٢.الشرق الأدنى القديم عبد العزيز صالح الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٨٢ م

٢٣.العصور القديمة د. جيمس هنري براستد نقله إلى العربية داود قربان، الطبعة الثانية ١٩٣٠م

٢٤.الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي الدكتور جمال المرزوقي ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، دار الافاق العربية - القاهرة

٢٥.الفكر الشيعي والنزعات الصوفية الدكتور كامل مصطى الشيبي ، منشورات الجمل ، بيروت - لبنان

٢٦.الفكر الصينى من كنفوشيوس إلى ماوتسى تونج ه. ج. كريل ترجمة عبد الحميد سليم الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١م

٢٧.الفكر الفلسفي العراقي القديم أساس الفلسفة الإغريقية أ. م. د. شعلان كامل اسماعيل كلية الاثار قسم الحضارة جامعة الموصل

٢٨.الفكر الفلسفي الهندي راداكرشنا وشارلز مور ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧م

٢٩.الفلسفات الكبرى بيير دوكاسيه ترجمة جورج يونس ، اشراف كمال يوسف الحاج ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م

٣٠.الفلسفة الأسس نيغيل واربورتون ترجمة محمد عثمان ، مراجعة سمير كرم ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠٠٩

٣١.الفلسفة الأغريقية الدكتور محمد غلاب ، القاهرة - ١٩٨٣م ، الطبعة الأولى

٣٢.الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب، مطبعة البيت الأخضر ، القاهرة ١٩٣٨م

٣٣.الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية الدكتورة عفاف فوزي نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٤.الفلسفة الهندية السيد أبو نصر أحمد الحسيني ، الطبعة الأولى ، القاهرة

٣٥.الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جداً سو هاميلتون ترجمة صفية مختار، مراجعة هبة عبد العزيز غانم

٣٦.الفلسفة اليونانية شارل فرنر ترجمة تيسير شيخ الأرض ،منشورات دار الأنوار ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م

٣٧.الفلسفة اليونانية تأريخها ومشكلاتها الدكتورة أميرة حلمي مطر ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٨م ،

٣٨.الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون الدكتور عزت قرني ، جامعة الكويت - ١٩٩٣م

٣٩.الفلسفة في الشرق بول ماسون - اورسيل ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف - مصر

٤٠.الفلسفة في الهند الدكتور علي زيغور ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

٤١.القانون العراقي القديم د. عامر سليمان الوصل ١٩٧٧

٤٢.الكتب الهندية والبهلوية مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد وشرح استعمال الجداول خالية عن البراهين وبيان العلل) الاستاذ نلينو في كتابه علم الفلك ، تاريخه عند العرب طبع روما ١٩١١

٤٣.المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية الدكتور مصطفى النشار ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

٤٤.المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة جفري بارندر لندن (١٩٧٠) ت إمام عبد الفتاح إمام الكويت (١٩٩٥)

٤٥.المعجزة اليونانية بين الحقيقة والخيال بحث منشور ضمن كتابه (نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة) د. مصطفى النشار الكتاب الأول

٤٦.الهند القديمة حضاراتها ودياناتها الدكتور محمد اسماعيل النداوي ، دار الشعب

٤٧.الهند القديمة حضاراتها ودياناتها د. محمد اسماعيل النداوي .

٤٨.إحيقار الحكيم تحقيق ونشر المطرقان غريغوريوس ، بهنام بولص

٤٩.إخناتون الدكتور سيد كريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م

٥٠.أثينا السوداء مارتن برنال ترجمة د. احمد عثمان الجزء الأول (تلفيق بلاد الإغريق - ١٧٨٥ - ١٩٨٥) المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة د. ت

٥١.أشكالية أصل الفلسفة المعجزة اليونانية الشيخ محمد جبر، الطبعة الأولى

٥٢.أعلام الفلسفة وكيف نفهمهم هنري توماس ترجمة مترى أمين مرجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٤م

٥٣.أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية إعداد د. خليل عبد الرحمن

٥٤.بتاح حتب رائد الفكر الأخلاقي في مصر القديمة د. مصطفى النشار مجلة كلية الأداب بجامعة الامارات العربية المتحدة العين ١٩٩١م العدد السابع

٥٥.بلاد ما بين النهرين ديلابورت، مكتبة التركيب التأريخي ١٩٢٣م

٥٦.بواكير الفلسفة قبل طاليس الدكتور حسام محي الدين الالوسي، أو من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد - العراق، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م

٥٧.بوذا اعتماداً على أقدم النصوص والبولا راهولا ترجمة يوسف شلب الشام، الطبعة الأولى ٢٠٠١م

٥٨.تاريخ العلم جورج سارتون الترجمة العربية للفيف من العلماء دار المعارف بالقاهرة، سلسلة ميراث الترجمة، ٢٠١٠م

٥٩.تاريخ العلم العام والعلوم القديمة تأليف رينيه تاتون، ترجمة علي

مقلد ، الطبعة الأولى .

٦٠.تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسيطة د. مصطفى محمود سليمان الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٥

٦١.تاريخ الفراعنة محمد فخر الدين المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م

٦٢.تاريخ الفكر الفلسفي الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون الدكتور محمد أبو ريان ، الطبعة الثانية ٢٠١٤م ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية

٦٣.تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الأول (الفلسفة القديمة) براتراند رسل ترجمة زكي نجيب محمود ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠١٠ – القاهرة

٦٤.تاريخ الفلسفة اليونانية ولتر ستيس ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة

٦٥.تاريخ الفلسفة اليونانية الدكتور ماجد فخري ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩١م

٦٦.تاريخ الفلسفة اليونانية الدكتور يوسف كرم ، القاهرة .

٦٧.تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي (المدارس الفلسفية اليونانية في العصر الهللينستي) الدكتور مصطفى النشار ، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م

٦٨. تاريخ الفلسفة اميل برهييه ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان

٦٩. تاريخ اليهود في بلاد العرب مصر ولغستون مصر ١٩٢٧

٧٠. تاريخ إيران القديم حسن بيرنيا ترجمة د.محمد نور الدين عبد المنعم ود. السباعي محمد السباعي ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٩م

٧١. تاريخ حضارة وادي الرافدين د. أحمد سوسه

٧٢. تاريخ مصر في عصر البطالمة إبراهيم نصحي مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الخامسة القاهرة

٧٣. تاريخ مصر من أقدم العصور حتى العصر الفارسي تأليف جيمس هنري برستيد ، ترجمة الدكتور حسن كمال ، مكتبة دبولي - القاهرة

٧٤. تاريخ هيرودوت ، ترجمة عبد الاله الملاح ، مراجعة الدكتور أحمد السقاف ، الدكتور حمد بن صراي ، المجمع الثقافي - الامارات العربية المتحدة

٧٥. ترانيم زرادشت دوشن جيلمان مقدمة ترجمته الإنجليزية نقله إلى العربية د. فيليب عطية الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٩٣

٧٦. جذور الاستبداد قراءة في الادب القديم عبد الغفار مكاوي الكويت ١٩٩٤

٧٧. حضارات الهند تأليف غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر

٧٨. حضارة العراق تأليف نخبة من الباحثين العراقيين ، بغداد ١٩٨٥م

٧٩.حضارة الهند روميش تشاندر دات ترجمة مجموعة أقرا ، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م ،

٨٠حضارة ما بين النهرين العريقة ك . ما تفيف أ . سازونوف ترجمة الدكتور حنا ادم

٨١حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما ترجمة ماهر جويجاتي المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ١٩٩٨

٨٢حلم العقل تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة أنتوني جوتيب ترجمة محمد طلبة النصار ، الطبعة الأولى ٢٠١٥م

٨٣حوار الحضارات روجيه جارودي باريس (١٩٥٩) ترجمة عادل العوا بيروت (١٩٨٦)

٨٤حياة مشاهير الفلاسفة ديوجينيس اللائرتي ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، راجعه على الأصل اليوناني محمد حمدي إبراهيم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة

٨٥خواطر ، آفاق عربية د. طه باقر العدد٦/ لسنة ١٩٧٨

٨٦دروس في الفلسفة يوسف كرم إبراهيم مدكور ، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٦م

٨٧دلالة الفلسفة ونشأة السؤال د. الطيب بوعزة نماء

٨٨دور الاسطورة في الفكر المصرى القديم لويس بقطر مجلة فكر تصدر عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة باريس نوفمبر

١٩٨٩م

٨٩.ربيع الفكر اليوناني الدكتور عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية

٩٠.زرادشت الحكيم حامد عبد القادر مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٥٦

٩١.شخصيات قلقة في الاسلام ، دار النهضة العربية بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٤م

٩٢.عظمة بابل هاري ساكز الطبعة الثانية لندن ١٩٦٦ ترجمة عامر سليمان موصل ١٩٧٩

٩٣.علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى نللينو روما ١٩٩١

٩٤.على هامش التاريخ المصري القديم د.عبد القادر باشا مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٠

٩٥.فجر الضمير تاليف جيمس هنري برستيد ، ترجمة سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩٦.فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، الطبعة الأولى ١٩٥٤ ، دار احياء الكتب العربية

٩٧.فكر الهند ألبيرشويتزر ترجمة يوسف شلبي الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ١٩٩٤ م

٩٨.فكرة التاريخ كولنجوود ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٨

٩٩.فلاسفة الشرق أ . و . ف توملين ترجمة عبد الحليم سليم ، مراجعة علي ادهم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية

١٠٠. فلاسفة إنسانيون كارل ياسبرز ترجمة عادل العواء منشورات عويدات بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٨م

١٠١. فلاسفة أيقضوا العالم د. مصطفى النشار الطبعة الثانية

١٠٢. فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة د.عبد العزيز صالح دراسة نشرت بالعدد ٢٦ من (مجلة القاهرة) فبراير ١٩٥٩م

١٠٣. فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود في مصر القديمة د. مصطفى النشار مجلة كلية الأداب جامعة القاهرة مجلد ٥٥ العدد الرابع أكتوبر ١٩٩٥

١٠٤. في طريق الميثولوجيا عند العرب د . محمد سليم الحوت بيروت - دار النهضة ط٢ ١٩٧٩

١٠٥. في موكب الشمس د. أحمد بدوي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ /١٩٥٠م

١٠٦. قبل الفلسفة هنري فرانكفورت ت جبرا ابراهيم جبرا

١٠٧. قصة الحضارة ول وايرل ديورانت ، تقديم الدكتور محي الدين صابر ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود

١٠٨. كتاب التاو الترجمة العربية لهادى العلوى ، نشرة دار الكنوز العربية بيروت ١٩٩٥م

١٠٩. كتاب السياسة أرسطو طاليس ترجمة أحمد لطفي السيد ، منشورات الجمل ، بيروت - لبنان

١١٠. كتاب الموتى الفرعوني برت إم هرو الترجمة عن الهيروغليفية السير والس بادج ، الترجمة للعربية والتعليق د. فيليب عطية ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م

١١١. كتاب النفس أرسطو ك٢ ك٣ الترجمة العربية الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ومراجعة الاب جورج قنواتى دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٩ م

١١٢. كونفشيوس د. حسن شحاته مكتبة نهضة مصر القاهرة

١١٣. لاؤتسى الطريق والفضيلة الترجمة العربية لعبد الغفار مكاوى مؤسسة سجل العرب بالقاهرة ١٩٧٦م (٢٥)

١١٤. لغز الحضارة المصرية الدكتور سيد كريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م

١١٥. ما بعد الطبيعة أرسطوطاليس ، الدكتور عبد الرحمن بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

١١٦. ما قبل الفلسفة الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى تأليف هـ - فرانكفورت جون . أ . ولسن ، هـ . أ . فرانكفورت توركيلد جاكبسون ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ١٩٨٠

١١٧. محاضرات في تاريخ الفلسفة هيغل ترجمة الدكتور خليل أحمد خليل ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١١٨. محاورة طيماوس ، محاورة الجمهورية لأفلاطون الترجمة للعربية فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٥

١١٩. محاورة فايدروس الترجمة للعربية د. أميرة حلمي مطر

١٢٠. مشكلة الفلسفة الدكتور زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، ١٩٧١م

١٢١. مصر الفرعونية جان يويوت ترجمة سعد زهران ، الألف كتاب (٦٠١) ، سلسلة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب ، ١٩٩٦

١٢٢. مع الفلسفة اليونانية الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م

١٢٣. معالم تاريخ الانسانية ، ج . ولز المجلد الثاني ، ترجمة عبد العزيز توفيق ، جاويد مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١١-٣١٢

١٢٤. معجم ديانات واساطير العالم ، اعداد الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ، مكتبة مدبولي

١٢٥. مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة - سوريا وبلاد الرافدين فراس السواح ، دار الحكمة

١٢٦. مقدمة في الفلسفة وقضاياها الدكتور صبري محمد خليل ، الجمعية

الفلسفية للطلاب جامعة الخرطوم، ٢٠٠٥م

١٢٧. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة الدكتور طه باقر، مكتبة مؤمن قريش

١٢٨. ملحمة جلجامش تعريب سامس سعيد الأحمد مجلة التراث الشعبي ٨/ لسنة ١٩٧٧

١٢٩. ملحمة جلجامش الدكتور طه باقر، بغداد، الطبعة الثانية ١٩٧٢م

١٣٠. من الواح سومر صموئيل كريمر شيكاغو ١٩٥٦ ترجمة طه باقر القاهرة ١٩٥٧

١٣١. من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري (بلاد الإغريق تحديدا) أ. د عبد الباسط سيدا سوريا - دمشق دار الحصار للنشر والتوزيع ١٩٩٥

١٣٢. من ألواح سومر صموئيل كريمر شيكاغو ١٩٥٦ ترجمة طه باقر القاهرة ١٩٥٧

١٣٣. من سومر إلى التوراة فاضل عبد الواحد علي الطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٦

١٣٤. موجز تاريخ العالم هـ. ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا، مكتبة النهضة المصرية

١٣٥. موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين جوزيف نيدهام ترجمة محمد غريب جودة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الالف كتاب الثاني

١٩٤ القاهرة ١٩٩٥

١٣٦. موجز تاريخ الفلسفة تأليف جماعة الأساتذة السوفيات ، دار الفارابي - بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى أيار ١٩٨٩م

١٣٧. موسوعة تاريخ الفلسفة المجلد الأول (اليونان والرومان) فردريك كوبلستون ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة .

١٣٨. موسوعة تاريخ مصر عبر العصور (تاريخ مصر القديمة) د. عبد العزيز صالح وآخرون ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٧

١٣٩. موسوعة مصر القديمة (الأدب المصري القديم) الدكتور سليم حسن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى

١٤٠. نشأة الفلسفة في مصر القديمة د. عبد العزيز صالح مجلة (المجلة) العدد ٢٦ القاهرة فبراير ١٩٥٩

١٤١. نشأة الكون ووحدة الخلق د. محمد عوض الله العدد (٤٨٦) دار المعارف ١٩٨٣

١٤٢. نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم نشرها جيمس بريتشارد تعريب وتعليق د. عبد العزيز زايد وراجعها د. محمد جمال الدين مختار ، نشرة وزارة الثقافة المصريةهيئة الآثار مشروع المائة كتاب (٩) القاهرة ١٩٨٧م

١٤٣. نظرية العقل جورج طرابيشي دار الساقي ، الطبعة الأولى

١٤٤. نيتشه والإغريق إشكالية أصل الفلسفة عبد الكريم عنيات ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

١٤٥. هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة اعداد احمد غسان سبانو ، الطبعة الرابعة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٦. هرمس المثلث العظمة أو النبي إدريس تأليف لويس مينار ترجمة عبد الهادي عباس ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م

١٤٧. هكذا تكلم زرادشت فردريك نيتشه ترجمة فليكس فارس ، الإسكندرية ١٩٨٣م

١٤٨. وحدة الإنسان في فلسفة الصين روصن بحث نشر بمجلة (ديوجين) العدد ٨٤ مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة ابريل ١٩٨٩م

١٤٩. مصادر آخرى : إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد اصول الفكر اليوناني جان بيار الاديان القديمة في الشرق د. رءوف شلبي الأدب المصرب القديم د. سليم حسن الترجمة العربية لنصوص الشرق الادنى القديم العراق ما توالى عليه من حضارات د. حسن عون اوبانيشاد مونداكا أوبانيشاد كانا قصة ناسيكتاس أوديب وإخناتون إيمانويل فليكوفسكي الماضي الحي أيفانز لسنر ديانة مصر القديمة أدولف إرمان فنون الشرق الأوسط نعمت علام ماركس انجلس. المؤلفات مصر القديمة د. سليم حسن .

فهرست المحتويات



تولد 1981 بمدينة بغداد طالب دراسات عليا (البحث الخارج) في مركز امير المـؤمنين (عليه السلام) للدراسات الدينية والأبحاث الإنسانية , حائز على شهادة البكلوريوس في اللغة الفرنسية من الجامعة المستنصرية / كلية الأداب .

صدر له :

المناهج والاتجاهات التفسيرية في القران الكريم / تقريرا لأبحاث الشيخ علي حسون

تمهيد القواعد (الجزء الأول) دراسة تحليلية واشارات نقدية / تقريرا لأبحاث الشيخ علي حسون

تمهيد القواعد (الجزء الثاني) المخيال السينوي لابن تركة / تقريرا لأبحاث الشيخ علي حسون

إشكالية اصل الفلسفة (المعجزة اليونانية) دراسة تحليلية نقدية لنشوء التفكير الفلسفي في اليونان والحضارات الشرقية

حكمة الحضارات الشرقية (فلسفة الشرق)



بغداد - الطالبية - مدخل مسبح الصفا
alih22704@gmail.com





طباعة، نشر، توزيع
مكتبة: ٠٠٩٦١١٢٧٩٥٥٧
خليوي: ٠٠٩٦١٧٠٩٥٠٤١٢
E-mail:mortada14@hotmail.com